تشارلز ديكنز

دايڤد كوپرفيلد



تشارلز ديكنز

دايڤد كوبرفيلد

إعداد وتقديم وتحليل
الدكتور رحاب عكاوي



اسم الكتاب :
دايفد كوبرفيلد

المؤلف :
تشارلز ديكنز

اعداد و تقديم و تحليل :
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر :
دار الحرف العربي
للطباعة و النشر و التوزيع

زقاق البلاط -بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون و فاكس : 009611/361045
بيروت - لبنان

E-mail:
Dar_al_haref_alarabi@yahoo.com
DarAlHarefAlArabi@gmail.com
www.dar-alharef-alarabi-lb@jimdo.com
الطبعة :
الاولى 2012
الخطوط :
علي عاصي

الترقيم الدولي :
ISBN: 978-9953-542-40-9
اسم الكتاب بالاصل :
David Copperfield

الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

Printed In Lebanon طبع في لبنان

تشارلز ديكنز
١٨١٢ـ ١٨٧٠

بالقرب من مرفإ بورتسموث في جنوبي انكلترا على بحر المانش، وفي سنة ١٨١٢، ولد الطفل تشارلز لأب اتسم بالرعونة وعدم التبصّر، لكنه باش المحيا لطيف المعشر، وأم غبية يتسم سلوكها أحياناً بالدناءة، هي السيدة نيكلبي. عمل جده وجدته لأمه في خدمة المنازل، وربما كانت جدته تلك هي الأنموذج الذي استوحى منه تصويره للسيدة رونزويل في «البيت الكئيب». اتهم عم له بالاختلاس وكان عليه تبعاً لاختلاسه أن يغادر الوطن نهائياً.

في أثناء طفولته التي اتسمت بالهدوء النسبي قرأ تشارلز كثيراً مثلما كان بطله «دايڤد كوپرفيلد» يفعل في «حجرة صغيرة مباركة»، رودزيك راندوم، بيرغرين بيكل، وهمفري كلينكر، وتوم جونز، وقسيس ويكفيلد، وقرأ دون كيشوت، وجيل بلا، وروبنسون كروزو.



تشارلز ديكنز

فيما بعد، بسبب عوز الأسرة، اضطر إلى أن يبيع هذه الكتب، التي كانت سلوته، لتاجر سكير في شارع هايستيد. ولكن قراءته «سموليت» و«فيلدنغ» و«غولد سميث» و«سرفانتس» وغيرهم كانت خبرة أساسية لازمه تأثيرها الذي انعكس بالضرورة على رواياته.

من بورتسموث مسقط رأسه انتقلت الأسرة إلى لندن ومنها إلى تشاتهام، وفي هذه المدينة قضى ديكنز بعض الأيام السعيدة حين قرأ الروايات، وتلقى تعليمه الأول على يد السيد «ويليام غايلز»، ولو كان قُدّر للأب أن يكون رزيناً عاقلاً لأمكن للأسرة أن تحيا حياة البورجوازية الصغيرة في ذلك الوقت. غير أن الرزانة لم تكن إحدى صفات الأب، فبعد أن نقل مرة أخرى إلى لندن، حيث كان يشغل وظيفة صغيرة في مكتب إدارة رواتب البحرية، استأجر منزلاً في شارع «بيهام» في مدينة «كامرن»، وتورط مرتين على التوالي في أعمال معيبة تركت بصماتها على شخصية ابنه مدى الحياة، الأمر الذي دفع الابن إلى العمل بعد أن دخل هو السجن.

لم يغفر تشارلز أو ينسى أبداً أيام العمل هذه في مخزن «كويلبي» للصباغة في مبنى موبوء مليء بالجرذان في «هانغر فوردستيرز»، وباتت تجربته في هذا المخزن، والتي استعادها بعد ذلك في «جيسمان»، تجربته الخاصة والمباشرة في تشغيل الأطفال. وهو لم يكد يبدأ العمل حتى أُلقي القبض على أبيه، وسرعان ما انتقل معظم أفراد العائلة، تماماً مثل عائلة «دوريت» إلى «مارشال سي»، حيث عاش تشارلز في البداية مع السيدة «رويلانس» في مدينة «كامدن»، وهي السيدة «بيبشن» في «دومبي»، وليصبح بعد ذلك أكثر قرباً من ذلك المكان الذي يتجسّد فيه عاره الخاص، سجن الدائنين، حيث أقام مع أسرة عاجزة «عائلة غارلاند في

دكان العجائب القديمة».

ونحن إن لم ندرك تماماً مدى حساسية ديكنز الفتى لمثل هذه الظروف كان من الصعب علينا أن نفهم السخط الذي لازمه طويلاً والذي سبّبته هذه الأحداث. كان قد حُرم في الحقيقة من وسائل الراحة والعلاقات الحسنة المهذبة للطبقة الوسطى، ولم يعد يستطيع أن يقرأ «لوساج» و«سموليت» وغيرهما، وكان يغار من أخته غيرة يمكن تسويغها لأنها كانت لا تزال تتلقى تعليمها في أكاديمية الموسيقى بميدان «هانوفر» رغم الضائقة المالية. يقول جورج ونغ، كاتب سيرة ديكنز، إن الصبي عانى طويلاً من الحرمان المادي، لكن الذي جرحه وأسخطه أكثر من أي شيء آخر هو ذلك الإحساس المؤرق بالعار، ولا شك في أن التعرّف على تلك الأشكال والأساليب التي تجلب العار وتوحي به مسألة هامة جدّاً لأي فهم لنفسية مجتمع القرن التاسع عشر، إذ نحن نجد الكبرياء وكل ملحقاتها من الثروة والملكية وأنماط السلوك من جهة، والعار وما يرتبط به من حاجة وسرية، ينكب من كانوا من قبل محظوظين ومتميّزين من أبناء الطبقة المتوسطة الناشئة المزدهرة من جهة أخرى. ونحن نستذكر هنا السيدة «بليسترود» لـ«جورج إليوت» قبل وبعد نكبة زوجها الاجتماعية، كان الإحساس بالعار إجبارياً في عدة اتجاهات، ضرورة الحصول على مكانة مرموقة في المجتمع ومتطلبات الإعلان عنها، من خدم وطعام ولباس مميّز، وذلك المقت العميق للاعتماد على الكنيسة في العيش، أو الاحتجاز في الإصلاحية أو السجن، والغموض الذي يحيط علاقة الرجل بالمرأة، مع عوامل الكبت الذاتي والمحرمات الضمنية، والمجاملة والنفاق. وليس من الضروري أن يكون ديكنز الصبي قد عاش مثل هذه التعقيدات جميعها، ولكن من المؤكد أن مواقف وانطباعات جنينية قد نمت في حياته وتوغّلت فيها واستقرت حين نما، وإليها يعود إخفاء تشارلز ديكنز الطويل للمخازي الشخصية التي واجهته، والمرارة العميقة التي أحسها تجاه الظلم الذي ولّدته، وتلك الأحاجي والألغاز الجنسية التي امتلأت بها رواياته.

بعد خمسة أشهر انتهى الأمر بصفة موقّتة إذ أُطلق سراح الأب وعمّ الأسرة رخاء محدود، وتعرّض تشارلز لإهانة شديدة من أمه التي لم تجد سبباً يجعله يتوقف عن العمل لدى «وارن»، فلم يغفر لها ذلك أبداً. ولا يمكن لأحد أن يتحقّق من الأثر الكامل لتصرّفها الجشع التافه هذا، والذي يمكن أن يكون سبباً من أسباب ذلك الإفلاس العاطفي الذي عانى منه ديكنز في حياته الخاصة، وتبدّى أحياناً في بعض التعليقات القاسية في رواياته.

رغم ذلك، وبعد أن تشاجر أبوه مع «جيمس لامبرت» صاحب «وارن» تمّ إنقاذ الفتى من المهانة التي غرق فيها، إذ أرسله أبوه إلى أكاديمية «ويلينغتون» حيث قضى عامين لا يمكن أن يقال إنهما خاليين من السعادة، وكان قد بلغ الخامسة عشرة، ومنذ ذلك الحين وحتى نشر «بيكويك»، أي حين أصبح في الرابعة والعشرين، عمل موظفاً وصحفياً تحت التمرين، حيث تعرّف على كثير من التفاصيل الدقيقة عن العمل الوظيفي واحتياجاته، والعوز الذي يعيش فيه الموظفون، وهو ما استخدمه بشكل لاذع وبارع في رواياته لاحقاً.

في واقع الأمر كان العمل المحترم الأول الذي مارسه، بالمقارنة مع مرحلة «لامبرت»، هو صبي مكتب محاماة لدى مؤسسة «أليس وبلاكمور» في «غريزان»، وربما كان السيد

أليس هو الأنموذج الأصلي للصورة الكاريكاتورية للسيد «بيركر» في «بيكويك». وقد استعاد ديكنز صورة صبي مكتب الدعاوى بعد سنوات طويلة في «صديقنا المشترك»، كما استعاد أيضاً أنموذج الإعياء والرتابة في العمل في صورة «بلايت» الشاب الذي يعمل في خدمة «مورتيمار لايتوود» ويشغل «بلايت» وقت فراغه بملئه مجلدين خطيّاً بأسماء زبائن وهميين، ويفيض العمل بتلك السخرية المريرة التي تدور حول آفاق التقدّم المفتوحة أمام الفتى.

إرتفع أجر تشارلز ديكنز لدى «أليس وبلاكمور» من ستة أو سبعة شلنات إلى خمسة عشر شلناً بعد ثمانية عشر شهراً، مثله مثل «بلايت» الشاب الذي كان متشككاً ـ رغم جنسيته ـ في إمكانية ترقيته إلى المنصب. ومن ثم أخذ يبحث إمكانية العمل في الصحافة التي تطلّبت منه أن يتعلم تعليماً شاقاً وأن يتقن، كما فعل دايفد كوپرفيلد، نظام غارني في الاختزال. وكان من غير المعقول أن يبدأ بالمهارة التي بدأ بها «دايڤد»، ولكنه استطاع على أي حال الحصول على المهارة المطلوبة، وتقبل تشارلز التحدي وأصبح محقّقاً صحفيّاً بالقطعة في محكمة، وقد عمل سبع سنوات باحتراف حتى كتب «بيكويك».

هذه السنوات السبع تركت تأثيراً شكلياً وكيفياً في قدرته الحرفية في الكتابة، هذا دون أن نأخذ في الاعتبار كثيراً تلك التحذيرات التي قدّمها «ك. ج. فيلدنغ» قائلاً «إنه من الخطإ تصوّر أن يكون ديكنز مديناً بشيء في كتابته لهذا التدريب المبكر الذي تلقّاه كصحفي»، ولكن رأي فيلدنغ هذا يبدو متحذلقاً لأنه يقوم على اختلاف التركيب المعاصر للصحافة عن تركيبها في الماضي، والصحافة المعاصرة المتميزة تستحق الاهتمام حقّاً ولكن في مجالها الخاص كصحافة. وفي أي حال فقد تعرّف ديكنز على قساوة الواقع والخبرة الخاصة به التي حصل عليها من خلال كتاباته في كل من صحف «تروصن» و«بارليامنت ميرور» و«مورننغ كرونيكل» و«ايڤننغ كرونيكل». تعرّف على الناس والعادات الشاذة، واستمع إلى أحاديث وكلمات، وتعرض للأذى، ثم نما لديه ذلك التآلف اليومي مع «لاإنسانية» القانون التي اتخذت شكل مؤسسات، ومن المؤكد أن هذه الخبرة في مجملها قد شكّلت مواقف وشحذت مشاعر، ولم تكن هذه الأحداث والمواقف كلها مادة خام فحسب، بل ربما يعود إليها الفضل في خلق بعض الأشياء الخيالية في رواياته.

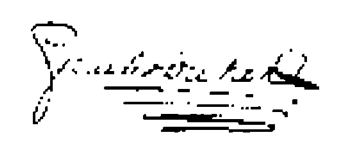
في هذا الصدد علينا أن نلاحظ كيف أن عمله قد عمّق معرفته بفانتازيا المخادعة القانونية وأحابيلها، وكيف أن «البيت الكئيب»، على الأقل، هو نصب تذكاري روائي لكل ما حملته تلك الأيام من أحداث ومعان. وبالإضافة إلى تجربته مع القانون ومؤسساته كان تشارلز ديكنز، ابتداء من سن التاسعة عشرة، يعمل مندوباً للشئون البرلمانية، وأصبح نتيجة هذا العمل يحتقر احتقاراً شديداً نواب البرلمان وسلوكياتهم وتشريعاتهم. ويعلق «أونا ـ بوب هينيس» على هذا يقول: «استدعي ديكنز ليكون مندوب «الكرونيكل» وليسجل المناقشات التي جرت حول مشروع قانون الفقراء بما يحويه من مائة فقرة أو أكثر حول البوابين والمتسولين والأبرشيات، وكان ذلك واجباً مضنياً لديكنز ولكنه واجب عميق الفائدة، إذ يمكن القول إنه بقيامه به قد أهّل نفسه قسريّاً للهجوم على جميع الموضوعات التي خلقها التشريع الجديد. وقد أخذ النقاد الذين قاموا بعرض وتقديم رواية «أوليڤر تويست» يقولون إنه من باب الوقاحة أن يتقدّم كاتب جديد شاب ليكتب بهذا الغرور، فكيف يستطيع روائي

صغير السن إلى هذا الحد أن يتعرف على ما كان يكتب عنه؟ وحينئذ كانت هناك قلّة من النقاد ـ إن وُجدت ـ قد تحققت في هذه الأيام من أي مدرسة تخرج «بوز». والملاحظ أن شخصيات ديكنز البرلمانية هي في الواقع العملي إمّا سيئة وإمّا غبيّة.

وعن حياة تشارلز ديكنز الخاصة والعاطفية فإن هناك، في أقل تقدير، ست نساء لا بدّ من أخذهن في الاعتبار: ماريا بيدنيل حبه الأول، كاثرين هوغارث زوجته، والتي لا يمكن إلاّ أن تُدان تماماً، وشقيقتاها ماري وجورجينا، وأنجيلا بورديت كوت التي شاركته في العمل الخيري سرّاً، وألين تيرنان حبيبته الصغيرة التي خطب ودها وغرّر بها وهو في أواسط العمر. وكان ملحوظاً في البدء كيف أن ديكنز قد شارك الكثير من روائيي القرن صمتهم إزاء وصف بعض المسائل الجنسية، وطالما وُضع هذا الصمت في تناقض مع تقاليد القرنين الثامن عشر والعشرين بخصوص الكتابة عن الجنس، وليدلّل هذا التناقض على تلك القناعات المتزمتة للقرن التاسع عشر، وتلك في أي حال مادة للمؤرخين الاجتماعيين، ومع ذلك فهناك بعض الدلالات التي يمكن التعرف عليها من علاقة ديكنز الشخصية بهاته النساء وانعكاس ذلك على كتابته. وهناك اتفاق عام بين النقّاد على أن شخصيات أبطال وبطلات ديكنز هي من بين شخصياته المتخيّلة أقلّها إثارة. ومع ذلك فإن الأشياء الغامضة أو العاطفية ـ والفظّة أحياناً ـ في تصويره للقاء الجنسي وأشكال الغزل التقليدية التي تبادلها الرجال والنساء في عالمه، والعداوة الزوجية التي تغرق بمرارتها الكثيرين من الأزواج والزوجات الذين مضى على زواجهم وقت طويل، ومن أكثر الأمور إحباطاً في عالم ديكنز تلك السخرية المريرة من العوانس، ويمكن أن نرجع ذلك كله، في جانب منه، إلى مغامراته العاطفية.

وقد ألهمته «ماريا بيدنيل» سواء عاطفة في تصويره لـ«دورا سبينلو» في «دايفد كوبرفيلد» أو قساوة في تصويره لـ«فلورا فنشنغ» في «الصغيرة دوريت»، وكان ديكنز قد التقى بها للمرة الأولى وهو في السابعة عشرة من عمره، وكانت أصغر ثلاث بنات حسناوات لأب يعمل مديراً لمصرف، وعاش في شارع لومبارد. في البداية، لقي ديكنز تشجيعاً من أبيها، كان أيضاً تشجيعاً غير مقصود لاهتمامه بها، وكثيراً ما دُعي للغداء، وعشق الفتاة لمدة أربع سنوات عاصفة بالعواطف، كانت في أثنائها تصده من حين إلى آخر صدّاً قاطعاً، ووضعت بيديها نهاية مهينة معذبة لقصة حب سارت في إطار المواصفات المعاصرة ملتزمة بالمحظورات وبما هو لائق، ويبدو أنها تركت أثراً لم يبارحه قط، مشابهاً لذاك الذي خلفته ورشة الصباغة أو سجن الدائنين، وكانت سبباً في انهزام عاطفي داخلي، قرّر بعده ألاّ يعرض مشاعره لانهزام مشابه أبداً.. فهو يقول: «تركت لدي انطباعاً عميقاً حتى إنني أرجع إليك تلك العادة التي لازمتني في قهر النفس، والتي أعرف أنها ليست جزءاً من طبيعتي الأصلية ولكنها تجعلني شحيحاً في إظهار عواطفي حتى بالنسبة إلى أطفالي إلاّ إذا كانوا صغاراً جدّاً». وهنا يتساءل المرء عمّا إذا كانت بدانة ماريا وغلظتها وسخطها الذي لم ينفثئ كلية أبداً، هي ما دفعت ديكنز إلى هذا النوع من الانتقام الذي مارسه فيما بعد، إذ بعد عشرين عاماً من انتهاء قصة الحب كتبت ماريا إليه رسالة، وكانت حينئذ السيدة ونتر، وأمّاً لطفلين، وكان هو أباً لتسعة أطفال، عرضت عليه فيها أن يلتقيا مرة ثانية، فاستيقظت مشاعره بعنف مستعيدة نشوة الحب اليافع، وفي تلك اللحظة الرائعة أُصيب بخيبة أمل قاسية، كانت مفرطة البدانة يطفح غباوها

شرّاً، وكأنما كانت تحمل صورة «فلورا فنشنغ» كما قدّمها بعد ذلك نوعاً من التعاويذ الشيطانية، ومع ذلك فإن الإحباط الجنسي الأول، الذي لقيه، وما سبّبه من عقد في حياته، قد أثّر بشكل جلي في روايته هذه.



توقيع ديكنز

على أنه سرعان ما جذب انتباهه فتاة أخرى، كان قد لقي كاثرين هوغارت وهو في الثالثة والعشرين، وفي نيسان/ أبريل سنة ١٨٣٦ تزوجها. وكانت لها شقيقتان، ماري وجورجينا، ارتبطتا كلتاهما ارتباطاً غريباً بهذا الزواج، ونتيجة لذلك انتشرت ظنون وشائعات حول نوع من الحب الشهواني العاصف بينه وبينهما. عاشت ماري مع الزوجين الشابين منذ البداية الأولى للزواج وماتت فجأة في ريعان الصبا بين ذراعي تشارلز، تماماً كما ماتت «نيل ترينيت». والتحقت جورجينا بالأسرة بعد ذلك بوقت قصير، والذي يبعث على الاستغراب حقّاً أنها بقيت هناك حتى بعد أن حُرمت كاثرين من صفتها كزوجة. كانت كاثرين الابنة الكبرى لـ«جورج هوغارت» محرّر «أيڤننغ كرونيكل» الذي عمل معه ديكنز، وكانت خصبة دائمة الإنجاب بإصرار، حملت له عشرة أطفال، وانتهى الزواج نهاية درامية أحدثت دويّاً عامّاً، فبعد عشرين سنة من زواجهما كتب «ويلكي كولنز» ميلودراما أطلق عليها اسم «البحر المتجمّد» وأنتجها تشارلز ديكنز مع مجموعة من الهواة. ومات صديقه «دوغلا جيرولد» فأعاد ديكنز العرض سنة ١٨٥٧ ليفتح صندوقاً لمعاونة أسرة جيرولد المعوزة، واستعان حينئذ بممثلة محترفة هي السيدة تيرنان، وابنتيها الشابتين. كانت ألين هذه في الثامنة عشرة ففتن بها تشارلز، فأنهى لأجلها زواجه بكاثرين سريعاً، وكانت العلاقة بينهما قد تفاقمت في أي حال، ليس بسبب تكرار مرات الحمل والولادة فحسب، وإنما بسبب ازدياد النفور بينهما.



الروائي ديكنز (١٨٥٢)

وتذكر «كيث بيروجيني» إحدى بنات ديكنز والدها بمرارة شديدة في كتاب وضعته لتؤكد فيه أن الغلطة كلها لم تكن غلطة كيث الأم. وطمست سريعاً قصة «ألين تيرنان»، واقتصرت معرفتها على عدد محدود من الناس إلى أن نُشرت مقالة «توماس رايت» في «ديلي إكسپرس» بعد مرور حوالى ثمانية عشر عاماً. كانت قضية واحد من ألمع رجال العصر الڤيكتوري أُصيب بالاضطراب العاطفي، خلبت لبّه فتاة لم تكن على جانب كبير من الذكاء أو الحسن، فأقام لها بيتاً خاصّاً متخذاً منها خليلة. ومن المرجح أنه قد أولدها طفلاً. كان ذلك تجاوزاً أكثر ممّا ينبغي ومثيراً للسخرية من ديكنز الذي كتب «دنغلي ديل» وقدّم لنا العائلات السعيدة.

هذه الأحزان والأشجان التي تملأ حياته لا تشكل كل سيرة ديكنز، كانت هناك المشاحنات العنيفة مع الناشرين، ولكنه منذ نشر «بيكويك» حتى النهاية حظي دائماً بتقدم مادي درّ عليه الربح المتزايد. ومع ذلك فهو لم ينس أبداً معوزي لندن وكادحيها، وعلى مدى عشرين عاماً كاملة عمل في السر أكثر ممّا في العلن بالتعاون مع وريثة ثرية هي الآنسة «بورديت كونر» في محاولات لاصلاح بعض الفساد الاجتماعي. وكانت علاقة رومانسية أفلاطونية، يشاركان فيها في تقديم الخير للانسانية. كان ديكنز يبدو حاضر البديهة، مرحاً، واجتماعياً، تحمّل أعباء الشهرة في سن الرابعة والعشرين، رحل كثيراً الى أميركا وأوروبا، وحاز شهرة عالمية، ولا شك في أنّ، في هذه الفترة من حياته، أياماً سعيدة ومراحل موفقة، ورغم ذلك نجد أن كل كتاباته التي وصلت الى خمس عشرة رواية بدءًا بـ«بيكويك» سنة ١٨٣٨ وانتهاء بـ«ادوين درود» سنة ١٨٧٠ لم تخل من الاضطرابات الشخصية والضغوط العاطفية التي أثقلت كاهله ولم يبتعد ظلها مطلقاً، وبقيت آثار القسوة الاجتماعية مصدراً دائماً ليأس لا يزول.

هذه الكآبة يجب أن نتذكرها بصفة خاصة في تقويمنا لقدرات ديكنز الكوميدية.

توفي تشارلز ديكنز سنة ١٨٧٠، وكان قد كتب نصف روايته «ادوين درود» وترك في وصيته ألف جنيه استرليني لـ«ألين تيرنان»، وقد كان من الشهرة بحيث دفن في دير وستمنستر بين أعظم شعراء انكلترا ورجالاتها.

مؤلفات تشارلز ديكنز:

روايات:

١ ـ أوراق نادي بيكويك المنشورة بعد وفاته.
٢ ـ أوليفر تويست أو مسيرة صبي الأبرشية.
٣ ـ حياة ومغامرات نيكولاس نيكلباي.
٤ ـ دكان العجائب القديم.
٥ ـ بارنابي رودج، حكاية عن اضرابات الثمانينات.
٦ ـ حياة ومغامرات مارتن تشيزلوويت.
٧ ـ معاملات مع مؤسسة دومبي وولده.
٨ ـ التاريخ الشخصي لدايفد كوپرفيلد.
٩ ـ البيت الكئيب.
١٠ ـ أيام صعبة (بالنسبة الى هذا الزمن).
١١ ـ الصغيرة دوريت.
١٢ ـ قصة مدينتين.
١٣ ـ الآمال الكبيرة.
١٤ ـ صديقنا المشترك.
١٥ سرّ ادوين درود.

سكتشات وقصص قصيرة:

١ ـ سكتشات بقلم بوز.
٢ ـ كتب عيد الميلاد.
٣ ـ قصص عيد الميلاد.

دراما:

١ ـ غانيات القرية.
٢ ـ الرجل الغريب.
٣ ـ هل هي زوجته أم شيء مفرد؟
٤ ـ الرجل الذي يوقد المصباح (فارس).

وله أيضاً:

١ ـ المسافر الذي لا يتاجر.
٢ ـ ملاحظات أميركية.

٣ ـ صور من ايطاليا. ٤ ـ تاريخ انكلترا يكتبه طفل.
٥ ـ حياة سيدنا.
٦ ـ رسائل، نقحتها وحررتها جورجينا هوغارت ومامي ديكنز.
٧ ـ أحاديث، جمعها ونقحها ر.هـ. شيپرد، ثم أحاديث تشارلز ديكنز، جمعها ونقحها ج.ك. فيلدنغ.

دايڤد كوپرفيلد

عند التصدي لدراسة وتحليل أعمال كاتب يتمتع بخصوبة تشارلز ديكنز وغناه يصبح من العسير بمكان فهرسة أعماله تبعاً لنوعيتها مع مراعاة التسلسل التاريخي لصدورها. فرواياته الأربع عشرة، والنصف رواية، التي لم يكملها، تعد دون شك بمثابة أبرز آثاره. ولكن هناك كتابات أخرى كثيرة توزعت زمنياً قبل وخلال مرحلة الروايات. وليست الرسائل موضوعاً للنقد الأدبي، وكان ديكنز قد كتب فيها عدداً كبيراً جدّاً لكل أنواع الناس وأتلف هو وعائلته عدداً آخر، وربما لو بقيت هذه الرسائل لأثارت فضول الشهوانيين وطالبي العلم والأدباء.

في روايته «دايڤد كوپرفيلد» نعود الى ذلك التألق الودود والأليف الذي يشع دفئاً في الجانب الأعظم من عالم ديكنز، حتى ان هناك شخصيات مثل السيد «ماردستون» و«يوريا هيپ» تتمتع بهذه القدرة على اشاعة الألفة والود. ومن الصعوبة بمكان أن يحاول المرء ألاّ يكون مكرراً وسخيفاً حين يكتب عن هذه الرواية، فهي تحظى بحب شعبي كبير، ربما لأنها تضم ثروة من الاشارات والمراجع الذاتية، وربما بسبب الاعتراف العالمي بشخصياتها مثل «پيغوتي» و«ميكاوبر» و«بيتسي ترودوود» و«ديك» و«تومي ترادلس» و«دورا» و«باركيس» وغيرهم، فإذا كان العمل الصحفي في جريدة ذات شعبية هو انعكاس للمزاج الشعبي فإن «يوريا هيپ» لا يزال يثير الخيال حتى من خلال أداة اتصال شعبي أخرى كالتلفاز.

يقول «كينيث ايستوف» في «دايلي ميرور» ٥ آذار/ مارس ١٩٦٦: «تفتح جهاز التلفاز ساعة تناول الشاي عصر يوم الأحد فيبدو كما لو أنك أدرت موسيقى الروك، لأنه تماماً مثل يوم الأحد الماضي. ربما قفز الينا هو نفسه، ذلك الكائن البسيط سائباً وداخلاً خلسة، ينظر شزراً بصورة وضيعة ويسعى الى امتاعك.. انه «يوريا هيپ» أكثر أشرار التلفاز انحرافاً ووضاعة وعرضة للكراهية. تتعلق كل متعتي بـ«هيپ»، وحين لا يكون هنالك، مثل غد، فإن تلك اللسعة تنتفي عن كل مشاهدات الأحد، ومهما يكن ما يقوله ديكنز فإن هذا المخلوق لم يولد وانما لا بد أن يكون قد نما بجوار حائط موحل لسجن رهيب متآكل اخضرت جدرانه من الرطوبة».

تتضمن رواية «دايڤد كوپرفيلد» جزءين يرى «جون جونز» أن أحدهما هو «محاكمات دايڤد» والثاني هو «صورة الفنان شاباً». في الجزء الأول نجد أن الاساءة العارضة الى طفولة تعطي ثقتها للعالم موضوع ملح ومؤرق لأعصاب الذاكرة الخلاقة، وهو موضوع عرض من قبل في «أوليفر تويست» و«نيكولاس نيكلباي»، غير أننا نتوفر هنا على نوع من البهجة الشريرة التي ترى «دايڤد» من منظور سادية «ماردستون» و«كريكل» وعبر رعاية «ستيرفورث». وكما هو الحال بالنسبة الى «دومبي» يبدو هناك استغراق واهتمام فائق

بالتقسيم الطبقي والاجتماعي، فالقلوب الخيرة الصادقة هي قلوب الفلاحين والصيادين البسطاء (باركيس) والسيد (بيغوتي)، ومع ذلك يتكشّف لنا بسرعة ذلك التقدير والإعجاب الواضح بالوسط الأرقى والغارق في الرفاهية، هذا بالرغم من الحقيقة القائلة إن على هذا المستوى الذي يثير الحسد يبدأ الانحراف والخداع.

إن الوصمة الاجتماعية الفظيعة التي خبر ديكنز آلامها في صغره هي لجوء أبويه إلى تشغيله في شركة «وارن» للصباغة دون مراعاة لمشاعره وصباه. وكان الاستحضار الروائي لهذا العالم بانحطاطه الاجتماعي يتمثل في ورشة «ماردستون» و«غرينباي» والتي كانت الجرذان تديرها فعلاً. وبقدر قذارة المكان فإن فئة الناس التي كان على «دايفد» أن يعمل معها قد أثارت لديه إحساساً بفقدان أي أمل وبالعار الذي يجلله به وضعه هذا. وتتضح إحدى خصائص ميول تشارلز ديكنز الاجتماعية بشكل صارخ في تفاصيل اليوم الأول الذي قضاه «دايفد» في الورشة حين يلتقي بـ«مايك ووكر» و«ميلي بوتيتوز» ويعلن «ليست هناك كلمات تستطيع أن تعبر بصدق عن ذلك الألم الروحي الخفي المروع الذي انتابني وأنا أغرق في صحبة أناس كهؤلاء».

إن هذا الألم الخفي المروع الذي يسببه رفاق عمل كهؤلاء يستعصي على التصديق من كاتب كان عليه أن يفتح قلبه ونفسه ويقدم محبته للخير وللعالم كله من حوله، ويدعوه كل هذا إلى المبادرة لإغاثة كل التعساء في الأحياء الفقيرة المخيفة في القرن التاسع عشر، وأن يمتزج بهم ويعيش معهم. ولكن النزعة الخيرة وحب الإنسانية والعطف عليها لا بد أن تنبعث وتوجه وتؤتي ثمارها من موقع الاحترام الاجتماعي، ومن الإحساس بالأمان الذي يوفره اليسر الخاص. وكان ديكنز يطمح على الدوام إلى التوصل إلى مكانة أرقى في هذا التركيب الاجتماعي الإنكليزي العجيب، وواضح أنه كان مدركاً تماماً لهذا الوعي الطبقي، ولكي يكفّر عنه فإن هذا الراوي، الذي يروي بعاطفة عن الشوارع الخلفية وعن قوارب الصيد المقلوبة، ينذر نفسه بإصرار وأصالة للتعبير عن ساكنيها. وقصة «هام» و«إميلي الصغيرة»، زادت أو نقصت كمية العواطف الخاصة التي تعبر عنها، هي حالة من حالات النظر من هذه الزاوية. وهكذا أيضاً سؤال «بيغوتي» لـ«إميلي»، وقبلها «باركيس» وأيضاً «بيغوتي» ولكن بعد أن كانت، إلى حدّ ما، قد صقلت اجتماعياً في أثناء خدمتها في منزل أسرة «كوبرفيلد».

في الجزء الأول نلاحظ أيضاً تلك الدراسة البارعة لاضطراب السيد «ديك» العقلي، والذي يحتفظ لنفسه، بصورة مسرحية، بموطئ قدم في ما يسمّى عالم العقلاء، بينما تعكس تصرفاته الهزلية مع الحدأة والنصب التذكاري قلق الجنون وتباشيره. ونلاحظ عانساً هي الآنسة «ماردستون» التي أذبلها الحرمان الجنسي، والتي ربما كانت، من الناحيتين الذاتية والموضوعية، أقسى هذه النماذج في عالم العوانس الشاسع الذي خلقه ديكنز. ونحن نلاحظ بطبيعة الحال أن «كريكل» و«بيت سالم» هي نسخ أخرى من «سكوير» و«دوثبوي» القادمين من الأقاليم، ولكنهم في هذه المرة ينتمون إلى العاصمة، وبالطريقة عينها فإن هزلية «يوريا هيب» الذي يدخل خلسة ينتمي إلى وكر «كويلبان» المليء بالمباذل والعلل.

وفي الجزء الثاني نجد أن «دورا» بسبب ملابسها الماجنة وسلوكها المستهتر، هي الشخصية المسيطرة تماماً كما سيطرت كل من «ماريا بيدنيل» و«كيث هوغارت» على

الحياة العاطفية والجنسية والعائلية لديكنز الشاب. ومثل توماس هاردي، الشاعر والروائي الإنكليزي، كان ديكنز قادراً على أن يكتب عن العشق والمغازلة بسلاسة فائقة تتسم بالبراءة والسذاجة، وذلك بالقدر الذي تخوله له محرمات العصر ومكوناته. ويصوّر لنا «دايفد» و«دورا» في حديقة «سبينلو» تلك الملهاة الرومانسية الفوارة إلى الحد الذي يمكن أن يتحقق فيه في إطار من الكبت الفيكتوري، وهي من هذا النوع من الغزل وبث لواعج الحب المثالي الرومانسي الذي يحدث في البلاط الملكي، وتستثمر هذه المناسبات بحدة ومضاء لأن عبيرها وسذاجتها الرومانسية الشابة الواضحة تتناقض تماماً مع الممارسات المريرة القذرة.

والواقع أن طريق الحياة الزوجية ليس في حد ذاته مفروشاً بالورود، فـ«دورا» التي تعجز عن إدارة الحياة المنزلية تصبح تماماً مثل «كاثرين ديكنز»، وربما كان موتها اعترافاً في اللاوعي بموت زواج ديكنز نفسه. أمّا «آغنيس» الرفيقة الجنسية المثالية فهي لا تلبي الاحتياجات العملية للزواج، تماماً كما كانت حالة ديكنز في حياته الخاصة مع «ألين» وبعد انفصاله عن زوجته. ومع ذلك فإن شخصية «دورا» تحمل بشكل مزعج كل ما يريد أن يعبّر عنه من التزويق والضحالة. وكما أنها ساذجة وغير عملية فهي امرأة تدعو إلى الثقة، وهي تتمتع إلى جانب أشياء كثيرة ومؤكدة بشجاعة خفية. ونحن نستطيع أن نستدل بما يطغى على الأعماق والظلال حتى ولو لم تكن التعقيدات الأساسية حية بصورة مرضية.

لقد بنيت «دايفد كوپرفيلد» في الغالب الأعم من ذكريات تجارب ديكنز الشاب، ولكنه يعرض لنا، بالرغم من انسحاب دايفد إلى سويسرا، ذلك الانسحاب الشبيه بعزلة «وورد ثورت» وتصالحه النهائي مع آغنيس، يعرض عدم الاستقرار في حياة ديكنز الزوجية. وهي تعلن بشكل حقيقي أيضاً ودال، وإن يكن غير مباشر، عن نبوءات تجعل الرواية مختمرة بالقلق، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نكتشف في لب الرواية ما نتوقعه من حرارة بهيجة مع ذلك الفوران والرفق الذي تتسم به كوميديا الشخصيات.

*

أُخرجت رواية «دايفد كوپرفيلد» للسينما:

١٩١١، إخراج ثيودور مارستون.
١٩١٣، إخراج توماس بنتلي.
١٩٢٢، إخراج أ.و. ساندبرغ.
١٩٣٥، إخراج جورج كوكور.
١٩٦٩، إخراج دلبرت مان.
١٩٧٤، إخراج جوان كرافت.
١٩٨٦، إخراج باري لتس.
١٩٩٩، عُرض على B.B.C.
٢٠٠٠، إخراج پيتر ميداك.

كما اقتبست الرواية للمسرح سنة ٢٠٠٦.

1

في منطقة بلندرستون، في مقاطعة سوفوك أو «بتلك الوسيلة»، كما يقولون في سكوتلاندا، ولدتني أمي، وكان ذلك في يوم الجمعة. كانت عينا والدي قد غابتا عن هذه الدنيا قبل أن تنفتح عليها عيناي بستة أشهر.

أما عمة والدي فقد كانت الوجيهة البارزة في عائلتنا، وكانت تدعى الآنسة تروتوود، أو الآنسة بيتسي، كما كانت تسميها والدتي المسكينة عندما تتغلّب، بشكل كافٍ، على خوفها من هذه الشخصية المهيبة، وتأتي على ذكرها.

وكان قد سبق للآنسة بيتسي أن تزوجت من رجل أصغر منها سناً؛ وكان هذا الأخير وسيماً جدّاً، وقد شكّ الأهل في أنه كان يضربها. وبعد وفاته عادت الآنسة بيتسي لتنتحل اسمها الأصلي، الذي كان لها قبل أن تتزوج؛ واشترت لها بيتاً صغيراً في قرية تقوم على أحد الشواطئ، وعلى مسافة طويلة، واستقرت فيه مع خادم على اعتبار أنها سيدة تعيش وحيدة.

والذي أعتقده هو أنها كانت تحب والدي في يوم من الأيام، إلاّ أنها كانت مستاءة من زواجه، لأن أمي كانت في غاية الجمال، تبدو وكأنها دمية من الشمع، ولم تكن هي قد رأت والدتي من قبل. على أنها كانت تعلم أنها لم تكن تبلغ العشرين من عمرها بعد. وعندما اقترن بها والدي كان عمره ضعف عمرها، وكان ذا بنية ضعيفة، وقد مات بعد زواجه بعام واحد.

هذه هي الحالة التي كانت تجري فيها الأمور في بعد ظهر ذلك اليوم، وهو اليوم الذي قد أكون معذوراً في أن أُسميه بيوم الجمعة المهم والخطير.

كانت والدتي تجلس بقرب المدفأة، وهي في حالة سيئة من الصحة، يكتنفها الحزن والكآبة، عندما رأت، وهي ترفع عينيها إلى النافذة المقابلة وتجففهما من الدموع، سيدة غريبة تعبر الحديقة! وعند النظرة الثانية أصبح لديها شعور أكيد بأنّ السيدة القادمة هي الآنسة بيتسي.

«أعتقد بأنك السيدة كوپرفيلد!» قالت الآنسة بيتسي، وكانت لهجتها التي تؤكّد على كلمة «أعتقد» تعود إلى الحالة التي كانت فيها أمي وإلى ثوب الحداد الذي كانت ترتديه.

وأجابت أمي بوهن «أجل».

فقالت الزائرة «أنا الآنسة تروتوود؛ وهل أستطيع أن أقول إنك قد سمعتِ بها؟».

أجابت والدتي أنه قد سبق وحصل لها السرور بذلك. وعندما اتخذت كلٌّ منهما مجلسها، دون أن تتفوه الآنسة بيتسي بحرف، شرعت أمي في البكاء بعد أن حاولت عبثاً أن تكبت نفسها.

فهتفت الآنسة بيتسي بسرعة «آه، كُفّي، اصمتي، صه، لا تفعلي ذلك! كفى! آه، يا لدهشتي. إنكِ لطفل صغير!».

وقد كانت والدتي، دون شك، فتيّة بمظهرها، بشكل غير اعتيادي، حتى بالنسبة إلى سنيّ عمرها. وأخفضت رأسها كما لو أن مسألة ولادتها المنكودة كانت خطأً خاصاً بها، وقالت وهي تجهش بالبكاء، إذ إنها كانت خائفة فعلاً لكونها أرملة وهي طفلة، ولكونها ستغدو أماً وهي طفلة، هذا إذا ما كتبت لها الحياة:

«إني أرتجف كلياً. لا أدري كيف هي المسألة. سأموت، إني متأكدة من ذلك!».

فقالت الآنسة بيتسي «كلا، كلا، كلا! اشربي بعض الشاي».

فهتفت أمي بضعف «آه! الشاي! أتعتقدين أنه سيحسِّن من أمري بشيء؟».

فأجابت الآنسة بيتسي «طبعاً سيحسِّن. فهذا ليس شيئاً، وإنما مجرد وهم، ماذا تسمّين فتاتك؟».

قالت أمي ببراءة «لست أدري ما إذا كان المولود فتاة بعد، يا أماه!».

فهتفت الآنسة بيتسي «لا أعني ذلك، وإنما أقصد خادمتك».

فأجابت أمي «پيغوتي».

فرددت الآنسة بيتسي «پيغوتي! هل تعنين، أيتها الطفلة، أن أي إنسان

مضى إلى الكنيسة يمكن أن يختار لنفسه اسم پيغوتي؟».

فقالت والدتي بوهن «إنه لقبها؛ وكان قد أطلقه عليها السيد كوپرفيلد، لأن اسمها المسيحي كان مثل اسمي».

ونادت الآنسة بيتسي وهي تفتح باب غرفة الاستقبال «تعالي يا پيغوتي. جيئي ببعض الشاي، فإنَّ سيدتك متوعكة قليلاً. لا تتأخري».

وبعد أن أعلنت الآنسة بيتسي هذا الطلب أغلقت باب غرفة الاستقبال من جديد، وعادت إلى مجلسها الأول، ثم قالت:

«كنت تتكلمين عن كون المولود فتاة، وأنا ليس عندي أدنى شك بأنه سيكون فتاة. والآن أيتها الطفلة، فمنذ اللحظة التي تولد فيها هذه الفتاة...».

«وربما كان صبياً!» واتت أمي الجرأة لهذا العرض.

فكرّرت الآنسة بيتسي «أقول لكِ بأنه ينبغي أن يكون فتاة، فلا تخالفي قولي. ومنذ اللحظة التي تولد فيها هذه الفتاة، أيتها الطفلة، سأعقد النية على أن أكون رفيقتها. وأرجو أن تسميها بيتسي تروتوود كوپرفيلد، ويجب أن تُربّى تربية جيدة، وعليّ أنا أن أجعل أمر تربيتها من اهتمامي، فلا تبكي، ستمرضين نفسك، وأنتِ تعرفين أن ذلك لن يكون مستحسناً بالنسبة إليك أو إلى الفتاة. كفى! ينبغي ألا تبكي!».

*

وقال الطبيب بعد مرور بعض الوقت «حسناً يا أماه! أجدني سعيداً بأن أهنئكِ. لقد انتهى كل شيء الآن، وانتهى بطريقة حسنة».

«كيف حالها؟» سألت عمتي وهي تشبك يديها والقبعة لا تزال مشدودة إلى إحداهما.

ردّ الطبيب تشيليب «آمل أنها سترتاح تماماً، وفي الحال. سترتاح بقدر ما يمكننا أن نتوقع لأم فتية أن ترتاح أمام هذه الحالات العائلية الكئيبة».

فقالت عمتي بحدة «وهي؟ كيف حالها؟ الطفلة؟ كيف حالها؟».

فرد الطبيب تشيليب «إنه طفل يا أماه!».

صمتت عمتي ولم تتفوه بكلمة، إلاّ أنها أمسكت بقبعتها من الشريط، بالطريقة التي يُمْسَك بها المقلاع، ووجهت بها ضربة إلى رأس الطبيب؛ ثم وضعتها على رأسها بشكل مائل واندفعت إلى الخارج، ولم تعد إلى المنزل منذ ذلك اليوم أبداً.

وانطرحت أنا في مهدي الصغير، وكانت أمي تضطجع في سريرها، أما بيتسي تروتوود كوپرفيلد فقد كانت تقبع، للأبد، في أرض الأحلام والأطياف في ذلك الصقع الهائل، من حيث سافرت أنا أخيراً.

*

إن الأشياء الأولى التي تتجسم في مظهر جليّ واضح أمام عيني عندما أنظر إلى الوراء، إلى أفق طفولتي، هي صورة أمي بشعرها الجميل، ومظهرها الفتي؛ وپيغوتي، التي لم يكن لها أي شكل إطلاقاً، بعينيها السوداوين اللتين كانتا تبدوان، لشدة سوادهما، كأنهما تسوِّدان كلَّ ما حولهما في وجهها، وبيديها القاسيتين، ووجنتيها الحمراوين اللتين كنت أعجب لِمَ لمْ تكنِ العصافير تنقدهما لتفضيلها إياهما على ثمر التفاح.

كان منزلنا يبرز من خلال الضباب، وكان مطبخ پيغوتي يقوم في الطابق الأرضي منه، ويفضي إلى الفناء الخلفي، حيث يوجد بيت للحمام في وسطه، ينهض على أحد الأعمدة،ولكن دون أن يكون فيه أي حمامة. وثمة وجار للكلاب في إحدى زوايا ذلك الفناء، وليس في داخله كلب؛ وكانت هناك كمية من الدجاج تبدو لي أنها طويلة بشكل مخيف؛ تدرج في الفناء بطريقة متوعّدة كاسرة. وكنت أحلم في أثناء الليل بالإوزّات خارج «البوابة» الجانبية، التي كانت تلحق بي كلما توجهت إلى تلك الناحية، وأعناقها الطويلة مشرئبة نحوي، كرجل محاط بالوحوش الضارية، وقد يحلم بالأسود.

وكان ثمة ممر يوصل من مطبخ پيغوتي إلى الباب الأمامي، وهو باب لغرفة المؤونة المعتمة، التي كانت تعتبر مكاناً أعبره في الليل راكضاً، لأني لم أكن أدري ما قد يكون موجوداً بين تلك الدّلاء والدنان وصناديق الشاي القديمة.

ولم أشاهد في حياتي قط خضرة، في أي مكان، تضاهي نصف خضرة العشب النامي في أرض المقبرة؛ أو أية أشجار تضاهي بظلالها نصف ظلال أشجار المقبرة، أو ما يضاهي بسكونه نصف سكون شواهد القبور.

ويمكنني أن أتخيّل منظر بيتنا الخارجي، بنوافذ غرفة النوم المشبكة، وهي مشرعة كيما تسمح بدخول الهواء الطيب الرائحة، وأعشاش الغربان العتيقة البالية وهي تتدلى من أشجار الدردار، في طرف الحديقة الأمامية.

أمّا الآن فإني في الحديقة الخلفية، حيث ثمار الفاكهة في الأشجار هي أكثر نضوجاً واكتنازاً من أي فاكهة نضجت حتى الساعة في أي حديقة أخرى، وحيث تقوم أمي بجمع بعضها في إحدى السلال، بينما أقف أنا على مقربة منها، أزدرد حبيبات «الكزبرة» خلسة، وأحاول أن أظهر بمظهر اللامتأثر بشيء.

وسرعان ما كانت تهب الريح المولولة، فيمضي فصل الصيف في برهة. وكنا نلهو في أيام الشتاء، عند الغسق، ونرقص في أرجاء غرفة الاستقبال. وعندما كانت أمي تتعب، وتجلس على الأريكة لتريح نفسها، كنت أمضي في مراقبتها وهي تلف جدائل شعرها البراقة حول أصابعها، إذ لم يكن ثمة من إنسان يدرك أكثر مني بأنّ والدتي كانت تحب أن تبدو جميلة للغاية، وهي فخورة بكونها جذابة.

تلك الذكريات كانت من ضمن انطباعات طفولتي المبكرة جدّاً، بالإضافة إلى شعور بكوننا نحن الاثنين معاً كنا نهاب پيغوتي قليلاً، وكنا نعرض أنفسنا عليها في معظم الأمور، كيما نحصل على إرشادها.

وفي ليلة من الليالي، كنت أنا وپيغوتي جالسين وحيدين بقرب النار في غرفة الاستقبال؛ وكنت أنا أقرأ لها في كتاب عن التماسيح، بينما كانت هي تخيط بعض الأشياء على ضوء الشمعة، وكان عليَّ أن أظل ساهراً حتى عودة والدتي من قضاء أمسية في زيارة أحد جيراننا، وفجأة شعرت بالتعب من القراءة، وبالنعاس يتغلب علي، حتى خيِّل إلي بأني إذا ما

فقدت رؤية أي شيء من الموجودات حولي للحظة واحدة، فإني سأمضي في سبات عميق. قلت لپيغوتي:

«پيغوتي، هل سبق لكِ وأن تزوجت؟».

فأجابت پيغوتي «ما الذي جاء بفكرة الزواج إلى رأسك، يا سيدي دايڤي؟».

كانت إجابتها مصحوبة برعشة مباغتة، بحيث نبّهتني تماماً، ثم توقفت عن خياطتها وحدقت إلي، وقد سحبت إبرتها حتى نهاية الخيط.

وعدت أسألها: «ولكن هل سبق وتزوجت في حياتك؟ فأنت امرأة جد ظريفة، ألستِ كذلك؟».

كنت أعتقد أنها من النوع المختلف عن نوع أمي. على أني كنت أحسبها مثالاً كاملاً لمدرسة أخرى من الجمال. وقالت پيغوتي:

«أنا جميلة يا دايڤي؟ كلا، كلا يا عزيزي! ولكن ما الذي جاء بفكرة الزواج إلى رأسك؟».

«لست أدري! ولكن أعتقد أن المرأة يجب ألاّ تتزوج بأكثر من رجل واحد في المرة الواحدة؛ ماذا! هل تستطيع الزواج بأكثر من واحد؟».

وأجابت پيغوتي عند أسرع فكرة حضرتها «طبعاً لا!».

«ولكن إذا تزوجت رجلاً وهذا الرجل مات، يصبح في وسعك إذاً أن تتزوجي رجلاً آخر، أليس كذلك يا پيغوتي؟».

أجابت پيغوتي «يمكن ذلك. هذا إذا ما اختارت المرأة رجلاً؛ وإنما المسألة هذه مسألة رأي».

وسألتها «ولكن ما رأيكِ أنت يا پيغوتي؟» ثم رحت أحدق إليها بشيء من الغرابة، لأنها هي نفسها كانت تحدق إليّ بغرابة شديدة أيضاً.

«إن رأيي هو» قالت پيغوتي، وهي ترفع عينيها عني بعد قليل من التردّد وتتابع عملها «هو أنه لم يسبق لي أن تزوجت في حياتي، يا سيد دايڤي؛ وهو أني لا أتوقع أن يحصل ذلك. هذا كل ما أعرفه عن الموضوع».

وبعد أن بقيت صامتاً للحظة سألتها «لا أظن أنكِ غضبى يا پيغوتي،

أليس كذلك؟».

وكنت أعتقد فعلاً أنها غضبى، إلاّ أني كنت مخطئاً تماماً، لأنها سرعان ما ألقت أدوات الخياطة جانباً وفتحت ذراعيها جيداً وأخذت رأسي بشعره الأجعد بينهما، وشدت عليه بقوة. وكنت أدرك أن ضغطها كان قوياً جدّاً، لأن أزرار سترتها كانت، وهي الممتلئة الجسم كثيراً، تتطاير لدى قيامها بأي مجهود كبير بعد ارتدائها ملابسها، وقد جمعت لها زرين اثنين كانا تطايرا إلى الجهة المقابلة من غرفة الاستقبال فيما كانت تحتضنني.

«والآن، أسمعني المزيد عن التماسيح، لأني لم أسمع ما فيه الكفاية بعد». هتفت پيغوتي التي لم تكن تتقن النطق باسم التماسيح صحيحاً تماماً.

وكنا قد انتهينا من الحديث عن التماسيح، وبدأنا نتحدث عن نوع معين من التماسيح الأميركية، عندما قرع جرس الحديقة، فتوجهنا إلى البوابة الخارجية، حيث وجدنا أمي وهي تبدو ظريفة بشكل غير طبيعي كما أعتقد؛ وكان يصحبها الشاب ذو الشعر واللحية الأسودين، والذي كان قد رافقنا من الكنيسة حتى المنزل يوم الأحد الماضي.

ربت على رأسي، إلاّ أني لم أحب هذا الشاب أو أحب صوته، بأي شكل، وقد شعرت بالغيرة من أن يده قد تمس يد والدتي وهو يقوم بذلك، وهذا ما حدث بالفعل، وقد أبعدتها عن رأسي بأقصى سرعة ممكنة.

فاحتجّت والدتي قائلة «آه يا دايڤي..».

وقال الشاب «يا له من فتى عزيز! لا يمكنني أن أقلق بشأن ورعه».

ثم قال وقد رأيته يحني رأسه فوق قفاز والدتي الصغير «لنقل «ليلة سعيدة» يا فتاي الطيب».

فقلت «ليلة سعيدة».

وفي اللحظة عينها، رأيته يلتفت في الحديقة ويلقي علينا نظرة أخيرة بعينيه السوداوين المشؤومتين، قبل أن تغلق البوابة.

وشيئاً فشيئاً أخذت أتعود على رؤية هذا الشاب بلحيته السوداء؛ وكان يدعى السيد ماردستون ـ بهذا الاسم عرفته اليوم ـ ولم أحبه بأكثر ما أحببته منذ اليوم الأول؛ وكان الشعور بالغيرة المُقلقة منه لا يزال في داخلي على حاله.

وفي إحدى الأمسيات كنا نجلس، أنا وپيغوتي، كالمرة السابقة، التي كانت فيها والدتي خارج البيت؛ بصحبة الجورب «والمازورة» وقطعة الشمع الصغيرة، والصندوقة التي ينتصب على غطائها تمثال القديس پولس الصغير، بالإضافة إلى كتاب التماسيح، عندما قالت پيغوتي متملّقة، بعد أن حدجتني بعدة نظرات وفغرت فمها كما لو أنها كانت ستتكلم دون أن تنطق بالكلام، بحيث ظننت أنها كانت تفتحه فقط، دون أية غاية أخرى، أو أنه كان عليّ أن ألزم الحذر:

«هل تحب أن تمضي معي لقضاء أسبوعين عند أخي في «يارماوث» يا سيد دايفي؟ ألن تكون هذه ضيافة رائعة؟ وهناك البحر، والمراكب، والبواخر، والصيادون، والشاطئ، وتلعب أنت مع آم...».

وكانت تعني بذلك ابن أخيها هام. إلاّ أنها كانت تتكلم عنه كما لو أنها تتكلم عن قاعدة ما من القواعد الإنكليزية.

وفرحت بتلخيصها لهذه المسرّات، وأجبت بأنها ستكون ضيافة طيّبة بالفعل، ولكن ماذا ستقول والدتي؟

فقالت پيغوتي وهي تنحني فوق وجهي «إذاً، سأراهن بجنيه بأنها ستتركنا نمضي، وسأسألها حالما تصل إلى البيت إذا شئت ذلك».

«ولكنها ماذا ستفعل في أثناء غيابنا؟ إذ ليس في استطاعتها أن تعيش وحيدة» قلت لها وأنا أُلقي بمرفقي الصغيرين فوق الطاولة كي أناقش الموضوع.

فقالت پيغوتي «آه، ألم تعلم؟ ستمكث أسبوعين مع الآنسة كرايبير».

«آه! إذا كان الأمر كذلك، فإني على أهبة الاستعداد للذهاب».

ورحت أنتظر بفارغ الصبر حتى حان يوم الرحيل. وكان علينا أن نركب في عربة «حوذي»، بحيث انطلقت بنا هذه العربة في الصباح بعد تناولنا

طعام الفطور.

كان جواد الحوذي أبطأ جواد في العالم، كما أعتقد، وكان يتحرك ورأسه منكس إلى أسفل، كما لو أنه كان يود أن يجعل الناس ينتظرون وصولنا طويلاً.

وكانت لدى الحوذي كذلك عادة يحتفظ معها برأسه محنياً إلى أسفل، مثل جواده، وكان ينحني بجسمه إلى الأمام وهو يقود العربة، واضعاً يديه فوق ركبتيه. وإذ قلت «وهو يقود العربة» شعرت بصدمة، إذ إن العربة كان في وسعها أن تمضي إلى يارماوث بدونه، كما لو أنه كان يقودها، لأن الجواد هو الذي كان يقوم بكل شيء. أما بالنسبة إلى خلق جو للحديث، فلم يكن عنده أي فكرة عنه سوى أنه كان يصفر.

وكنت أشعر بالتعب الشديد، وبالفرح الكبير، عندما ظهرت لنا يارماوث. وتصوّرت بأنها كانت تبدو كإسفنجة منقوعة بسائل ما وأنا أمر بناظري فوق القفر العظيم المعتم عبر النهر. ولم يسعني إلاّ أن أتساءل دَهِشاً: إذا كان العالم مستديراً كما يصفه كتاب الجغرافيا تماماً، فكيف يحدث أن يكون أي جزء منه مسطحاً بهذا الشكل؟ غير أني فكرت بأن يارماوث قد تكون منطقة من إحدى المناطق القطبية، بحيث يوضح ذلك مسألة سطحها.

وهتفت پيغوتي «هذا هو هام(*)، لقد كبر».

كان هام ينتظر وصولنا، وسألني عن حالي، كأحد المعارف القدامى. كان شخصاً جسيماً، متين البنية، يبلغ طوله ست أقدام؛ وكان يبدو عريضاً بنسبة طوله، مستدير الكتفين، بوجه صبياني يتكلّف الابتسام، وشعر أجعد فاتح اللون، يضفي عليه نظرة خجلى. وكان يرتدي سترة من الخيش، وزوجاً من الجوارب الخشنة جداً، بحيث كان يمكن لهما أن يظلا كما هما عليه تماماً وذلك بدون أن تُحشر فيهما قدمان.

ومشينا في الأزقة، وهام يحملني على ظهره، ويحمل علبة لنا تحت

(*) بالعربية حام، وهو ابن نوح. منه تحدّر الجنس الأسود أو الحاميّون. وقد أبقيت على الاسم «هام» لأن لا «حاء» في اللغة الأجنبية.

إبطه، بينما كانت بيغوتي تحمل علبة أخرى أصغر منها، وكنا في سيرنا نجتاز عمال الغاز وأمكنة صانعي المراكب، والسفن، ومجلفطيها، والحدادين، وأمكنة كثيرة غيرها، حتى وصلنا إلى القفر المعتم الذي كنت قد رأيته عن بعد، عندما قال هام:

«هناك منزلنا يا سيد دايڤي».

ورحت أنظر في كل الاتجاهات، بقدر المسافة التي كنت أستطيع أن أحدق إليها من فوق القفر، وبعيداً نحو البحر ونحو النهر، غير أني لم أكن أستطيع أن أكتشف أي منزل في الأفق، وكان هناك مركب أسود لنقل الركاب، وبالتالي مركب ما من أنواع المراكب الأخرى، يقوم على مسافة قريبة، وهو جاف وعالٍ فوق الأرض، تخرج منه ماسورة حديدية على شكل مدخنة. ولكن لا شيء آخر على شكل مسكن كان يبدو لي مرئياً.

فسألت «أليس ذاك هو؟ ذاك الشيء الذي يبدو كمركب؟».

فأجاب هام «ذلك هو بالذات، يا سيد دايڤي».

ولم أستطع أن أشعر بالسحر بأكثر ممّا شعرت أمام الفكرة الرومانسية بالسكنى فيه. كان ثمة باب مفتوح في وسطه، وكان له سقف، ونوافذ صغيرة، ولكن سحره الرائع كان كامناً في أنه كان مركباً حقيقياً، وقد سبق له، دون شك، وأُنزل إلى المياه مئات المرات، ولم يكن يُعتقد قط بأنه سينتصب في أرض جافة. وهذا ما فتنني شخصياً.

كان نظيفاً جدّاً من الداخل، وكانت توجد فيه مائدة، وساعة حائط، وخزانة ذات أدراج؛ وفوق هذه الخزانة كانت ثمة صينية شاي وعليها لوحة زيتية لسيدة تحمل مظلة تمشي وإلى جانبها فتى عسكري المظهر يدحرج إطاراً، وكان الكتاب المقدس يحفظ هذه الصينية من الوقوع. ولو أن الصينية قد وقعت أرضاً لكانت حطمت كمية من الأقداح، والصحون الصغيرة، وإبريقاً للشاي كانت متجمعة حول الكتاب. وكانت تُشاهد على الجدران بعض الصور العادية الملونة، والتي لها أُطر وزجاج يغلفها، وكلها يعود لمواضيع الكتاب المقدس، وأبرز هذه

الصور كانت صورة لإبراهيم الخليل باللون الأحمر، وهو يمضي ليقدم ابنه إسحـٰق قرباناً، وصورة أخرى لدانيال صفراء اللون مأخوذة في عرين أسود أخضر، وكانت توجد بعض الصناديق والعلب، وأشياء من هذا القبيل تستخدم كمقاعد بحيث تعوّض عن الكراسي.

كل هذا رأيته من النظرة الأولى، بعد أن اجتزت العتبة، ثم فتحت بيغوتي باباً صغيراً وأرتني غرفة نومي؛ وقد كانت أفضل غرفة، كاملة، ومرغوبة، رأيتها في مؤخرة المركب. كان لها نافذة صغيرة حيث كانت الدفة، وكانت توجد مرآة صغيرة أيضاً، معلقة في الحائط على ارتفاع يناسبني تماماً، وقد كانت محاطة بقطع الصدف. وكان فيها سرير صغير حيث كانت له غرفة صغيرة كافية لوجوده. وفي وعاء صغير أزرق، يقوم فوق الطاولة، كانت توجد باقة من حشيشة البحر، وكانت الجدران مطلية باللون الأبيض فبدت بيضاء مثل الحليب. وأما اللحاف المرقع فقد بهر عينيّ تماماً لشدة لمعانه.

ورحبت بنا امرأة مدنية، ترتدي مئزراً أبيض، ومعها فتاة صغيرة غاية في الجمال ـ وقد أكون أنا ظننتها كذلك ـ تضع في عنقها عقداً ذا خرزات زرقاء، ولم تدعني أقبلها عندما هممت بذلك، إذ ركضت هاربة، وخبأت نفسها، وبعد وقت قصير، على إثر تناولنا طعام العشاء، المكوّن من السمك المقلو، والزبدة الذائبة، والبطاطا، مع قطعة لحم لي، دخل علينا رجل أشعر، ذو وجه طيب. ولم يعد عندي شك عندما نادى بيغوتي بكلمة «فتاة»، وطبع على خدها قبلة حارة، بأنه شقيقها. وهكذا استدار وقال لي، وقد قُدِّم إلي في الحال على اعتبار أنه السيد بيغوتي، رب المنزل:

«إني جدّ سعيد برؤيتك أيها السيد، ستجد أننا أناس بسطاء، إلاّ أنك ستجدنا راضين على الدوام».

وشكرته، وأجبت بأني متأكد من أني سأكون سعيداً في مثل هذا المكان البهيج.

«حسن أيها السيد، إذا كان في وسعك التنزه هنا لمدة أسبوعين

معها..» قال السيد پيغوتي ، وهو يشير برأسه إلى شقيقته، ثم تابع «ومع هام، وإميلي الصغيرة ، فسنكون فخورين بصحبتك».

وبعد أن فرغنا من احتساء الشاي، أغلق الباب، وغدا كل شيء ساكناً. وبما أن الليالي هناك كانت باردة يغمرها الضباب، فقد خيل إلي أنها أفضل ملجإ تستطيع أن تلجأ إليه مخيلة المرء، وكان سماع الريح تعزف من البحر، وتصوّر الضباب بأنه يزحف فوق القفر المسطح في الخارج، والتطلع إلى لهيب النار، والتفكير بأن ليس ثمة من منزل قريب، ما عدا هذا المنزل، وبأن هذا المنزل هو مركب، كان هذا كله يبدو وكأنه السحر عينه.

كانت إميلي الصغيرة قد تغلبت على حيائها، فجاءت تجلس إلى جانبي، فوق أصغر وأدنى صندوق من الصناديق، بحيث لم يكن يكفي إلاّ لجلوس شخصين فقط، وقد ركز في زاوية المدفأة تماماً. وكانت السيدة غوميدج منهمكة بالتطريز في الجهة المقابلة للمدفأة، وكانت ترتدي مئزرها الأبيض. وكانت پيغوتي مجدة في عملها بالإبرة بقدر ما كانت في المنزل بصحبة القديس پولس، وقطعة الشمع الصغيرة، أما السيد پيغوتي فقد كان يدخن بغليونه؛ وشعرت أنا آنذاك بأن الوقت قد حان للمودة والمحادثة، فقلت: «سيد پيغوتي!».

فأجاب «نعم يا سيدي؟».

«هل أطلقت على ابنك اسم هام لأنك تعيش في منزل هو نوع من أنواع الفلك؟».

وبدا على السيد پيغوتي أنه يفكر بالسؤال بعمق، لكنه أجاب:

«كلا يا سيدي، أنا لم أطلق عليه أي اسم قط».

«مَنْ أطلق عليه هذا الاسم إذاً؟» سألتُ السيد پيغوتي.

فأجابني «والده هو الذي أطلق عليه هذا الاسم يا سيدي».

«ظننت أنك أنت والده!».

فقال السيد پيغوتي «أخي جو هو الذي كان والده».

فسألت بعد صمت وإجلال «أهو ميت يا سيد پيغوتي؟».

«مات غرقاً» أجاب السيد پيغوتي.

ودهشت للغاية لعدم كون السيد پيغوتي والد هام، وشرعت في التساؤل عما إذا كنت مخطئاً أيضاً في ظني بصلته بأي شخص آخر من الموجودين، وكنت جد فضولي للاطلاع على الحقيقة، بحيث قررت استيضاح السيد پيغوتي فسألت، وأنا أنظر إلى إميلي:

«وإميلي الصغيرة هي ابنتك، أليس كذلك يا سيد پيغوتي؟».

«كلاّ يا سيدي، صهري توم هو الذي كان والدها».

ولم يسعني إلاّ أن أقول بعد لحظات أخرى من الصمت الرزين «أهو ميت يا سيد پيغوتي؟».

فأجاب السيد پيغوتي «مات غرقاً».

شعرت للتو بصعوبة الاستطراد بالحديث في هذا الموضوع، إلاّ أني لم أكن قد تعمقت فيه بعد؛ وكان يجب علي أن أسبر غوره بطريقة من الطرق. ولذلك سألت:

«أليس لديك أولاد أنت يا سيد پيغوتي؟».

فأجاب بضحكة قصيرة «كلاّ أيها السيد! فإني رجل عَزَب».

فقلت دَهِشاً «عَزَب!». ثم سألته وأنا أشير إلى المرأة التي كانت منهمكة بالتطريز، وهي مرتدية مئزراً أبيض: «ولكن مَن تكون تلك المرأة يا سيد پيغوتي؟».

فقال السيد پيغوتي: «تلك هي الآنسة غوميدج».

«غوميدج يا سيد پيغوتي؟».

وعند هذا الحد، طلبت إليَّ پيغوتي - وأعني پيغوتي التي ألفتها - ببعض الإشارات الواضحة بألاّ أطرح أي أسئلة أخرى، إذ يمكنني أن أبقى جالساً فقط، وأن أحدق إلى الساهرين الهادئين حتى يحين وقت النوم. ثم أخبرتني في خلوة غرفتي بأن «هام» كان يتيماً وهو ابن أخيها، أما إميلي فقد كانت يتيمة وهي ابنة شقيقتها. وقد كان ربّ المنزل قد عطف عليهما مرات عديدة في عهد طفولتهما، عندما كان يصيبهما العوز، وبأنّ السيدة غوميدج كانت أرملة شريكه في أحد المراكب، وقد مات هذا فقيراً

معدماً. وقالت بيغوتي أيضاً إنه هو نفسه كان رجلاً مسكيناً، وإنما معدنه طيب مثل الذهب، وصافٍ كالفولاذ، وهاتان كانتا صفتي التشبيه عندها.

وما إن بزغ الصبح تقريباً فوق إطار مرآتي الصدفي، حتى نهضت من فراشي، وسرعان ما خرجت مع إميلي الصغيرة نجمع الحصى من على الشاطئ. ووجهت إلى إميلي سؤالاً:

«أظن أنك فتاة بحرية، أليس كذلك؟». ولم أدرك بأني قلت شيئاً لا أعنيه، وإنما شعرت بأنه من واجب اللياقة أن أنطق بأي شيء. وقد كان ثمة شراع متلألئ بالقرب منا، يعكس في عينيها البراقتين تعبيراً جميلاً في تلك اللحظة، ما دفع بي إلى قول هذا.

وأجابت إميلي وهي تهز رأسها «كلاّ، فإني أخاف من البحر».

«تخافينه! لكن أنا لا أخافه» أجبتها بشيء ملائم من الجرأة.

فقالت إميلي «آه، ولكنه قاسٍ. وقد رأيته قاسياً جداً مع بعض رجالنا، وشاهدته يحطم مركباً بحجم مركبنا، ويحيله إلى قطع صغيرة متناثرة».

«آمل بألاّ يكون ذلك المركب...».

فقالت إميلي «أتعني ذلك المركب الذي غرق فيه والدي؟ كلا؛ ليس في ذلك المركب. إذ لم أرَ المركب الذي غرق فيه والدي أبداً».

وسألتها «ولم تري أباك أيضاً؟».

فهزت إميلي رأسها وقالت «لا أذكر».

كان وضعها مطابقاً لوضعي. وأخذت في الحال أشرح لها كيف أني لم أرَ والدي كذلك، وكيف أني ووالدتي قد عشنا وحيدين، في أفضل حالة يمكن أن يتصورها المرء. ولكن كان يبدو أن ثمة بعض الفروقات كانت تكمن بين حياة إميلي اليتيمة وبين حياتي، إذ إنها كانت قد فقدت أمها قبل أن تفقد أباها.

قالت إميلي وهي تبحث عن الحصى والأصداف «هذا فضلاً عن أن والدك كان رجلاً ظريفاً، وأمك كانت لا تزال سيدة، في حين أن والدي كان صياداً، ووالدتي كانت ابنة صياد؛ وعمي دان صياد أيضاً».

فسألتها «ودان هذا يكون السيد بيغوتي؟».

أجابت إميلي، وهي تشير بيدها نحو المركب المنزل «أتعني العم دان... هناك؟».

«أجل، لقد عنيته هو، وأظن بأنه رجل طيب جداً، أليس كذلك؟».

أجابت إميلي «طيب!؟ إن كُتبَ لي أن أكون سيدة، فسوف أقدم له معطفاً بلون زرقة السماء، أزراره من ماس، وبنطالاً، وصداراً مخمليّاً أحمر، وقبعة جميلة، وساعة ذهبية كبيرة، وغليوناً فضياً، ومحفظة نقود».

وكانت إميلي الصغيرة قد توقفت عن المسير وراحت ترنو إلى السماء وهي تعدد هذه الأسماء، كما لو أنها كانت رؤيا مجيدة. ثم عدنا إلى المسير من جديد، نجمع الحصى والأصداف.

وقلت أسألها «أتودين أنتِ أن تصبحي سيدة؟».

نظرت إليَّ وضحكت، ثم هزت رأسها وقالت «أجل، أود ذلك من كل قلبي، ونصبح عندئذ أناساً طيبين نعيش معاً، أنا والعم هام والآنسة غوميدج. ولن نبالي بعد ذلك بالوقت الذي يداهمنا فيه الطقس العاصف، ولا أعني بذلك أننا لن نعود نبالي بالطقس، وإنما سنهتم به من أجل هؤلاء الصيادين المساكين، ولسوف نساعدهم ما أمكننا المساعدة في أمورهم المالية، عندما يشعرون بالحاجة».

وتجسّمت لي هذه اللوحة، لوحة معقولة وجد مقنعة، وبناء على ذلك لم تكن تبدو مستحيلة.

ورحنا نتمشى لمدة طويلة، وقد حملنا أشياء كنا نظن أنها أشياء غريبة. وكنا في تلك الأثناء نعيد إلقاء قناديل البحر القريبة من الرمل داخل الماء ثانية. وأخيراً عدنا أدراجنا إلى المنزل، حيث مسكن السيد بيغوتي، وتوقفنا قليلاً قبل أن ندخل، وتبادلنا قبلة بريئة، ثم ولجنا المركب لنتناول طعام الفطور ونحن نشع بالبهجة والصحة.

ودون شك كنت أشعر بالحب نحو إميلي الصغيرة. وأنا متأكد من أني قد أحببت هذه الطفلة بصدق وعطف يصحبهما نقاء ونزاهة هما أكبر من أي نقاء ونزاهة يمكن أن يكونا في حب ما، في وقت لاحق.

واعتدنا على أن نسير حول هذا القفر المعتم في «يارماوث» ساعات

وساعات بشكل دائم. وكانت الأيام تمر بنا سريعاً كما لو أن الوقت لم يكن قد نما بعد، وأنه لا يزال هو الآخر طفلاً، ويلهو معنا دائماً. وأطلعت إميلي على حبي لها، وقلت لها إن لم تبح هي بحبها لي، فسوف يؤدي ذلك بي إلى ضرورة قتل نفسي بالسيف. إلا أنها اعترفت لي بهذا الحب، ولم يكن لدي أدنى شك في صدق كلامها.

وعلى هذا المنوال، انقضى الأسبوعان، ولم يكن فيهما أي تنويع أو تغيير، ما عدا تبدل حركة المد والجزر، التي كانت تغير أوقات السيد پيغوتي في خروجه من المنزل وعودته إليه، كما أنها كانت تغير مواعيد وارتباطات هام كذلك؛ إذ عندما لم يكن لدى هذا عمل ما، فقد كان يصطحبنا أحياناً ليرينا المراكب والبواخر، وقد أخذنا في رحلة تجديف مرة أو مرتين. ولم أكن أسمع أو أقرأ اسم «يارماوث» قط، إلاّ وأتذكر معه صباح يوم أحد، ونحن على الشاطئ، وأجراس الكنيسة تقرع من أجل القداديس، وإميلي الصغيرة تتكئ برأسها على كتفي، وهام يرمي بالحصى في مياه البحر بتكاسل، والشمس تبدو من خلال الضباب الكثيف فوق البحر، وتظهر لنا المراكب في الأفق وكأنها ظلال.

وأخيراً جاء اليوم الذي سنعود فيه إلى المنزل؛ وقد كنت طوال وقت زيارتي مجحفاً بحق منزلي، إذ لم أكن أفكر به أبداً. والآن، وكلما كانت الأشياء والأمكنة التي نعبرها تزداد ألفة بالنسبة إلي، كلما كنت أزداد توقاً للوصول إلى المنزل، والارتماء في حضن أمي. أما پيغوتي فعوضاً عن اشتراكها في هذه المشاعر السارّة،كانت تحاول أن تكبحها بشكل جد لطيف، وتبدو أنها مرتبكة، ومنحرفة المزاج.

ووصلنا بلندرستون، وتوقف الجواد أمام المنزل. كان الوقت بعد ظهر يوم معتم، بارد، وسماؤه ملبدة بالغيوم مُنذرة بالمطر.

وفتح الباب، وبدوت أنا نصف ضاحك ونصف باكٍ نتيجة انفعالي الشديد بلقاء أمي. ولم تكن تلك المرأة التي فتحت الباب هي أمي، وإنما كانت خادمة غريبة! فقلت لپيغوتي بحسرة «پيغوتي، أليست أمي في المنزل؟».

فأجابتني بيغوتي «أجل، أجل يا سيد دايڤي. إنها في المنزل. انتظر لحظة وسأطلعك... سأطلعك على أمر ما...».

واقتادتني بيدي، وأنا في حيرة، إلى المطبخ، ثم أقفلت الباب خلفنا، فهتفت وأنا متخوّف تماماً «ما هي القضية يا بيغوتي؟».

فأجابتني وهي تتظاهر بشيء من المرح «ليس ثمة من قضية، بالمعنى الصحيح، يا عزيزي السيد دايڤي».

«بلى، ثمة قضية بالمعنى الصحيح، فأنا متأكد. أين أمي؟».

فرددت بيغوتي «تقول أين أمي، يا سيد دايڤي؟».

قلت وعيناي تطفحان بالدمع، ويسيطر علي شعور أليم، كما لو أني كنت على وشك الوقوع أرضاً: «أجل! لِمَ لمْ تخرج إلى البوابة الخارجية؟ ولِمَ دخلنا نحن إلى المطبخ؟ آه يا بيغوتي!».

فأمسكت بي وهتفت «ليباركك الله أيها الطفل العزيز! ماذا تقصد؟ قل يا عزيزي!».

«أليست هي ميتة أيضاً؟ أواه، أليست هي ميتة أيضاً يا بيغوتي؟».

وصرخت بيغوتي بصوت ملؤه الدهشة أن كلا! ثم جلست وبدأت تلهث وقالت بأني قد سبّبت لها صدمة.

وضممتها كيما أُبعد عنها هول الصدمة، أو كيما أُحدث لها صدمة أخرى في الناحية عينها. ثم وقفت أمامها أُحدق إليها، وعلى وجهي علامة استفهام قلقة.

قالت بيغوتي «أرأيت يا عزيزي! كان يجب علي أن أخبرك بالأمر قبل الآن! ولكن لم تسنح لي الفرصة لأخبرك. وربما كان يجب أن أُوجد أنا هذه الفرصة، ولكني لم أستطع أن أفكر بذلك بالضبط».

«استمري يا بيغوتي» قلت وأنا أكثر تخوفاً من السابق.

«يا سيد دايڤي» قالت وهي تحل عقدة شريط قبعتها بيد مرتعشة، وتتكلم مبهورة النفس «ماذا تعتقد؟ لقد أصبح لك والد!».

فانتابتني رجفة، وغدا لوني أبيض، وقالت بيغوتي معقبة:

«إنه والد جديد!».

ورددت «والد جديد؟».

وشهقت پيغوتي قليلاً كما لو أنها كانت تردد كلاماً قاسياً جدّاً، وقالت وهي تمد لي يدها «تعال وشاهده!».

«لا أود أن أراه!».

«... وأمك!» قالت پيغوتي.

وكففت عن التراجع، وسرت معها إلى الأمام، متوجهين إلى صحن الدار، حيث تركتني هناك. كانت أمي جالسة بقرب المدفأة، وإلى الجانب الآخر من المدفأة كان يجلس السيد ماردستون. وما إن رأتني حتى تركت أمي عملها من يديها وهبت واقفة على عجل، ولكن بخجل كما خيِّل إليّ.

قال السيد ماردستون «والآن يا عزيزتي كلارا، تريّثي! تمالكي نفسك. حاولي دائماً أن تضبطي أعصابك! آه، كيف حالك يا دايڤي؟».

ومددت له يدي؛ وبعد لحظة من التردّد اقتربت وقبّلت أمي، وقبّلتني هي أيضاً وربتت على كتفي بنعومة، ثم جلست وعادت إلى عملها من جديد، ولم يكن بإمكاني أن أنظر إليها أو إليه؛ وكنت أدرك تماماً بأنه كان ينظر إلينا نحن الاثنين. واستدرت إلى النافذة ورحت أحدق إلى الخارج، وإلى بعض الشجيرات التي كانت تحني هاماتها في الصقيع.

وحالما استطعت الخروج من الدار زحفت إلى الطابق العلوي. كانت غرفة نومي المحبّبة قد غُيّرت، وكان علي أن أنام على مسافة بعيدة منها. وعدت أترنح هابطاً إلى أسفل، كيما أجد شيئاً ما لا يزال على حاله، ولكن كل شيء كان يبدو متبدّلاً للغاية. وأخذت أتجول في فناء المنزل، غير أني سرعان ما عدت من جولتي، لأن وجار الكلب المهجور غدا مشغولاً بكلب ضخم. كان له فم أسود عميق التجويف، ووبر أسود مثله؛ وقد اهتاج لرؤيتي، فقفز من الوجار لكي ينال مني.

2

أفقت في غرفة النوم على صوت شخص يقول، وهو يرفع الغطاء عن رأسي الدافئ «ها هو هنا». لقد كانت پيغوتي ووالدتي، وقد جاءتا للبحث عني، وواحدة منهما كانت قد قامت بهذا العمل. قالت أمي:

«دايڤي؟ ما خطبك؟».

وأجبت، وقد خُيّل إليّ بأنه من الغرابة حقاً أن توجه إليّ مثل هذا السؤال، «لا شيء» ثم أدرت وجهي، وتمالكت نفسي محاولاً أن أخفي شفتي المرتعشة التي أجابتها بصدق كبير.

وهتفت أمي «دايڤي، دايڤي، آه يا طفلي!».

وأحسست بلمسة يد أدركت أنها لم تكن يدها أو يد پيغوتي، فوثبت واقفاً بجوار السرير. لقد كانت يد السيد ماردستون، وقد أثبتها فوق ذراعي فيما كان يقول «ما القضية؟ كلارا، هل نسيتِ يا حبيبتي؟ الحزم، الحزم يا عزيزتي؟».

فقالت أمي «إني آسفة جدّاً يا إدوارد، كنت أقصد أن أكون جد طيبة، غير أني غير مرتاحة أبداً».

فأجاب «أمر غريب! إنه لكلام سيئ؛ أهكذا سريعاً يا كلارا؟».

«أقول إنه من الصعب جداً أن أكون كذلك الآن». وتحوّلت أمي عني وهي متجهمة الوجه «إن هذا لمن الصعب جداً... أليس كذلك؟».

وسحبها إليه، وأسرّ إليها بشيء في أذنها، ثم قبّلها. وأدركت عندما رأيت رأس أمي محنياً فوق كتفه، وذراعها تلامس عنقه، أدركت تماماً أن في استطاعته أن يصهر طبيعتها اللينة في أي شكل يختاره هو لها، كما أعرف أنه فعل الآن.

وقال السيد ماردستون «انزلي أنت يا حبيبتي، فسوف أنزل أنا ودايڤي معاً».

وعندما أصبحنا وحيدين، أغلق الباب وراح يحدق إلى عينيّ بثبات فيما كان يجلس على كرسي ويمسكني لأبقى واقفاً أمامه، وشعرت بأن

عينيّ قد أُخذتا بعينيه بشكل لا يقل ثباتاً عنهما. وفيما أتذكر وقوفنا وجهاً لوجه هكذا، يخيل إلي من جديد بأني أسمع دقات قلبي تضرب عالياً وسريعاً.

قال وهو يرقّق من شفتيه بطريقة شدهما الواحدة إلى الأخرى «لو كان عندي جواد أو كلب ووجدته عنيداً في معاملته لي فماذا تظنني أفعل به؟».

«لا أدري».

«أضربه».

وكنت قد أجبت بطريقة أشبه بالهمس المنقطع الأنفاس، أما الآن، وفي صمتي، فإني أشعر بأن أنفاسي هي أقصر ممّا كانت عليه.

«أُجفِّله بضربي له؛ وأقول لنفسي بأني سأتغلب على ذلك الحيوان حتى ولو كان ذلك سيكلفه دمه كلّه. ولكن ما هذا الذي على وجهك؟».

أجبت «وسخ».

لقد كان يدرك، مثلي تماماً، بأن هذا الذي على وجهي كان وسخ آثار الدموع، ولكن لو كان قد طرح علي هذا السؤال عشرين مرة متتالية، تصحبها دقات قلبي بعشرين ضربة لكل مرة، فهذا يعني أن قلبي الطفل كان لينفجر قبل أن أتمكن من أن أقول له ذلك.

«إن نسبة ذكائك لهي عظيمة بالنسبة إلى شخص صغير». قال لي وعلى وجهه ابتسامة جافّة، خاصة به «وأرى أنك تفهمني جيداً. فاغسل وجهك أيها السيد، وتعال اهبط معي».

وأشار إلى المغسلة؛ ولم يكن لديّ أدنى شك عندئذ بأنه كان سيحطم رأسي دون أي تباطؤ، أو تأنيب ضمير، لو أني تردّدت.

وقال لأمي عندما أطعت أمره، وأتى بي إلى صحن الدار ويده لا تزال فوق ذراعي «آمل، يا عزيزتي كلارا، ألاّ تشعري بعدم الارتياح بعد الآن، إذ إننا سنحسن من أخلاقنا الفتية في الحال».

وتناولنا طعام العشاء وحدنا نحن الثلاثة، وقد بدا عليه أنه جد مولع بأمي وهي مولعة به أيضاً ـ وكنت أحس بالوجل لأن حبي له لم ينم أبداً،

حتى من أجل هذا الولع ـ. ومن خلال كلامهما استنتجت أن له شقيقة كبرى ستأتي للسكنى معنا، وبأن مجيئها متوقع هذه الليلة. ولست متأكداً ما إذا كنت قد اطّلعت منذ ذلك الوقت، أو فيما بعد، على أنه كان يملك حصة في متجر لبيع الخمرة في لندن، كانت لعائلته صلة به منذ أيام جده الكبير، وقد كانت لشقيقته حصة فيه أيضاً.

بعد تناولنا العشاء، اقتربت عربة من البوابة الخارجية؛ وقد كانت فيها الآنسة ماردستون، وهي تبدو أنها سيدة متزمتة، غليظة كأخيها الذي تشبهه جداً بوجهها وصوتها. كان لها حاجبان كثيفان بحيث إنهما كانا يلتقيان فوق أنفها الكبير تقريباً. وكانت تجلب معها صندوقين أسودين قاسيين، وعلى غطائيهما الحروف الأولى من اسمها بمسامير نحاسية صلبة. وعندما جاءت تنقد صاحب العربة الأجرة، أخرجت نقودها من حافظة نقود فولاذية، تحفظها في جيب حقيبتها المعلقة في ذراعها بوساطة سلسلة ثقيلة، وهي مغلقة بإحكام كعضة كلب. ولم يكن قد سبق لي ورأيت سيدة معدنية على هذه الصورة كما هي الآنسة ماردستون.

واصطُحبت إلى داخل غرفة الاستقبال، بتعابير ترحيبية كثيرة، ثم نظرت إلي وقالت «هل هذا هو ابنك يا زوجة أخي؟».

وأكدت والدتي على صحة فراستها؛ لكن الآنسة ماردستون عادت لتقول: «بشكل عام، أنا لا أحب الأولاد. كيف حالك أيها الصبي؟».

وأمام هذه اللحظات المشجعة، أجبت بأني في خير، وأملت أن تكون هي كذلك، وتخلصت مني الآنسة ماردستون بكلمتين لبقتين تدلاّن على عدم المبالاة «نقص في الخلق».

وطلبت بعد ذلك أن تُقاد إلى غرفتها. وبقدر ما وسعني الاستنتاج، فإنها قد جاءت لتقيم هنا أبداً، وليس لديها أي نية للمغادرة مطلقاً. وفي صباح اليوم التالي شرعت في مساعدة أمي. كانت لا تني طوال النهار تدخل غرفة المؤونة وتخرج منها، ترتب الأشياء، وتحدث تخريباً في جميع الترتيبات القديمة. وعندما هبطت أمي لتناول طعام الفطور، وكانت في طريقها لإعداد الشاي، اقتربت الآنسة ماردستون ونقرتها

على خدها، بحيث كان هذا النقر يدل إلى أقرب مسافة لبلوغ القبلة، وقالت لها:

«والآن يا عزيزتي كلارا، لقد جئت إلى هنا، كما تعلمين، كيما أساعدك على تذليل الصعاب بقدر استطاعتي. فأنت جميلة جداً وطائشة». واحمر وجه أمي خجلاً، إلاّ أنها ضحكت، وأظهرت أنها لم تكره هذه الشخصية. واستطردت الآنسة ماردستون «جئت كي آخذ عنك الواجبات التي قد تؤثر فيك، ويكون في وسعي أن آخذها أنا على عاتقي. وإذا كنت طيبة، وسمحت لي بجميع مفاتيحك، يا عزيزتي، فلسوف أنتبه إلى هذا الأمر بالذات في المستقبل».

ولم تجبها أمي دون أن تجرح ثقتها بظل من الاحتجاج. وفي إحدى الليالي، وحين كانت الآنسة ماردستون توضح لأخيها بعض المشاريع المقترحة المتعلقة بالمنزل، والتي كان هو يوليها موافقته واستصوابه، انفجرت أمي بالبكاء فجأة؛ وقالت إنها تعتقد أنه كان يمكن أن يبحث الأمر معها أيضاً.

وهتف السيد ماردستون «كلارا، كلارا! إني أعجب لأمرك!».

فصاحت أمي «آه، إنه لجميل جداً منك أن تقول إنك تعجب لأمري يا إدوارد! ومن المحبب عندك كذلك أن تتكلم عن الحزم، ولكن دون أن تفعله أنت نفسك».

ويمكنني التعقيب هنا على أن كلمة «حزم» كانت الصفة الأمثل التي يتخذ منها كل من السيد والآنسة ماردستون قاعدته؛ ولكن مهما تكن طريقة تعبيري لفهمي كلمة «حزم» هذه آنذاك، فيما لو طُلب إلي ذلك، فإني كنت، بالرغم من كل شيء، أدرك بطريقتي الخاصة، الواضحة تمام الوضوح، أن هذه الكلمة كانت تعبيراً آخر لكلمة الاستبداد، ولمزاج شيطاني عاتٍ ومتزمت كان يكمن فيهما معاً.

وهذا المعتقد المتزمت، كما يتوجب علي أن أُسميه الآن، كان كذلك. لقد كان السيد ماردستون حازماً، ولم يكن ثمة إنسان في عالمه حازماً للغاية مثل السيد ماردستون، بل لم يكن ثمة إنسان في عالمة حازماً

فقط، لأنه كان على كل إنسان أن يكون خاضعاً لحزمه. أمّا الآنسة ماردستون فقد كانت مستثناة، إذ قد تكون حازمة، ولكن ذلك بحكم القرابة، وبدرجة دونية وفرعية. وكانت أمي مستثناة هي الأخرى؛ فقد تكون حازمة، بل يجب أن تكون، ولكن في أن تتحمل حزمهما فقط، وتعتقد بحزم، أنه ليس هناك أي نوع آخر من الحزم على وجه الأرض.

*

كانت بعض الأحاديث تدور عن إلحاقي بمدرسة داخلية. وفي أثناء هذا الوقت كنت أتلقّى بعض الدروس في المنزل. وهل سأتمكن في حياتي أن أنسى هذه الدروس! لقد كانت والدتي تترأس هذه الجلسات اسمياً، ولكن الذي كان يترأسها حقّاً هو السيد ماردستون وشقيقته، اللذان اعتادا أن يكونا حاضرين دائماً، واللذان كانا يجدان في ذلك فرصة ملائمة كيما يقدمان لأمي دروساً في معنى كلمة الحزم التي وقع خطأ في تسميتها، والتي كانت تنغص علينا حياتنا معاً. وأعتقد أن الغاية من إبقائي في المنزل في تلك الفترة هي من أجل هذا الغرض.

ولكن، لأتذكر كيف كانت تحدث هذه الجلسات، ولأستحضر صباحاً من هذه الأصباح.

دخلت في صباح يوم إلى غرفة الاستقبال، وأنا أحمل كتبي ودفتري ولوحاً صغيراً أسود. كانت أمي جاهزة وهي تجلس إلى مكتبها الصغير، على أنها لم تكن جاهزة بنصف القدر الذي كان جاهزاً به السيد ماردستون وهو يجلس في كرسيه المريح قرب النافذة، مع أنه كان يتظاهر بأنه يقرأ في أحد الكتب، أو كالآنسة ماردستون التي كانت تنظم بعض الخرزات الفولاذية في أحد الخيوط، فيما كانت تجلس إلى جوار أمي. والحق أنّ مجرد رؤية هذين الشخصين كان لها التأثير الكبير فيّ، بحيث أبدأ الإحساس بأن الكلمات التي أكون قد أدخلتها إلى رأسي، بمنتهى الألم والعذاب، قد شرعت في التزحلق بعيداً، وتمضي ولا أدري إلى أين. وبالمناسبة، كنت أتساءل: ترى إلى أين تمضي؟

وأسلم الكتاب الأول إلى أمي. ولا أدري ما إذا كان كتاب القواعد أو

التاريخ أو الجغرافيا. وكنت ألقي بنظرة عابرة وأخيرة على غلافه وأنا أقدمه إليها، وأشرع في الإلقاء بصوت عالٍ وبعبارات متلاحقة، حيث أكون قد راجعتها حديثاً، حتى إذا تعثرت بكلمة رفع السيد ماردستون نظره إلي؛ وعند تعثري بالكلمة الثانية ترفع الآنسة ماردستون نظرها إلي أيضاً. ويغلب علي الاحمرار، وأتعثر بنصف دزينة من الكلمات ثم أصمت. وأظن أنه لو كانت لدى أمي الجرأة لكانت تريني صفحة الكتاب؛ لكنها لم تكن تجرؤ لتقدم على مثل هذا العمل، وكانت تقول بلطف:

«آه يا دايڤي! دايڤي!».

ويضيف السيد ماردستون «والآن يا كلارا! كوني حازمة مع الفتى. ولا تقولي آه دايڤي، دايڤي، فهذا تصرف صبياني. فهو يعرف أمثولته أو لا يعرفها».

وتتدخل الآنسة ماردستون بشكل مخيف «إنه لا يعرفها!».

وتقول أمي «في الحقيقة إني خائفة من أنه لا يعرفها. والآن حاول مرة أخرى يا دايڤي، ولا تكن أبله».

وأنقاد لها، إلاّ أني جدّ أبله. وأفشل قبل أن أصل إلى الموضع الأول، وإلى النقطة التي كنت أتقنها جيداً من قبل، وأقف مفكراً؛ ويقوم السيد ماردستون بحركة تدل على نفاد صبر، هذه الحركة التي أكون قد توقّعتها منذ وقت طويل. وتفعل الآنسة ماردستون الشيء عينه، وتنظر إليهما والدتي بخضوع وتغلق الكتاب وتضعه جانباً وكأنه عمل مؤجل سأبت به بعد أن أكون قد أنجزت أعمالي الأخرى.

وسرعان ما تتجمع هذه الأعمال المؤجلة، وتصبح أشبه بحزمة مكومة أمامها، وكانت تزداد انتفاخاً، ككرة متدحرجة من الثلج. وكلما كانت هذه الحزمة تتزايد أمامها كلما كنت أزداد بلاهة. كان ميؤوساً من هذه المسألة بالنسبة إلي، وكنت أشعر أني أتمرغ في مستنقع من الهراء بحيث جعلني ذلك أتخلى عن كل فكرة للخروج منه، فأترك نفسي لحظها. وكانت الطريقة اليائسة التي نتبادل بها النظرات، أنا وأمي، وأنا أتمرغ في

مستنقع الأخطاء، طريقة حزينة فعلاً. ولكن الأمر الأكثر تأثيراً في جميع هذه الدروس البائسة كان عندما تحاول أمي أن تلمح إلي عن رموز الكلمات بحركة من شفتيها، وهي تظن أن ليس من أحد يراقبها. ففي تلك اللحظة كانت الآنسة ماردستون، التي تلزم الصمت بانتظار حدوث مثل هذا الأمر فقط، تهتف محذرة بصوت عميق: «كلارا!».

وتجفل أمي، ويمتقع لونها، ثم تبتسم بوهن. ويثب السيد ماردستون من كرسيه ويأخذ الكتاب ويرميني به، أو يلطم به أذني، ويديرني من كتفي ويخرجني من الغرفة.

كان يخيل إلي، في تلك الفترة من الفترات، كما لو أن دراساتي التعيسة قد اتخذت، بوجه عام، مثل هذا النهج. وكان في وسعي أن أقوم بإتقانها على أفضل وجه لو أني كنت أتخلص من السيد ماردستون وشقيقته. لكن تأثيرهما فيَّ كان أشبه بسحر أفعوانين بالنسبة إلى عصفور صغير بائس. وأما النتيجة الطبيعية لهذه المعاملة فقد كانت أن غدوت نكداً وكئيباً ودنيئاً.

كان والدي قد ترك لنا مجموعة من الكتب في غرفة صغيرة في الطابق العلوي، وكنت أدخلها دون أن ينزعج أحد في المنزل. وقد كانت هذه الغرفة متصلة بغرفتي، وكانت الكتب قد احتفظت بمخيلتي حية، وبأملي بأن شيئاً ما آخر يقوم خلف هذا المكان والزمان، وهذا كان سبب راحتي الدائمة والوحيدة.

وفي أحد الأصباح، عندما دخلت غرفة الاستقبال، ومعي كتب الدراسة، وجدت أمي وقد بدت قلقة، والآنسة ماردستون وقد بدت حازمة، أما السيد ماردستون فقد كان يربط شيئاً ما حول طرف قضيب بيده؛ وكان هذا القضيب ليّناً؛ وعندما ولجت الغرفة كف عن ربط هذا الشيء به، وأخذ يهزه ويرنّه في الهواء، وقال لي:

«والآن يا دايڤد، عليك أن تكون اليوم أكثر حذراً وانتباهاً من الأيام السابقة» وهزّ القضيب هزة أخرى، وراح يرنّه من جديد. ولمّا انتهى من تحضيره وضعه إلى جانبه بنظرة مؤثرة شريرة، وتناول كتابه.

كان هذا منبهاً عظيماً لاستحضار تفكيري كبداية. ومن ثم شعرت بكلمات أمثولتي تفر هاربة، ليس كلمة كلمة، أو سطراً سطراً، وإنما صفحة فصفحة. وحاولت أن أمسك بها، ولكن كان يبدو أنها قد لبست زلاجات وشرعت تتزحلق هاربة مني بطريقة ناعمة دون أن يكون ثمة عائق.

كانت البداية سيئة، وتحوّلت إلى أسوإ. كنت قد دخلت وعندي الأمل بأن أبرز نفسي، وبالتالي بأن أحس بأني مستعد تماماً. لكن هذه الفكرة انطفأت وبدت لي أنها كانت فكرة خاطئة. وكان الكتاب يتربع فوق كدس الكتب الأخرى، التي تشير إلى مرات الفشل الذي عرفته، كل هذا بفضل الآنسة ماردستون التي كانت تراقبنا بحزم طوال الوقت. وفي النهاية انفجرت أمي باكية، فهب السيد ماردستون واقفاً، وهو يأخذ القضيب بيده، وقال:

«سأصعد وإياك إلى الطابق العلوي، يا دايڤد».

وحالما مضى بي إلى الباب، هرعت أمي نحونا، فتدخلت الآنسة ماردستون قائلة «كلارا! هل أنتِ غبية للغاية؟»، ورأيت أمي تتراجع عندئذ، وسمعتها وهي تجهش بالبكاء.

وصعد بي إلى غرفتي ببطء وجفاء، وكنت متأكداً من أنه يشعر بالفرح لهذا العرض الرسمي في تنفيذه مهمته. وما إن دخلنا الغرفة حتى فتل رأسي بصورة مفاجئة، ووضعه تحت إبطه، فصرخت «يا سيد ماردستون، يا سيدي! لا تفعل! أتوسل إليك لا تضربني! لقد حاولت أن أحفظ دروسي، لكنني لا أستطيع حفظها ما دمت أنت والآنسة ماردستون موجودين هناك! لا يمكنني ذلك بالفعل!».

فقال «ألا تستطيع هذا حقاً يا دايڤد؟ سنحاول ذلك!».

لقد كان يضع رأسي تحت إبطه وكأنه داخل «ملزمة»، غير أني استدرت حوله بكيفية ما، وأوقفته للحظة، وأنا أتوسل إليه ألاّ يضربني. لقد استطعت أن أوقفه للحظة فقط، لأنه قاطعني بوحشية بعد ذلك، وفي

اللحظة عينها أخذت يده، التي كان يشد بها على فمي، بين أسناني وعضضتها.

وضربني عندئذ كما لو أنه يضربني حتى يميتني، وبسبب الضجة العارمة التي أحدثناها، فقد سمعتهن يصعدن السلم ركضاً. وسمعت أمي وپيغوتي تصرخان. ثم تركني وخرج، وقد أقفل الباب من الخارج، فيما كنت أنا مطروحاً على الأرض محموماً، ساخناً، ممزقاً، مألوماً، ومملوءاً بالحنق على عيشتي التافهة.

رباه! كيف تعافيت جيداً عندما هدأت؟ وكيف خيم على المنزل كله هدوء طبيعي مطبق؟ وكيف أذكر تماماً، عندما أخذ ألمي يخف وانفعالي يبرد، كم بدأت أشعر بأني شرير.

دام سجني في الغرفة خمسة أيام؛ ولم يكن في وسعي أن أعطي أي فكرة لأي شخص عن طول تلك الأيام الخمسة، إذ إن طريقة استراقي للسمع إلى الأمور التي كانت تجري في المنزل، والتي كانت تتناهى إليَّ أصواتها، وقرع الأجراس وفتح الأبواب وإغلاقها، ودمدمة الشفاه، ووقع الخطى على السلم، ومرور الوقت دون حساب، وخصوصاً في أثناء الليل، عندما أصحو وأنا أعتقد الصبح جاء، وأجد أن العائلة لم تمض إلى الفراش بعد، وبأن ساعات الليل الطويلة لا تزال تتربص بي؛ والأحلام والكوابيس المغمّة التي كانت تدهمني، والشعور الغريب بعدم سماع نفسي أتكلم إطلاقاً، كل هذا كان يبدو لي بأنه قد استمر واستمر لمدة سنوات بدلاً من الأيام. وقد ظلّ هذا مرسوماً في ذاكرتي بشكل حي وقوي جداً.

وفي الليلة الخامسة والأخيرة، صحوت على سماع اسمي يتردّد همساً، فجلست في سريري، وقلت وأنا أمد ذراعي في الظلام:

«هل هذا أنتِ يا پيغوتي؟».

وتلمست طريقي إلى الباب، وهمست، وأنا أضع شفتي لصق فتحة القفل، «هل هذا أنت يا عزيزتي پيغوتي؟».

فأجابتني «أجل يا عزيزي دايڤي! كن ناعماً كما الفأر، وإلا سمعنا الهر».

«كيف حال أمي يا ڀيغوتي؛ هل هي غضبى مني؟».

وقبل أن تجيبني استطعت أن أسمعها وهي تبكي بصمت فوق فتحة القفل التي من جانبها، كما كنت أنا أفعل أمام فتحة القفل من ناحيتي «كلا ليس كثيراً».

«وماذا على وشك أن يجري بشأني يا عزيزتي ڀيغوتي؟ هل تعرفين؟».

«إلى المدرسة، بالقرب من لندن» كانت هذه إجابة ڀيغوتي.

«متى يا ڀيغوتي؟».

«غداً».

«هل هذا هو السبب الذي من أجله أخرجت الآنسة ماردستون الثياب من خزانتي؟» هذا العمل كنت قد نسيت أن أذكره.

فقالت ڀيغوتي «أجل، إنه صندوق».

«ألن أرى أمي؟».

فأجابت «أجل، ستراها في الصباح!».

ثم ألصقت ڀيغوتي شفتيها فوق الفتحة جيداً، ونطقت بهذه الكلمات بحرارة وعاطفة:

«يا عزيزي دايڤي، يجب ألاّ تنساني أبداً لأني لن أنساك أنا أبداً، وسأهتم كثيراً بأمك يا دايڤي، كما كنت أهتم بك دائماً؛ ولن أتركها. وقد يأتي اليوم الذي ستكون فيه سعيدة بأن تلقي برأسها من جديد فوق ذراع ڀيغوتي الكبيرة البلهاء. وسوف أكتب إليك يا عزيزي، مع أني لست متعلمة. وسوف... سوف...» وانحنت لتقبّل فتحة القفل لأنها لم تستطع أن تقبلني.

فقلت لها «شكراً يا عزيزتي ڀيغوتي! آه شكراً لك. شكراً لك!».

ومضى كل منّا يقبل فتحة القفل بعاطفة حارّة، ورحت أربت عليها بيدي، وأتصور كما لو أن الفتحة كانت وجهها الطيب. ثم افترقنا. ومنذ تلك الليلة نما في صدري حب لڀيغوتي لا يسعني أن أحدده تماماً. لم

يكن في الإمكان أن تحتل مكان والدتي، كما وأنه لم يكن ثمة إنسان في العالم يستطيع أن يشغل مكانها، إلاّ أنها ملأت مكاناً فارغاً في قلبي، فأغلق أبوابه عليها، وشعرت نحوها بشيء لم أشعر به قط نحو أي إنسان آخر.

وفي الصباح دخلت الآنسة ماردستون، كالمعتاد، وأعلمتني بأني ذاهب إلى المدرسة. لم يكن خبرها هذا خبراً مهماً بالنسبة إلي كما كانت تعتقد. وكان الحوذي، الرفيق السابق، يقف عند الباب. وكان الصندوق قد أُخرج من المنزل وأُدخل إلى عربته.

كانت الآنسة ماردستون من الطيبة بأن صحبتني وأوصلتني إلى العربة، وقالت إنها تأمل أن أندم قبل أن أصل إلى نهاية تعيسة. ثم صعدت إلى العربة ومضى الجواد البليد يسير مبتعداً بها. وكنا قد ابتعدنا حوالى نصف ميل عن المنزل تقريباً، وقد غدا منديلي كله رطباً تماماً، عندما توقف الحوذي فجأة.

وفيما كنت أحدق إلى الطريق، كيما أتحقق من سبب توقفه، تملكتني دهشة كبيرة إذ رأيت پيغوتي تندفع من خلف السياج، وتصعد إلى العربة، ثم أخذتني بكلتا يديها وضمتني إليها بشدة؛ ولم تنطق بكلمة واحدة. ثم إنها أرخت إحدى يديها ودستها في جيبها حتى مرفقها، وأخرجت بعض مغلفات ورقية فيها كعك، ودستها في جيوبي، ومحفظة وضعتها في يدي، غير أنها ظلت صامتة. وبعد ضمة أخرى وأخيرة، بكلتا يديها، هبطت من العربة وركضت مبتعدة. وكنت أعتقد، منذ وقت طويل، بأنه لا يمكن أن يبقى زر واحد في عرى ثوبها، والتقطت زراً واحداً من عدة أزرار كانت تتدحرج، واحتفظت به كتذكار منها لوقت طويل.

والآن، أُتيح لدي الوقت الكافي كيما أتفحص المحفظة، لقد كانت محفظة جلدية قاسية، وكان فيها ثلاثة شلنات لامعة، ومن الواضح أن پيغوتي كانت قد لمعتها لكي تفرحني بها. ولكن أثمن ما كان فيها من محتويات هو نصفا جنيهين مجموعين معاً في قطعة من الورق كتب عليها بيد أمي:

«إلى دايڤي، مع حبي له».

وبعد أن سرنا بعض الوقت، قدمت إلى الحوذي كعكة، كدليل على انتباهي له، فازدردها ببلعة واحدة، كالفيل تماماً؛ ولم يكن ثمة اختلاج على وجهه الكبير، بأكثر ما يمكن أن يكون على وجه الفيل تماماً.

«هل صنعتها الآن؟» سأل السيد باركيس، وهو ينحني إلى الأمام كالعادة على طريقته الكسولة، فوق سلم العربة وهو يضع يديه فوق ركبتيه.

«أتعني پيغوتي يا سيدي؟».

فقال السيد باركيس «آه! هي!».

«أجل؛ إنها تصنع لنا جميع الفطائر وتقوم بجميع أعمال الطبخ».

قال السيد باركيس «أتقوم هي بكل هذا؟».

وكور فمه كما لو أنه على وشك أن يصفر، إلاّ أنه لم يفعل، فقد ظل جالساً يحدق إلى أذني الجواد، كما لو أنه قد رأى شيئاً جديداً فيهما. وقد ظل على هذه الحال وقتاً طويلاً. وبعد قليل سألني:

«وأعتقد أن ليس لها عشاق ألا يسير بصحبتها أي شخص؟».

«مع پيغوتي؟».

فقال «نعم! معها!».

«أوه، كلا. لم يكن لها عشيق قط».

وعاد يسأل «ألا تقوم هي بذلك؟».

ومرة أخرى كوّر فمه كما يصفر، إلاّ أنه، ومرة أخرى، لم يصفر، وظل جالساً يحدق إلى أذني الجواد.

ثم قال السيد باركيس بعد فترة طويلة من التأمل «إذاً، هي تصنع جميع فطائر التفاح، وتقوم بجميع أعمال الطبخ، أليس كذلك؟».

وأجبت بأن هذه هي الحقيقة.

فقال السيد باركيس «لا بأس، سأخبرك بالأمر، فربما كتبت أنت إليها؟».

فأجبته «بالطبع سأكتب إليها».

قال وهو يتأوه ويحول عينيه نحوي ببطء «آه! حسناً! إذا ما كتبت إليها، ربما تتذكر أن تقول لها إن باركيس يود... هل ستفعل؟».

«إن باركيس يود». رددت العبارة بسذاجة، ثم أردفت «هل هذه هي الرسالة كلها؟».

فقال بعد تفكير «أجل! أجل! إن باركيس كان يود...».

وفيما كنت أنتظر وصول العربة داخل الفندق في يارماوث، بعد ظهر ذلك اليوم بالذات؛ تمكنت من الحصول على ورقة ومحبرة ورحت أخط رسالة إلى بيغوتي، وكانت على النحو التالي:

عزيزتي بيغوتي.. لقد وصلت إلى هنا سالماً. «إن باركيس يود...»

أوصلي حبي العميق إلى أمي. المحب لك. دايفد.

حاشية: يقول إنه يجب على الأخص أن تطلعي على هذه العبارة ـ إن باركيس يود...

3

لكم كانت لندن تبدو جميلة بالنسبة إلي عندما شاهدتها من بعيد، ولكن ليست بي حاجة إلى التوقف عندها والكلام عنها. لقد وصلناها تدريجاً؛ وفي الوقت المحدد. بلغنا النزل في منطقة وايت تشابل؛ هذا النزل الذي كنا مرتبطين به. وقد نسيت ما إذا كان اسمه «بلو بول» ـ أي الثور الأزرق ـ أو «بلو پور» ـ أي الخنزير الأزرق ـ غير أني كنت أدرك تماماً بأنه كان في اسمه كلمة «بلو» بالإضافة إلى كلمة أخرى. وقد رسم شكله على مؤخرة المركبة.

وفيما كان الحارس يهبط الدرجات، وقعت عيناه علي، فنادى عند باب مكتب صرف التذاكر «هل يوجد أحد هنا قد أتى من أجل ولد مسجل تحت اسم ماردستون من بلندرستون، سوفوك؛ وينتظر حتى يُنادى باسمه؟».

ولم يجب أحد من الحاضرين.

«من فضلك، حاول أن تقول كوپرفيلد يا سيدي» قلت وأنا أنظر إلى الأرض بإعياء.

«هل يوجد أحد هنا قد جاء من أجل ولد مسجل تحت اسم ماردستون من بلندرستون، سوفوك، ولكن له اسم كوپرفيلد، وينتظر حتى يُنادى باسمه؟».

«تعال. هل يوجد ثمة أحد؟».

كلاّ، لم يكن ثمة أي شخص. ودلفت إلى داخل المكتب، وبطلب من الكاتب، الذي يقوم بوظيفته، مررت من خلف الآلة الحاسبة وجلست على الميزان الذي يزنون عليه البضائع. تُرى لنفرض أن أحداً لم يأتِ لاصطحابي، فإلى متى سيرضون بمكوثي هنا؟ ولنفرض أن ليس ثمة من خطإ في القضية، وقد دبر السيد ماردستون هذه الخطة للتخلص مني، فماذا علي أن أفعل؟ وإذا شرعت في المسير الآن، وحاولت أن أمضي عائداً إلى المنزل، فكيف يتسنى لي أن أجد طريقي إليه؟ وكيف يتسنى لي

الأمل باجتياز هذه الطريق الطويلة؟ هذه الأفكار، ومائة فكرة أخرى مثلها، جعلتني أتحرق على جمر الغضا، وأصابتني بالدوار من الضياع والرعب. وكنت في ذروة انفعالي عندما دخل أحد الرجال واقترب من الكاتب، وأسرّ إليه بشيء، بحيث انتزعني هذا من على الميزان في الحال، ودفع بي إليه، كما لو أنهم وزنوني وباعوني وسلموني ثم قبضوا ثمني.

وحالما اندفعت خارج المكتب، ويدي بيد هذا الرفيق الجديد، حاولت أن أسترق نظرة إليه. كان شاباً هزيلاً، شاحب اللون؛ له خدان مجوفان، ولحية سوداء مثل لحية السيد ماردستون تقريباً، إلاّ أن شعره، عوض أن يكون مصقولاً، كان أشعث وناشفاً. وكان يرتدي بذلة سوداء اللون، رثّة وجافة كذلك، وبالتالي قصيرة عند الكمين والقدمين، وكان يضع ياقة بيضاء للرقبة، ولم تكن هذه الياقة نظيفة.

وسألني «أأنت هو الفتى الجديد؟».

فأجبته «أجل يا سيدي» وكنت أعتقد بأني أنا هو، ولست أدري.

وعاد يقول «أنا واحد من الأساتذة في مؤسسة سالم».

انحنيت له احتراماً، وشعرت بالتهيب الكبير نحوه. وما إن قطعنا مسافة قصيرة حتى وصلنا، أعني أنا والمعلم، إلى «مؤسسة سالم» التي كانت محاطة بجدار من الآجر، وتبدو جد كئيبة. وكان ثمة عارضة تقوم فوق باب في هذا الجدار، كتب عليها «مؤسسة سالم». ومن خلال شباك حديدي في هذا الباب أشرف علينا، عندما قرعنا الجرس، وجه عبوس، وجدته، عندما فتح الباب، وجه رجل بدين ذي عنق أشبه بعنق ثور، وله رجل خشبية، وصدغان ناتئان، وقد جُزَّ شعره قصيراً حول رأسه كله.

قال المعلم، الذي كان يدعى السيد مل، «ها هو الفتى الجديد!».

وتفحصني الرجل ذو الرجل الخشبية، ولم يأخذ في هذا التفحّص وقتاً طويلاً، لأني لم أكن ضخماً؛ ثم أقفل البوابة خلفنا وسحب المفتاح.

كانت «مؤسسة سالم» تتكون من مبنى آجري مربع الشكل، له أجنحة تبدو بمظهر عار لا أثاث فيها. وكل ما في أرجاء هذا المبنى كان ساكناً، بحيث دفعني ذلك إلى أن أقول للسيد مل بأني أعتقد أن التلامذة ليسوا

موجودين. ولكنه بدا مندهشاً لعدم معرفتي بأن الوقت كان وقت عطلة آنذاك، وبأن التلامذة جميعهم كانوا في منازلهم، وبأن السيد كريكل، صاحب المؤسسة، كان عند الشاطئ هو والسيدة والآنسة كريكل، وبأني قد جيء بي في وقت عطلة كعقاب بسبب سوء تصرفي. كل هذا شرحه لي المعلم مل فيما كنا نسير في أرجاء المدرسة.

ورحت أحدق داخل غرفة الدراسة التي اقتادني إليها، والحق أنها كانت أتعس مكان مهجور ومهمل رأيته في حياتي حتى اللحظة. غرفة مستطيلة، ذات صفوف ثلاثة من طاولات الكتابة، وستة صفوف من المقاعد، وقد نثرت على جدرانها الأوتاد لتعليق القبعات والألواح السوداء. وكان يشوه منظر الأرضية الوسخة قصاصات من كتاب ودفتر قديمين، كما كانت تتصاعد من الغرفة رائحة نتنة غير صحية، كرائحة النبات المتعفن.

وبعد أن تركني السيد مل، سرت إلى الطرف الثاني من الغرفة بتؤدة، وأنا أراقب كل شيء فيها حتى لطخات الحبر. وفجأة عثرت على إعلان على قطعة من الكرتون مكتوب بخط جميل، وكانت موضوعة فوق طاولة الكتابة، وتحمل هذه الكلمات «انتبه منه، فإنه يعض!».

ورميت بنفسي فوق الطاولة في الحال، متخوفاً من وجود كلب كبير تحتها، غير أني رحت أنظر في أرجاء الغرفة بعينين قلقتين دون أن أرى له أثراً. وكنت لا أزال مأخوذاً بالتلصّص بحثاً عنه، عندما عاد السيد مل وسألني عما أفعله فوق الطاولة.

فقلت له «أرجو أن تعذرني يا سيدي! عن إذنك، فإني أبحث عن كلب هنا».

فقال «كلب! أي كلب؟».

«أليس كلباً، يا سيدي؟».

«عن أي كلب تتكلم؟».

«الذي يجب أن يُنتبه منه، يا سيدي؛ ذاك الذي يعض!».

فقال بجدية «كلا يا كوپرفيلد. ليس كلباً. المقصود هنا هو فتى من

الفتيان، والتعليمات المعطاة لي يا كوبرفيلد هي أن أعلق هذه اللوحة على ظهرك. وإني لآسف كوني أنهج معك مثل هذا النهج في البداية، غير أنه يجب أن أفعل هذا».

وعند ذلك أنزلني من على الطاولة، وشد هذا الإعلان، الذي كان قد صنع خصيصاً لهذه الغاية، فوق كتفي كجعبة المسافر. وحيثما كنت أمضي، بعد ذلك، كنت أشعر بالسلوى من حمله على كتفي.

ولم يكن ثمة إنسان يستطيع أن يتصور ما هو الشيء الذي كنت أتألم منه بسبب هذا الإعلان، إذ رحت أفكر بأنه قد بدأ، بشكل إيجابي، يتكوّن عندي شعور بالخوف من نفسي، باعتباري ولداً شرساً، يعض.

*

وفي صباح يوم، أعلمني السيد مل بأن السيد كريكل سيعود إلى المؤسسة في المساء. وفي المساء، وبعد أن احتسينا الشاي، سمعت عن نبإ وصوله. وقبل موعد الذهاب إلى الفراش، جاء الرجل ذو الرجل الخشبية واصطحبني لأمثل أمامه. سرت أنا إليه وجسمي كله يرتعش، وهو الأمر الذي أربكني للغاية عندما أُدخلت إليه، بحيث إنني بالكاد تمكنت من رؤية السيدة والآنسة كريكل اللتين كانتا موجودتين في غرفة الاستقبال، أو من رؤية أي شيء آخر غير السيد كريكل، الرجل البدين، الذي كان يجلس في مقعده، وإلى جانبه قدح وزجاجة.

قال السيد كريكل «إذاً، هذا هو الفتى الظريف الذي أسنانه كالمبرد! أدره».

وأدارني الرجل ذو الرجل الخشبية، كما لو أنه كان يعرض لوحة. ولمّا انتظر الوقت الكافي لعرضها، عاد وأدارني من جديد، ووجهي إلى ناحية السيد كريكل، الذي اتخذ مكانه إلى جانبه. وكان وجه السيد كريكل حاداً، وعيناه صغيرتين غائرتين في رأسه، وكان له عروق ظاهرة في جبهته، وأنف صغير، وذقن كبيرة. وكان أصلع الرأس، فيه بعض الشعيرات التي تبدو رطبة فوق صدغيه، ضاربة إلى اللون الأبيض. على أن الشيء الذي أثر فيّ أكثر من أي شيء آخر هو أنه لم يكن له صوت

عال، وإنما كان يتكلم همساً. وكان الجهد الذي يقوم به للتكلّم بمثل هذه الطريقة العاجزة يجعل من وجهه العبوس أكثر كلوحاً، ويزيد عروقه الكثيفة كثافة.

قال السيد كريكل «والآن، ما هو التقرير بشأن هذا الفتى؟».

فأجاب الرجل ذو الرجل الخشبية «ليس من تقرير ضده حتى الآن. لم يكن هناك من مناسبة لوضعه!».

فقال السيد كريكل وهو يشير إلي «تعال إلى هنا أيها السيد».

وتمتم الرجل ذو الرجل الخشبية وهو يكرر الإشارة إلي «تعال إلى هنا».

وهمس السيد كريكل وهو يمسكني من أذني «إني سعيد لمعرفتي بزوج أمك. إنه رجل جدير؛ وصاحب شخصية قوية. وهو يعرفني. وهل أنت تعرفني؟ أه؟» قال وهو يقرص أذني بمداعبة وحشية.

«لم أعرفك بعد يا سيدي» قلت وأنا أرتعش من الألم.

وردد السيد كريكل «لم تعرفني بعد؟ أه؟ ولكنك ستعرفني في الحال أليس كذلك؟».

وردد الرجل ذو الرجل الخشبية من بعده «ستعرفني في الحال، أليس كذلك؟» وفيما بعد أدركت أنه كان يعمل، بشكل عام، كمترجم بين السيد كريكل وتلامذته لجهارة صوته، وكنت خائفاً جدّاً، فقلت بأني آمل إذا كان هذا يسره. وطوال تلك الفترة كنت أشعر كما لو أن أذني كانت تتأجج ناراً، إذ إنه كان قرصها بشدة هائلة.

«سأقول لك من أنا» همس السيد كريكل وهو يترك أذني أخيراً، ولكن بعد أن فتلها وهو يتركها ما أوصل الماء، وبالتالي الدمع، إلى عينيّ «إني تتري!».

«إني تتري!» ردّد الرجل ذو الرجل الخشبية.

أردف السيد كريكل «وعندما أقول إني سأفعل شيئاً ما، فهذا يعني أني أفعله. وعندما أقول إني أود أن ينفذ هذا الأمر، معناه أني سأجده منفذاً!».

وردد الرجل ذو الرجل الخشبية «... وعندما أقول إني أود أن ينفذ

هذا الأمر، معناه أني سأجده منفذاً...».

وختم السيد كريكل «إني شخصية ذات عزيمة قوية. هذا هو أنا. فإني أنفذ واجبي. هذا ما أفعله. والآن، فإنك بدأت تعرفني يا صديقي الفتى، وفي وسعك أن تمضي. خذه من هنا!».

كان أول تلميذ عاد إلى المدرسة هو الفتى تومي ترادلس. وقد راح يسألني عن نفسي وعن أهلي بالتفصيل. وكانت هذه مناسبة سعيدة بالنسبة إلي أن يكون ترادلس أول العائدين.

وقد فرح بلوحتي هذه كثيراً، بحيث إنه وفّر عليّ مسألة حلّ الارتباك من اضطراري إلى إظهار اللوحة أو إخفائها، وذلك بطريقة تقديمي إلى كل فتى آخر حال عودته، سواء أكان صغيراً أم كبيراً، وعلى هذا الشكل من التقديم:

«انظر إلى هنا! إنه ملهاة!».

ومهما يكن من أمر، فإنني لم أحصل على الاعتبار الرسمي في المدرسة حتى مجيء جيمس ستيرفورث.

كنت أتصرف أمام هذا الفتى، الذي عُرف عنه أنه تلميذ عظيم، وقد كان يبدو جميل المظهر، وأكبر مني بنصف دزينة من السنوات على الأقل، كنت أتصرف أمامه وكأني أمام أحد القضاة.

وتحت إحدى المظلات في أرض الملعب، راح يسألني عن أسباب معاقبتي، وكان سعيداً بالتعبير عن رأيه بقوله «إنه لعار مبهج». هذا الرأي الذي من أجله أصبحت متقيّداً بشخصه بعد ذلك.

«كم تملك من المال، يا كوپرفيلد؟» سألني فيما كنا نسير جنباً إلى جنب بعدما تخلص من قضيتي بهذه التعابير. فأخبرته بأني أملك سبعة شلنات.

فقال «من الأفضل لك أن تعطيني إياها، حتى أحافظ عليها.. وعلى الأقل في وسعك أن تفعل ذلك أو لا إن شئت. وليست بك حاجة إن لم تشأ».

وأسرعت بالاستجابة لاقتراحه الودود، وأفرغت محفظة پيغوتي في

يده بعد أن فتحتها.

وسألني «أتود أن تصرف شيئاً الآن؟».

فأجبته «كلا، شكراً!».

فقال ستيرفورث «في وسعك ذلك إن شئت. قل!».

فأجبت «كلا، شكراً أيها السيد!».

وعاد ستيرفورث إلى القول «لعلّك تود أن تصرف شلنين في شراء زجاجة من النبيذ الحلو لتشربه عما قريب في غرفتك فوق. كما أنني عرفت أنك تابع لغرفتي».

من الأكيد أن ذلك لم يحدث لي من قبل، غير أني قلت «أجل، أفضل هذا».

فقال ستيرفورث «عظيم جداً. ولعلك ستكون سعيداً بأن تصرف شلناً واحداً لشراء كعك بالجوز؟».

فقلت «أجل. سأحب ذلك أيضاً!».

وعاد يقول «ولنبتع بشلن آخر بعض «البسكويت» وبآخر بعض الفاكهة. أليس كذلك؟ وأعتقد أنك ستفعل أيها الفتى كوپرفيلد».

وابتسمت لأنه ابتسم. إلاّ أني كنت متضايقاً فكريّاً أيضاً. وقال ستيرفورث «يجب علينا أن نحافظ على هذا المبلغ بقدر استطاعتنا. هذا كل شيء. ومن ناحيتي سوف أبذل جهدي من أجلك، إذ إن في وسعي أن أخرج ساعة أشاء، وسأهرب المأكولات إلى الداخل». بهذه الكلمات دس النقود في جيبه، وطلب إلي بأسلوب رقيق ألاّ أجزع، فسيحافظ عليه، وسيكون المبلغ في الصون والأمان.

وكان طيباً مثل كلمته. وعندما صعدنا إلى الطابق العلوي لننام، قدم إلي ما قيمته سبعة شلنات، ووضعه فوق سريري في ضوء القمر وهو يقول:

«إليك بكل هذا أيها الفتى كوپرفيلد. إنها مائدة ملكية».

وفي أثناء جلستنا مضى يقص علي أخبار المدرسة، والمعلمين، والسيد كريكل، فيما كان ضوء القمر يشكّل بنوره نافذة شاحبة فوق

الأرض، ويرسم فوقها أكبر قسم منا. وقد انتابني شعور غامض، فيما كنت أستمع إليه، وذلك بسبب الظلمة، والفرح الذي نتقاسمه سراً.

وسمعت كذلك بأن الآنسة كريكل تعتبر في المدرسة، بشكل عام، واقعة في حب ستيرفورث. وكنت متأكداً، وأنا أجلس في الظلمة أفكر في صوته الرخيم، ووجهه الجميل، وأسلوبه المرح، وشعره الأجعد، بأن هذه المسألة جد مستحبة.

سماع كل هذا، وأشياء أخرى أيضاً، أطال من عمر جلستنا وقتاً أطول. وبعد أن مضيت إلى الفراش لأنام، رحت أفكر به كثيراً، ورفعت رأسي وحاولت أن أنظر إليه، حيث ينام في نور القمر، ووجهه الجميل مرفوع إلى أعلى، ورأسه محني على ذراعه.

في صباح اليوم التالي، بدأت الدروس بشكل جدي؛ وقد أضفى عليّ طابعاً عميقاً هدير الأصوات في غرفة الصف، وقد انقطع بشكل فجائي وكأنه صمت الموت، عندما دخل السيد كريكل بعد طعام الفطور ووقف بالباب يحدق إلينا كأنه عملاق، في كتاب قصصي، يشرف على أسراه.

«والآن أيها الأولاد، هذا هو النصف الجديد من العام الدراسي. فانتبهوا إلى ما أنتم بصدده في غضون هذا النصف. وأنصحكم أن تقبلوا على الدروس بنشاط، لأني أنا سأُقبل بنشاط على إنزال العقاب ولن أنثني. ولن يكون ثمة فائدة في مضايقة أنفسكم، فلن يكون في وسعكم أن تزيلوا الآثار التي سأتركها عليكم. والآن ليبدأ كل منكم عمله».

وعلي أن أعترف بأن ليس هناك من إنسان يتلذذ بممارسة عمله أكثر مما يتلذذ السيد كريكل. وكان لا يني يعامل التلامذة بقساوة مبالغ فيها.

كنت أجلس إلى طاولتي وأحدق إلى عينيه من جديد، وبكل تواضع أقول إني أحدق إلى عينيه، فيما يقوم بتسطير كتاب الحروف لضحية أخرى. كانت يداه قد ضُرِبتا بهذه المسطرة ذاتها؛ وهو يحاول أن يزيل علامات الضرب من على يديه بوساطة منديل للجيب. وقد كانت لدي أعمال كثيرة لكي أقوم بها، ولم أكن أحدق إلى عينيه بداعي الكسل،

وإنما لأني قد أُخذت بها بشكل فظيع، وبرغبة مخيفة لمعرفة ما سيقوم به في الخطوة التالية، وما إذا كان سيأتي دوري لكي أتألم، أو دور أحد سواي. وكان يقوم خلفي صف من الأولاد الصغار، وهم يحدقون إلى عينيه أيضاً بالدافع ذاته الذي أحدق به أنا. وأظن أنه كان يدرك ذلك تماماً، وإنما كان يتظاهر بعدم معرفته لأي شيء.

مسكين ترادلس! فقد كان، ببذلته الزرقاء التي تظهر يديه وقدميه وكأنها قطع من «المقانق»، أكثر مرحاً من جميع التلامذة، كما وأنه كان أكثرهم بؤساً، فهو كان يُضرب بالعصا دائماً، وأظن أنه كان يضرب بها كل يوم من أيام النصف الثاني من ذلك العام الدراسي، باستثناء يوم الاثنين المجيد، الذي ضرب فيه على يديه بالمسطرة. وكان دائماً على أهبة الكتابة إلى عمه حول هذا الموضوع، إلاّ أنه لم يفعل ذلك قط. وكان بعد أن يلقي برأسه فوق الطاولة لبرهة من الزمن، يعود ويستخف به الطرب، فيشرع في الضحك من جديد قبل أن تكون عيناه قد جفتا من الدمع.

واستمر ستيرفورث يحميني، وأثبت أنه صديق جد مفيد، لأنه لم يكن يوجد من يتجرأ ويزعج أي فتى يكون هو قد شرّفه بتأييده.

وفي إحدى المناسبات، وفيما كان يشرفني بالتحدث إلي في أرض الملعب، حدث أني أتيت على ذكر ملاحظة ما، وهي أنه كان ثمة شخص أو شيء ـ ولم أعد أذكر ماذا بالتحديد ـ يشبه شيئاً أو شخصاً في كتاب «مغامرات بيريغرين بيكل»(*). ولم يقل لي ستيرفورث شيئاً في ذلك الوقت، ولكنه سألني، عندما كنت آوي إلى فراشي في الليل، عما إذا كنت أملك ذلك الكتاب.

أجبته بالنفي، وشرحت له كيف حدث لي أن قرأته، وقرأت تلك الكتب التي ذكرتها له.

فقال لي «وهل تذكرها كلها؟».

(*) رواية للقاص الاسكتلندي طوبياس سموليت (١٧٢١ ـ ١٧٧١) صدرت سنة ١٧٥١، تتناول الحياة الاجتماعية في أوروبا في القرن ١٨.

«آه، أجل!» أجبته. إذ إني كنت أملك ذاكرة قوية، وأعتقد أني لا أزال أذكر كل هذه الكتب جيداً.

قال ستيرفورث «إذاً، سأخبرك بما ستفعله يا كوپرفيلد؛ عليك أن تقصها عليّ بتمامها، إذ لا يمكنني أن أنام باكراً عند المساء، وبوجه العموم فإني أصحو في ساعة مبكرة من الصباح. ولسوف نأتي عليها كلها واحداً بعد الآخر. وسنحيا بها ليالي عربية منتظمة»(*).

وشعرت بالإطراء المفرط لهذا التدبير، وشرعنا بتنفيذه في تلك الليلة بالذات. والعيب الوحيد الذي كان يعتور أُنسنا هو أني غالباً ما أكون نعسان في الليالي، منقبض النفس، ومتوعكاً للاستطراد في الرواية. وعند الصباح أيضاً، عندما أشعر بأني متعب، وينبغي أن أحصل على ساعة أخرى من الراحة والنوم، كان يبدو لي أنه لأمر شاق أن أصحو مثل شهرزاد وأن أُرغم على الخوض في غمار رواية أخرى طويلة قبل أن يقرع الجرس للنهوض. على أن ستيرفورث كان مصمماً على ذلك، وبما أنه كان يشرح لي، بدوره، المسائل الحسابية، وأي شيء في فروضي يبدو صعباً جداً بالنسبة إلي، فإني لم أكن بذلك الخاسر في هذه الصفقة. ومهما يكن من أمر، فلأكن عادلاً وأقول إني لم أكن متأثراً بأي دافع أناني أو مغرض، ولم أكن متأثراً كذلك بالخوف منه. لقد كنت معجباً به وأحبه، وصداقته لي كانت صداقة وودّ متبادل. وكان من العزيز عندي أن أعود إلى تلك الجزئيات الآن، بقلب يتفطر ألماً.

وقد خيل إلي أننا ظللنا شهوراً حتى انتهينا من رواية «بيريغرين بيكل»، وشهوراً أخرى بعدها في القصص الباقية.

ولم أكن آتي على التفكير بالفتى المسكين ترادلس مرة إلاّ وأشعر باستعداد غريب للضحك، وبالدمع يملأ عينيّ. وقد كانت ثمة حادثة واحدة فقط، في هذا النصف الثاني من العام الدراسي، تركت فيَّ طابعاً لا يزال حياً حتى اليوم، وهو حي لعدة أسباب.

(*) إشارة إلى كتاب «ألف ليلة وليلة» وهي مجموعة حكايات خيالية تحكيها شهرزاد للملك شهريار.

ففي بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كنا منزعجين وفي حالة مزرية من الفوضى، دخل علينا الرجل ذو الرجل الخشبية ونادى بصوته الجهوري المعتاد «هناك زوّار لكوپرفيلد!».

وبعد أن تبودلت بضع كلمات، بينه وبين السيد كريكل، طلب إلي أن أمضي عبر السلم الخلفي، وأرتدي ثوباً نظيفاً، قبل أن أتوجه إلى غرفة الطعام.

ولشد ما كانت دهشتي كبيرة، إذ رأيت هناك السيد پيغوتي وهام، في حين كنت أتوقع أن أرى والدتي والسيد ماردستون. حيّينا بعضنا بطريقة جد ودية، ورحت أضحك وأضحك إلى أن أخرجت منديلي وجففت به عينيّ.

وأظهر السيد پيغوتي، الذي لم يقفل فمه مرة واحدة خلال الزيارة، كما أذكر، جزعاً عندما رآني أضحك وأنتحب بهذا الشكل، وراح يلكز هام بمرفقه ويقول له شيئاً ما.

فقال هام «افرح يا سيد دايڤي! آه كم كبرت!».

«هل كبرت حقاً؟» قلت وأنا أجفف عينيّ، إذ لم أكن أبكي من أجل شيء خاص أعرفه، وإنما كنت أبكي لمجرد رؤيتي للصديقين القديمين.

قال هام «كبرت يا سيد دايڤي، ألم يكبر حقاً؟».

وقال السيد پيغوتي «أجل لقد كبر فعلاً».

وجعلاني أضحك من جديد عندما راحا يتبادلان الضحك، ثم انخرطنا نحن الثلاثة في الضحك إلى أن أصبح من العار علي أن أعود إلى البكاء مرة أخرى. وعندما هدأت سألت السيد پيغوتي «كيف حال أمي؟ وكيف حال عزيزتي، عزيزتي القديمة پيغوتي؟».

فأجاب السيد پيغوتي «إنهما بخير!» وأخرج من جيوبه صدفتين كبيرتين، وسرطاناً هائلاً، وحقيبة واسعة من القماش مملوءة «بالقريدس»، ووضع كل هذا في يدي هام، وقال «بما أننا نعرف عنك أنك مغرم بالتوابل مع الطعام، خلال الفترة التي كنت فيها معنا، فقد جئناك بها دون أن نستميحك العذر».

شكرتهما بإخلاص، وقلت، وأنا أشعر بالخجل، إني أعتقد أن إميلي قد تغيّرت كذلك، منذ أن اعتدنا أن نلتقط معاً الصدف والحصى من على رمال الشاطئ.

فقال السيد پيغوتي «إنها على وشك أن تصبح امرأة. سلْه!».

وكان يعني بذلك هام، الذي شع بالفرح، ولعلهما كانا قد تكلما أكثر من ذلك عن إميلي، لو أنهما لم ينزعجا بدخول ستيرفورث غير المتوقع، بحيث توقف هذا عن أغنية كان يرددها على أثر رؤيته لي واقفاً في الزاوية أتكلم إلى غريبين، وقال، وهو يعبر إلى الخارج «لم أكن أدري بأنك هنا يا كوپرفيلد».

ولم أعد أذكر ما إذا كنت قد ناديت ستيرفورث وهو يخرج، بدافع من كبريائي في أن يكون لي صديق مثله، أو بدافع من رغبتي بأن أشرح له كيفية وصولي إلى أن يكون لي صديق مثل السيد پيغوتي. غير أني قلت بتواضع ـ يا إلّهي! كيف يحضرني كل شيء الآن بعد مضي هذا الوقت الطويل ـ «لا تمضِ يا ستيرفورث، من فضلك. إن هذين صيادان من يارماوث، إنهما طيبان جداً، ولطيفان، وهما يمتان بصلة القرابة إلى مربيتي، وقد جاءا من «كريفسيند» ليرياني».

«حقاً، حقاً؟» قال ستيرفورث وهو يرجع. «إني سعيد برؤيتهما. كيف حالكما؟».

وكان في خلقه دماثة، كان خلقاً مرحاً، ومبهجاً، ليس فيه أي تفاخر، بحيث لا أزال أعتقد أني أحمل منه شيئاً من السحر حتى الآن. ولم يكن في وسعي إلاّ أن أرى كم كانا مسرورين به، وكيف بدا عليهما أنهما يفتحان له قلبيهما في لحظة فقط.

قلت للسيد پيغوتي «من فضلك، أرجو أن تعلمهم في المنزل بأن السيد ستيرفورث هو جد لطيف معي، وبأني لا أدري ما كنت سأفعله هنا من دونه».

فقال ستيرفورث ضاحكاً «هراء! يجب ألاّ تخبرهم أي شيء من هذا القبيل».

قلت «وإذا حدث وجاء السيد ستيرفورث إلى نوفوك أو سوفوك، يا سيد پيغوتي، وكنت أنا هناك، فبوسعك أن تتأكد بأني سآتي به إلى يارماوث،إذا ما سمحت لنا برؤية منزلك، إذ لم يسبق لك ورأيت مثل هذا المنزل يا ستيرفورث، إنه عبارة عن مركب».

وسأل ستيرفورث «أهو مكون من مركب!؟ إنه المنزل الملائم لبحار متين البنية مثلك».

فقال هام وهو يضحك ساخراً «وهو كذلك يا سيدي، وهو كذلك. أنت محق. بحار متين البنية!».

وكان السيد پيغوتي لا يقل فرحاً عن ابن أخيه. قال وهو ينحني، ويضحك سراً «حسناً يا سيدي، إني جد شاكر، جد شاكر! فأنا أقوم بمساعيّ في حقل حياتي، يا سيدي!».

«إن أفضل الرجال لا يسعهم أن يفعلوا أكثر من ذلك، يا سيد پيغوتي». قال ستيرفورث وقد حفظ الاسم جيداً.

وقال السيد پيغوتي «إني شاكر لك إطراءك يا سيدي. وأنا جد ممتن لطريقة ترحيبك بي. إن حياتي خشنة، يا سيدي، ولكني راض بها. على الأقل هذا ما آمل أن أكونه. إن منزلي ليس بمستوى أن تشرفه، يا سيدي، وإنما سيكون بخدمتك بحب وترحيب، إذا ما جئت لتراه مع السيد دايڤي».

وردد هام هذه الكلمات، وافترقنا بطريقة ملؤها الحب والود.

ونقلنا الصدف، أو ما أسماه السيد پيغوتي بتواضع «التوابل»، إلى غرفتنا دون أن يرانا أحد، وحضرنا عشاء لذيذاً في ذلك المساء.

كانت بقية نصف العام الدراسي خليطاً في ذاكرتي لنشاطنا وكفاحنا اليوميين في حياتنا؛ وللصيف القصير، والفصل المتقلّب، وللأصباح المتجمدة عندما يقرع الجرس للنهوض من أسرتنا، والرائحة الباردة، الباردة لليالي المظلمة، عندما يقرع الجرس لنأوي إلى النوم، ولغرفة الدراسة في المساء، عندما تضاء بنور باهت، وتدفأ بشكل زهيد، ولغرفة الدراسة في الصباح، عندما لا تكون سوى آلة عظمية مرتجفة، ولتعاقب

أطباق اللحم المسلوق واللحم المقلو، بالإضافة إلى لحم الضأن المسلوق والمشوي، مع قطع من الخبز والزبدة، ولأشياء أخرى مماثلة كثيرة.

وإني لأذكر جيداً كيف أن فكرة العُطلة المدرسية البعيدة كانت تبدأ بعد أن تبدو لفترة طويلة أشبه بنقطة صغيرة راسخة، تبدأ تتجه نحونا، وتروح تكبر وتكبر. وكيف أننا كنا نأتي على عدّ الأسابيع ثم الأيام، وذلك بعد أن نحسب الأشهر، وكيف أني كنت قد بدأت أخاف وقتذاك من أن لا يُرسل في طلبي. وعندما علمت من ستيرفورث بأنه قد بُعث في طلبي، وأصبح من المؤكد أني سأمضي إلى المنزل، انتابتني مخاوف مشؤومة بأني قد أكسر قدمي في أول الأمر. وكيف أن انتهاء الزمن أخذ يبدل مكانه بسرعة في النهاية، فمن الأسبوع الذي يتلو الأسبوع المقبل، إلى الأسبوع المقبل، ومن الأسبوع المقبل إلى هذا الأسبوع، ومن هذا الأسبوع إلى بعد غد، ومن بعد غد إلى غد، ثم إلى اليوم، وأخيراً إلى هذا المساء، عندما كنت قد أصبحت في حافلة ركاب يارماوث، وأنا في طريقي إلى البيت.

ووصلنا النزل قبل يوم واحد، حيث توقفت الحافلة. وكان على الحوذي، السيد باركيس، أن يناديني في الصباح في حوالى الساعة التاسعة. وقد كنت جاهزاً للذهاب معه قبل الوقت المحدد. وقد استقبلني كما لو أنه لم يمضِ على فراقنا في المرة الأخيرة أكثر من خمس دقائق.

وحالما أصبحت أنا وصندوقي في العربة، وقد احتل باركيس مقعده، شرع الجواد الكسول يدبّ بنا بمشيته المألوفة. قلت أخاطب السيد باركيس:

«لقد بعثت لك برسالتك يا سيد باركيس. لقد كتبت إلى بيغوتي».

فقال السيد باركيس «آه!».

وبدا السيد باركيس غليظ الطبع حين أجاب على كلامي بجفاء.

وسألته بعد قليل من التردد «ألم يكن ذلك مستحسناً؟».

فأجاب «آه، كلا!».

«ألم تكن الرسالة مستحسنة؟».

فقال السيد باركيس «ربما كانت الرسالة مستحسنة، إلاّ أنها لقيت حتفها هناك. لم يكن ثمة جواب».

«وهل كنت تتوقع أن يكون ثمة جواب يا سيد باركيس؟» سألته وأنا أفتح عيني على وسعهما، لأن هذه المسألة كانت بالنسبة إلي نوراً جديداً.

قال السيد باركيس وهو يحول نظراته إلي ببطء مرة أخرى «عندما يقول الرجل بأنه يود... فمعنى ذلك أنه يقول إنني أنتظر جواباً!».

«أحقاً يا سيد باركيس؟».

«وهذا الرجل لا يزال ينتظر جواباً منذ ذلك الوقت». قال السيد باركيس وهو يعود ويركز عينيه على أذني الجواد.

«وهل أخبرتها أنت بذلك يا سيد باركيس؟».

هتف السيد باركيس وهو يفكِّر بكلماتي «كلا، كلا، ولم أُستدع إلى هناك لأخبرها بذلك. لم يسبق لي أن كلمتها ست كلمات. ولست عاقداً النية على مفاتحتها بالموضوع».

قلت أنا بشكل مريب «أتود مني أن أُفاتحها أنا بالموضوع يا سيد باركيس؟».

قال السيد باركيس، وهو يلقي علي نظرة أخرى بطيئة «في وسعك أن تخبرها بذلك إن شئت. وقل لها بأن السيد باركيس كان ينتظر جواباً. ولكن ما اسمها؟».

«اسمها هي؟».

«أجل!» قال السيد باركيس بهزة من رأسه!

«بيغوتي».

«هذا اسم بالعماد، أم اسم طبيعي؟».

«آه، ليس هذا باسمها المسيحي، فاسمها بالعماد هو كلارا».

«هل هو كذلك؟».

وبدا عليه أنه وجد ذخيرة كبيرة للتأمل في هذه المناسبة. وجلس يفكر، وفي دخيلته كان يصفر لفترة من الوقت. وأخيراً استطرد:

«حسناً، قل لها «بيغوتي، إن باركيس ينتظر جواباً». وربما قالت هي «علام ينتظر جواباً؟» فقل أنت «ينتظر جواباً على ما أخبرتك أنا به» فتقول هي «بمَ أخبرتني أنت؟» فتقول أنت «إن باركيس يود...»».

وأرفق السيد باركيس هذا الإيعاز الخبيث للغاية بلكزة من مرفقه أشعرتني بألم كبير في خاصرتي. وبعد ذلك استرخى في مقعده على طريقته المعتادة، ولم يعد يأتي على ذكر الموضوع. غير أنه بعض مضي نصف ساعة سحب من جيبه قطعة من الطبشور وكتب على خيمة العربة من الداخل، «كلارا بيغوتي». واتضح لي أن ذلك كان أشبه بمذكرة.

أنزل الحوذي صندوقي ووضعه على الأرض عند باب الحديقة، ثم تركني ومضى. وسرت في الممر باتجاه المنزل، وأنا أُلقي نظرة على النوافذ، والخوف يملؤني عند كل خطوة، من أن أرى السيد أو الآنسة ماردستون وهما يطلان من إحداها. ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن يظهر أي وجه من خلال هذه النوافذ، ودلفت إلى الداخل بخطوة هادئة وجلى.

والله يعلم كم كانت ذاكرتي يقظة إذ إنها استفاقت فيّ على صوت أمي في غرفة الاستقبال القديمة، عندما وضعت قدمي في القاعة. لقد كانت تغني بصوت خفيض. وأعتقد أنه ينبغي أن يكون قد سبق لي وغفوت بين ذراعيها وسمعتها وهي تغني لي، ولكن عندما كنت طفلاً.

ومن خلال اللهجة الحزينة والعميقة التي كانت تدمدم بها أغنيتها، تصورت أنها كانت وحيدة. وولجت الغرفة بتؤدة، ورأيتها تجلس إلى جانب المدفأة ترضع طفلاً، وكانت تشد له يده الصغيرة إلى عنقها، أمّا عيناها فكانتا تحدقان إلى وجهه، وهي تغني له.

وإذ تكلمت إليها أجفلت وخرجت من فمها صرخة، ولكنها ما إن رأتني حتى نادتني بعزيزها دايفي، وبابنها الحبيب. واجتازت نصف القاعة لملاقاتي وجثت على الأرض وقبلتني، ثم ألقت برأسي على صدرها إلى جانب ذلك المخلوق الصغير الذي كان في حضنها، ورفعت له يده إلى شفتي.

وتمنيت لو أني مت. تمنيت لو أني مت آنذاك، بسبب ذلك الشعور

الممزّق في قلبي! إذ لكنت أقرب إلى دخول الجنة، من أي وقت آخر، منذ ذلك الحين.

قالت أمي تدللني «إنه شقيقك، دايڤي، ابني الجميل! ولدي المسكين!». ثم قبّلتني وقبّلتني، وضمّتني من عنقي. وهذا ما كانت تقوم به أمي عندما دخلت علينا پيغوتي مسرعة، وارتمت على الأرض، إلى جانبنا، وانشغلت بنا بجنون لمدة ربع ساعة.

وخيل إليّ بأن وصولي لم يكن متوقعاً بمثل هذه السرعة، إذ إن الحوذي وصل بعربته قبل وقته المعتاد بكثير. وبدا لي كذلك بأن السيد والآنسة ماردستون قد خرجا في زيارة في الجوار، ولن يعودا قبل حلول الليل. ولم أكن آمل هذا قط، كما أني لم أكن أفكر بأنه يمكن لنا بعد الآن، نحن الثلاثة، أن نجتمع معاً دون أن ننزعج. وشعرت في تلك الفترة كما لو أن الأيام القديمة قد عادت من جديد.

تناولنا طعام العشاء معاً، بقرب المدفأة. وقد كانت پيغوتي تقوم على رعايتنا وخدمتنا، إلاّ أن أمي لم ترد لها ذلك، فجعلتها تتناول طعامها معنا. وقد قدّمت لي طعامي في طبقي القديم المفضّل، الذي عليه مشهد رجل محارب أشهب، عند الشراع، والذي كانت پيغوتي قد خبأته طوال مدة غيابي، في أحد الأمكنة، وقد قالت إنها لما كانت كسرته ولو دفعت لها مائة شلن لقاء ذلك. وكان لي كوبي الذي عليه اسم «دايڤي» كذلك، وشوكتي وسكيني الصغيرتان القديمتان واللتان لا تقطعان.

وفيما كنا نجلس إلى المائدة حسبت أنها كانت اللحظة المناسبة كيما أخبر پيغوتي بأمر السيد باركيس؛ بحيث راحت، قبل أن أنهي ما علي أن أخبرها به، تضحك ملء فيها، وقد ألقت بمئزرها فوق وجهها.

وقالت أمي «ما القضية يا پيغوتي؟».

وازداد ضحك پيغوتي، وراحت تشد بمئزرها على وجهها فيما كانت أمي تحاول إبعاده؛ وقد أصبحت وكأنّ رأسها في حقيبة.

وقالت أمي ضاحكة «ماذا تفعلين أيتها المخلوقة الحمقاء؟».

وهتفت پيغوتي «آه، يا للرجل! يود أن يتزوجني!».

فقالت أمي «سيكون زوجاً عظيماً لك، أليس كذلك؟».

وهتفت پيغوتي «آه؟ لا أدري. لا تسأليني. لن أقبل به حتى ولو كان مصنوعاً من الذهب. ولن أرضى بأي إنسان آخر كذلك».

وعادت أمي تقول «إذاً لِمَ لا تخبرينه ذلك، أيتها الساخرة؟».

أجابت پيغوتي وهي تحدق من خلال المئزر «أخبره ذلك! لم يقل لي هو ولا كلمة واحدة بهذا الشأن. وهو يعلم أفضل مني بأني إذا ما تجرأ وقال لي كلمة واحدة، فسوف أصفعه على وجهه».

كان وجهها لا يزال يحتفظ بلونه الأحمر الذي اعتدت رؤيته، أو كأي وجه آخر، كما أعتقد. غير أنها عادت لتحجبه بالمئزر من جديد لبضع دقائق في كل مرة، عندما كانت تنتابها نوبة عنيفة من الضحك؛ وبعد نوبتين أو ثلاث، عادت لتستأنف عشاءها.

ولاحظت بأن أمي قد غدت أكثر جدية وتأمُّلاً، مع أنها كانت تبتسم عندما تنظر إليها پيغوتي. وقد رأيت في البدء أنها تبدّلت، وغدا وجهها هادئاً وظريفاً للغاية، إلاّ أنه كان يبدو نحيلاً جداً ويُنبي بالهموم والمتاعب. وكانت يداها جد هزيلتين، بيضاوين،، بحيث إنهما بدتا لي وكأنهما شفافتان تقريباً.
قالت أخيراً وهي تمد يدها وتضعها بمودة فوق ذراع خادمتها القديمة:

«ألن تتزوجي يا عزيزتي پيغوتي؟».

فأجابت پيغوتي وهي تحدق إليها «أنا يا أماه!؟ ليباركك الله! كلا لن أتزوج!».

وقالت أمي بحنان «تعنين أنك لن تتزوجي الآن؟».

«لن أتزوج أبداً» هتفت پيغوتي.

وأخذت أمي يدها وقالت «لا تتركيني يا پيغوتي. ابقي معي. وقد لا يطول هذا كثيراً. فماذا سأفعل أنا من دونك؟».

وهتفت پيغوتي «أنا أتركك يا عزيزتي! لن أفعل هذا، حتى ولو من أجل العالم كله ومن أجل زوجته! ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك الصغير السخيف؟». ذلك لأن پيغوتي كانت قد اعتادت، لكبر سنّها، أن تخاطب أمي وكأنها طفلة، في بعض الأحيان.

وبعد ذلك مضت تغسل الأطباق. ثم عادت ودخلت وعلى رأسها قبعة أخرى، ومعها علبة الخياطة، «والمازورة» وقطعة الشمع، كل شيء كالمعتاد تماماً.

وفيما كنا نجلس هكذا، نحدق إلى النار، ونشاهد صوراً في لهيب الفحم الحجري الأحمر المشتعل، رحت أتخيّل أنه لم يسبق لي وغبت عن المنزل تقريباً، وبأن السيد والآنسة ماردستون كانا مجرد صورتين، وسيضمحلان حالما تخفت ألسنة النار، وبأنه لم يكن يوجد شيء حقيقي بين جميع تلك الأشياء التي تذكرتها، ما عدا أمي وپيغوتي.

قالت پيغوتي التي كانت تنتابها أحياناً نوبة من نوبات الدهشة والتساؤل حول موضوع ما لا يكون متوقعاً أبداً «ترى ماذا جرى لعمة دايڤي الوجيهة؟».

أجابت أمي وهي تنتشل نفسها من أحلام اليقظة «ما هذا الهراء الذي تتكلمين به يا پيغوتي!؟».

فقالت پيغوتي «لا شيء، لكنني أتساءل فعلاً يا أماه!».

واستوضحت أمي «ما الشيء الذي يمكن أن يذكرك بهذه المرأة؟ كم أنت سخيفة يا پيغوتي! ليس من شك في أن الآنسة بيتسي منغلقة على نفسها في بيتها الصغير، بقرب البحر، وستبقى هناك. وعلى كل حال، ليس من المحتمل أن تزعجنا أبداً بعد الآن».

وبعد أن احتسينا الشاي، وقد تراكم الرماد، وأُضيئت الشموع، رحت أقرأ لپيغوتي فصلاً من كتاب التماسيح في ذكرى المرات السابقة، وكانت قد أخرجته من جيبها، ولا أدري ما إذا كانت لا تزال محتفظة به في جيبها منذ ذلك الوقت. ثم رحنا نتحدث عن «مؤسسة سالم»، بحيث تطرقت في الحديث إلى ستيرفورث الذي كان موضوع كلامي الأهم. وقد كنا جد سعداء ونحن على تلك الحال. والحق أن تلك الأمسية، التي اعتبرت الأخيرة من نوعها، والتي كُتب لها أن تختم ذلك الجزء من حياتي،فإنها لن تُنسى من مخيلتي ما حييت.

*

وبما أني لم أر السيد ماردستون منذ ذلك اليوم الذي ارتكبت فيه فعلتي المشؤومة، فقد شعرت بعدم الارتياح لاضطراري إلى أن أهبط لتناول طعام الفطور في الصباح. ومهما يكن من أمر، فقد قمت بما يجب أن أقوم به، فهبطت، بعد أن انتابتني أكثر من رعشة، وبعد تردد طويل، دخلت غرفة الجلوس.

كان السيد ماردستون يقف وهو يدير ظهره إلى النار، فيما كانت الآنسة ماردستون تقوم بإعداد الشاي. وما إن دخلت الغرفة حتى راح يحدق إليّ بثبات، فاقتربت منه بعد لحظة من الارتباك، وقلت «أرجو معذرتك يا سيدي. إني جد آسف لما فعلت. وآمل منك الصفح».

فأجابني «إني سعيد بسماعك وأنت تبدي أسفك، يا دايفد!».

وكانت اليد التي مدّها نحوي هي التي كنت قد عضضتها. ولم يسعني أن أمنع عيني من ألاّ تستقرّا لبرهة فوق بقعة حمراء ظاهرة عليها، إلاّ أنها لم تكن جد حمراء، عندما تحولت ونظرت إليها، وقد قابلت ذلك الانطباع الشرير على وجهه.

وقلت للآنسة ماردستون «كيف حالك أيتها السيدة؟».

«آه! يا عزيزي!» تأوهت الآنسة ماردستون وهي تمدّ لي «مغرفة» بدلاً من يدها. «كم هي مدة العطلة؟».

«شهر يا أماه!».

«من أي يوم ستبدأ؟».

«بدءاً من اليوم أيتها السيدة!».

فقالت الآنسة ماردستون «آه؛ إذاً، ها قد مر يوم واحد!».

وظلت محتفظة بهذه الطريقة في تقويمها للعطلة. وعند كل صباح كانت تحذف يوماً بالطريقة عينها تماماً. وظلت تقوم بهذه المهمة بكآبة إلى أن بلغت اليوم العاشر. غير أنها عندما دخلت في العدد المؤلف من رقمين، بدت مملوءة بالأمل أكثر من السابق، وكلما كان الوقت يتقدم بي كلما كانت تزداد فرحاً وانشراحاً.

لم أكن محبوباً من الآنسة ماردستون، وبالاختصار، لم أكن محبوباً

هناك من أحد، ولا حتى من نفسي، لأن المرأتين، اللتين كانتا تكنان لي الحب، لم يكن في وسعهما المجاهرة به، وكان عندي إحساس مرهف دائماً بأن هاتين المرأتين، اللتين لم تكونا قادرتين على المجاهرة بحبهما لي، كانتا دائماً تبدوان جد خاضعتين وكئيبتين.

وهكذا انقضت العطلة، وجاء ذلك الصباح الذي قالت فيه الآنسة ماردستون «هذا آخر يوم يعبر من العطلة» وأعطتني قدح الشاي الأخير.

لم أكن آسفاً على مغادرتي البيت، إذ كنت قد انحدرت إلى حالة سيئة كئيبة، غير أني كنت أتعافى منها شيئاً فشيئاً، وأعلل النفس برؤية ستيرفورث، بالرغم من أنّ السيد كريكل كان يلوح لي من ورائه.

ومن جديد عاد السيد باركيس ليظهر عند البوابة، ومن جديد عادت الآنسة ماردستون تنبّه أمي قائلة «كلارا!» وذلك عندما انحنت أمي فوقي لتزودني بقبلة الوداع.

وقبّلتها أنا بدوري، وقبّلت أخي الصغير، وكنت جد أسِفاً وقتذاك، ولكني لم أكن متأسفاً على ذهابي لأن الهوَّة بيننا كانت موجودة فعلاً، وكذلك كانت الفرقة تترسّخ بيننا في كل يوم، ولم يكن احتضانها لي ليعيش طويلاً في ذاكرتي، مع أنه كان حاراً بقدر الإمكان، وبقدر ما تبع احتضانها لي.

وكنت أصبحت داخل العربة عندما سمعتها تناديني؛ فنظرت إلى الخارج، ورأيتها تقف وحيدة عند باب الحديقة، ترفع طفلها بين يديها كيما أتمكن من رؤيته. لقد كان الطقس بارداً، ولم تكن تتحرك أي شعرة من شعرها، أو أي ثنية من ثنايا ثوبها فيما كانت تحدق إلي بإنعام نظر، وهي ترفع طفلها.

وهكذا غابت عن ناظري، وبهذا المشهد تماماً كنت أراها بعد ذلك في أثناء نومي في المدرسة ـ مشهد صامت بقرب سريري ـ وهي تحدق إليّ بوجهها الحزين ذاته، رافعة طفلها بين يديها.

4

مرّت الأيام رتيبة في المدرسة لم يكن فيها ما يُذكر إلى أن جاء يوم عيد مولدي في آذار، وكم أتذكر ذلك اليوم جيداً، كنت أشتم فيه رائحة الضباب المخيم على ذلك المكان، وأحدق في أرجاء غرفة الدراسة المعتمة، وقد وُضعت فيها شمعة هنا، وأخرى هناك، كيما تضيء ذلك الصباح الضبابي، فيما كانت أنفاس التلامذة تخرج من صدورهم وكأنها الأدخنة.

كان الوقت صباحاً، وكنا تناولنا طعام الفطور، عندما استدعينا إلى داخل غرفة الدراسة من الملعب، ودخل علينا السيد مل، وقال:

«على دايڤد كوپرفيلد أن يتوجّه إلى غرفة الاستقبال».

كنت توقعت أن أتسلم سلة من پيغوتي. وسررت لهذا الاستدعاء وهرعت إلى غرفة الاستقبال، حيث رأيت هناك السيد كريكل، وهو يتناول فطوره، وأمامه عصاه والجريدة، والسيدة كريكل واقفة وفي يدها رسالة مفضوضة. ولكن لم يكن ثمة من سلة. قالت لي السيدة كريكل وهي تقودني إلى إحدى الأرائك وتجلس إلى جانبي:

«أود أن أتحدث إليك بشكل خاص، يا دايڤد كوپرفيلد. إن لدي ما أخبرك به يا ولدي، فأنت لا تزال صغيراً جداً لتفهم كيف أن العالم يتغير كل يوم، وكيف أن الناس يرحلون عنه. ولكن علينا نحن جميعاً أن نعلم ذلك يا دايڤد. ففي حين يكون البعض منا صغاراً، والبعض شيوخاً، يكون البعض منّا قد مرّوا في جميع أطوار حياتهم».

نظرت إليها باهتمام، ثم قالت بعض لحظة من الصمت:

«هل كان الجميع في المنزل بخير عندما عدت إلى هنا في نهاية العطلة؟ هل كانوا جميعهم بخير؟» وبعد فترة من التردد عادت تقول «وهل كانت أمك بخير؟».

وجرت فيّ رعشة دون أن أعرف سببها بوضوح، ولم أقم بأي محاولة للإجابة فيما لا أزال أحدق إليها باهتمام. قالت:

«آسفة أن أعلمك بأني قد سمعت هذا الصباح بأن أمك مريضة جداً!».

وخيمت سحابة من الضباب بين السيدة كريكل وبيني، وبدا شكلها وهو يتحرك وسط هذه السحابة لفترة من الوقت. وأحسست بدموع محرقة تنحدر على خديّ، ثم تتوقف، ثم تنحدر. وأضافت السيدة كريكل:

«إنها مريضة بشكل خطير جداً».

وعندئذ أدركت كل شيء «لقد ماتت!».

لم يكن هناك من حاجة كي تخبرني هي بذلك. ورحت أنتحب بألم، وأشعر بأني أصبحت يتيماً كلياً في هذا العالم الواسع. وكانت السيدة كريكل لطيفة جداً معي، فتركتني هناك طوال النهار. وكانت تتركني وحيداً بعض الأحيان لأنتحب بمرارة، ثم أخلد إلى النوم، وأصحو لأعود وأنتحب من جديد. وعندما لم يعد في وسعي أن أنتحب أكثر من ذلك، بدأت أفكر. ولكن الضغط ازداد فوق صدري وقتئذ، وتحوّل حزني إلى ألم كئيب لم يكن ثمة من راحة لي منه.

غادرت مؤسسة سالم في ساعة مبكرة من بعد ظهر اليوم التالي، وكنت فكرت بأني أغادر هذه المؤسسة للمرة الأخيرة، دون أن أعود إليها أبداً. وظللنا نسير في سفرنا بتؤدة طوال الليل، ولم نبلغ يارماوث قبل الساعة التاسعة أو العاشرة من صباح اليوم التالي. ورحت أبحث عن السيد باركيس، لكنه لم يكن موجوداً، وعوضاً عنه رأيت رجلاً كبيراً في السن، بديناً، قصير القامة مفتولها، بهي الطلعة، يرتدي ثياباً سوداء، وجوربين أسودين، وفوق ركبتي سرواله كانت ثمة حزم من الأشرطة الصدئة، أما قبعته فقد كانت ذات حافة عريضة، وترتفع حتى نافذة العربة. قال لي:

«أنت السيد كوپرفيلد؟».

«أجل يا سيدي!».

وعاد يقول وهو يفتح باب العربة «هل تأتي معي أيها السيد، من فضلك؟».

مددت له يدي وأنا أتساءل من عساه أن يكون هذا الرجل، وسرنا إلى محل في شارع ضيق كان مكتوباً عليه «محل أومر وشركائه لبيع الأجواخ والخردة، والخياطة وتجهيز الجنازات».

قال لي السيد أومر «هل تود أن تدخل إلى المحل يا سيد كوپرفيلد؟».

وتقدمت السيد أومر نزولاً عند رغبته. وبعد أن أراني رزمة من القماش، قال عنها إنها جيدة، وتناسبني تماماً لتكون ثياب حداد على والدتي، راح يأخذ لي قياسي ويدونه في الدفتر. وبعد أن تفحصني لبضع دقائق قال لي «لقد تعرفت بك منذ وقت طويل يا صديقي الفتى».

«حقاً يا سيدي؟».

فقال «أجل، لقد كنت أعرفك طوال حياتك. وربما أمكنني القول إني قد عرفتك قبل أن تولد، إذ إني كنت أعرف والدك من قبلك».

وسألته مستوضحاً «هل تعرف كيف هي حال أخي الصغير يا سيدي؟».

فهز السيد أومر رأسه وقال «إنه يرقد بين ذراعي أمه!».

«آه يا له من طفل صغير مسكين! هل هو ميت؟».

أجاب «أجل إنه ميت. ولكن لا تجزع للأمر بأكثر ما في طاقتك».

وعندما بلغنا المنزل، ارتميت بين ذراعي پيغوتي قبل أن أصل إلى الباب ودخلنا معاً.

عندما وصلت إلى غرفة الاستقبال لم يولني السيد ماردستون أي اهتمام، فقد كان يجلس بقرب النار، ينتحب بصمت، ويغرق في بحر التأمل وهو في مقعده. أما الآنسة ماردستون، التي كانت تجلس إلى طاولة الكتابة المغطاة بالرسائل والأوراق، ويبدو عليها أنها منهمكة جدّاً، فقد قدمت إلي أناملها الباردة، وسألتني بهمس متحجّر عما إذا كان قد أُخذ لي قياس من أجل ثوب الحداد. فقلت: «أجل».

وقالت الآنسة ماردستون «وهل جلبت معك قمصانك؟».

«أجل يا سيدتي، لقد جلبت معي كل ثيابي!».

وكان هذا كل ما قدمه إلي حزمها من تعزية.

ولو أن الجنازة كانت يوم أمس بالذات لما كان في وسعي أن أتذكرها بشكل أفضل منه الآن. كان يخيم علينا سكون جليل، جئنا به معنا من المنزل، مع تلك التي كانت تستريح الآن تحت التراب. وفيما كنا نقف مكشوفي الرؤوس، كنت أسمع صوت الكاهن وكأنه صوت ناءٍ في الهواء الطلق، ومع ذلك واضح وجلي «إن الرب يقول: أنا البعث والحياة!» وبعد ذلك أسمع أصوات النحيب. وكنت، وأنا أقف وحيداً بين الحاضرين، أرى تلك الخادمة الطيبة الوفية، التي أكن لها أكبر حب بين جميع أولئك الناس الموجودين على وجه البسيطة، والتي لأجلها أجد قلبي الطفل متأكداً من أن الله سيقول له في يوم من الأيام «لقد أحسنت!».

وانتهى الدفن، وأهيل التراب في الحفرة، وقفلنا عائدين. وكان يطلع علينا منزلنا جميلاً جداً، دون أن يتبدل فيه شيء، وكان يرتبط في مخيلتي بالفكرة الفتية لمن قد مضى، بحيث أن جميع أحزاني لم تكن تعتبر شيئاً أمام تلك الأحزان التي كانت تثيرها فيّ تلك الذكرى.

كنت أعلم أن بيغوتي ستأتي إلى غرفتي. وها هي قد اتخذت مجلسها بالقرب مني فوق سريري الصغير، وراحت، وقد أخذت يدي بين يديها ترفعها إلى شفتيها حيناً وأحياناً أخرى تربت عليها كما لو أنها كانت تهدهد أخي الصغير، تقص علي بطريقتها الخاصة كل ما كان عليها أن تقوله لي لعلاقته بما قد حدث «لم تكن قط على ما يرام، وذلك منذ وقت طويل. لقد كانت مشوشة التفكير، تعيسة. وعندما ولد طفلها ظننت في البدء أنها ستتحسن قليلاً، إلاّ أنها غدت أكثر نحولاً، وكانت تذوي كل يوم، وفي المرة الأخيرة التي رأيتها فيها على حالتها الطبيعية المعهودة كانت في تلك الليلة التي جئت فيها أنت إلى البيت يا عزيزي. وفي يوم رحيلك قالت لي «لن أرى حبيبي أبداً بعد الآن. إن شيئاً ما يوحي إليّ بذلك، وأنا أعرف أنه يوحي إليّ بالحقيقة!».

«وفي الليلة الأخيرة، عند المساء، قبّلتني وقالت لي «إذا مات طفلي أيضاً يا بيغوتي، فإني أرجوك أن تجعليهم يضعونه بين ذراعي، وأن يدفنونا معاً (وقد كان لها ذلك، لأن المسكين مات بعدها بيوم واحد) واجعلي

ولدي الحبيب يصحبنا إلى المقبرة، وقولي له، يا عزيزتي پيغوتي، إنّ أمه عندما كانت تضطجع هنا قد باركته، ليس مرة واحدة وإنما ألف مرة». ثم قالت لي بعد ذلك «قربيني منك» وذلك لأنها كانت ضعيفة جداً، «وضعي يدك الطيبة تحت رقبتي، وأديريني نحوك، لأن وجهك الطيب يتلاشى ويبتعد عني، وأنا أود أن يكون قريباً مني». وامتثلت لطلبها وكان لها ما تود. ولكن، آه يا دايڤي! لقد حان الوقت الذي أضحت فيه كلماتي إليك عند الرحيل حقيقة، وذلك عندما قلت لك بأنه سيأتي الوقت الذي تكون فيه سعيدة، سعيدة لأن تضع رأسها فوق ذراعي پيغوتي الحمقاء. وماتت كطفل يغط في النوم».

هكذا انتهت رواية پيغوتي. ومنذ تلك اللحظة، التي اطلعت فيها على موت والدتي، وجدت أن الفكرة المكونة عنها وعن أحوالها في المدة الأخيرة قد اضمحلت واختفت من ذاكرتي. وبدأت منذ تلك الليلة أتذكرها على أنها أمي الفتية التي في انطباعاتي المبكرة، والتي اعتادت أن تلف خصلات شعرها اللامع حول أصابعها، وترقص معي في أوقات الغسق في غرفة الجلوس. وقد أكون غريباً في تصوّري هذا، ولكنه كان الحقيقة الواضحة، إذ إنها في موتها حلّقت عائدة إلى أيام شبابها الهادئة، الصافية، ومحت بذلك كل ما تبقى من فترات حياتها.

قلت لپيغوتي بعد تفكير بصوت هامس، في إحدى الأمسيات، فيما كنت أدفئ يديّ على نار المطبخ «پيغوتي، إن السيد ماردستون لم يعد يحبني بقدر ما كان يحبني في الماضي. وهو لم يحبني كثيراً قط. على أنه يود الآن لو أنه لا يراني أبداً إذا ما أمكنه ذلك».

ولم تنبس پيغوتي ببنت شفة لفترة من الوقت، ومضيت أُدفئ يديَّ وأنا صامت مثلها. وأخيراً قالت «دايڤي!».

«نعم يا پيغوتي؟».

«لقد حاولت، يا عزيزي، بجميع الطرق، التي استطعت التفكير بها، بأن أحصل على خدمة مناسبة هنا في بلندرستون؛ إلاّ أني لم أجد أي شيء يناسبني يا حبيبي!».

وسألتها باهتمام كبير «ولماذا تودين أن تفعلي ذلك يا پيغوتي؟ هل ترغبين في أن تمضي وتبحثي عن حظك؟».

فأجابت پيغوتي «أتوقع أن أُرغم على الذهاب إلى يارماوث، والعيش هناك. وإني لذاهبة إلى بيت شقيقي، يا دايڤي، حيث أقضي أولاً أسبوعين في شكل زيارة، حتى يتسنى لي الوقت للنظر في حالي، وأعود إلى ما كنت عليه من قبل. والآن فإني أفكر، بما أنهما لا يريدانك هنا في الوقت الحاضر، فلربما يسمحان لك بالمجيء معي».

وسُمح لي وأُعطيت الإذن، ولم يكن ثمة تراجع عنه، لأن ما إن انتهى الشهر الذي كانت الآنسة ماردستون قد أعطته لپيغوتي، كإنذار لتترك العمل، حتى كنت أنا وپيغوتي على أهبة الاستعداد للرحيل. وطبيعي أن تكون معنويات پيغوتي محطمة جداً، لأنها كانت تقوم بهجر منزل كان يؤويها لسنين طويلة، وحيث أن الشخصين الودودين المرتبطين بحياتها - أنا وأمي - كنا قد عشنا. وكانت في ذلك اليوم، أيضاً، تخطر في المقبرة في ساعة مبكرة جداً من الصباح؛ ثم صعدت إلى العربة وجلست فيها ومنديلها فوق عينيها.

«إنه ليوم جميل يا سيد باركيس» قلت له كإجراء بدافع الملاطفة.

«ليس سيئاً!» قال السيد باركيس الذي كان، على وجه العموم، يكيف كلامه، ونادراً ما كان يحكم من نفسه.

وقلت أنا مبدياً ملاحظتي من أجل إرضائه «إن پيغوتي مرتاحة تماماً الآن، يا سيد باركيس».

فقال مستوضحاً «هل هي كذلك حقاً؟».

وبعد أن فكّر بالموضوع، نظر السيد باركيس إليها بشيء من الفطنة وقال «هل أنت مرتاحة جداً؟».

فضحكت پيغوتي وردت بالإيجاب.

«ولكن هل أنت مرتاحة حقيقة؟» عاد السيد باركيس يقول وهو يزحف مقترباً منها على المقعد، ويلكزها بمرفقه قليلاً. «هل أنت جد مرتاحة حقيقة؟ حقاً؟ أه؟» ومع كل سؤال من أسئلته هذه كان السيد

باركيس يقترب منها أكثر فأكثر، وقد لكزها للمرة الثانية، بحيث إننا في النهاية أصبحنا جميعنا متجمعين في زاوية العربة الشمالية، وشعرت آنئذ بالضغط إلى درجة أني بالكاد كنت أستطيع التنفّس.

وإذ لفتت پيغوتي انتباهه إلى ضيقي، فقد أفسح لي مكاناً أوسع في الحال وابتعد قليلاً بشكل تدريجي، لكنني لم أستطع إلاّ الملاحظة بأنه قد بدا عليه الاعتقاد بأنه قد توصل إلى عذر مدهش يخوله حشر نفسه بطريقة مقبولة دون أن يكلف نفسه عناء التعب في خلق جو مناسب للحديث. وقد كتم ضحكه حول هذا الموضوع بشكل مفضوح. وبعد قليل عاد يلتفت نحو پيغوتي من جديد ويكرر «هل أنت مرتاحة تماماً؟»، والتصق بنا كالسابق، إلى أن أوشكت أنفاسي على الخروج من جسمي. ونهضت أخيراً عندما رأيته يزداد اقتراباً، ووقفت على درجة العربة، متظاهراً بأني أراقب المكان، وذلك بعد أن كنت قد راقبته جيداً.

كان السيد پيغوتي وهام ينتظراننا في المكان المعهود، وقد استقبلاني مع پيغوتي بأسلوب ملؤه الود والمحبة، وألقيا التحية على السيد باركيس الذي خيل إليّ أنه قد بدا في مظهر ساخر بقبعته التي ترقد فوق مؤخرة رأسه.

وسألتني پيغوتي فيما كنا نسير معاً «ماذا تقول، يا عزيزي دايڤي، لو أني فكرت بالزواج؟ قل لي ماذا سيكون موقفك يا حبيبي؟».

أتفكرين بالزواج من السيد باركيس يا پيغوتي؟».

أجابت «نعم!».

«أظن أنها ستكون فكرة جد رائعة! لأن سيكون لديك يا پيغوتي الجواد والعربة بحيث يغدو في وسعك أن تأتي وتزورني دائماً، وستأتين دون أن يكون ثمة عائق يمنعك، وأتأكد أنا من مجيئك».

فقالت پيغوتي «هذا ما فكرت به منذ شهر، أجل يا عزيزي، وأعتقد بأني سأكون أكثر حرية. وباركيس رجل طيب، مسكين، وإن هو حاول أن يقوم بواجبه معي، فأعتقد بأنها ستكون هفوتي إن لم أكن... إن لم أكن مرتاحة تماماً» وضحكت ببراءة.

أفرحتنا هذه العبارة المقتبسة عن السيد باركيس كثيراً، بحيث رحنا نضحك ونضحك، وقد كنا في حالة من السرور والغبطة عندما أطلّ علينا كوخ السيد پيغوتي. كان يبدو كما هو تماماً، سوى أنه ربما كان قد تقلص قليلاً أمام عينيّ. أما كل شيء في داخله فكان لا يزال على حاله، حتى حشيشة البحر التي في الكوب الأزرق في غرفتي. على أن إميلي الصغيرة لم تكن موجودة، فسألت السيد پيغوتي عنها، فأجابني وهو يحدق إلى ساعة الحائط «ستكون في المنزل بعد عشرين دقيقة، أو نصف ساعة، جميعنا هنا نشعر بغيابها!».

كان المكان بمجمله يبعث على البهجة والسرور كما اعتدنا تماماً، ومع ذلك لم يكن يؤثر فيَّ بتلك الطريقة ذاتها، ولذلك شعرت بخيبة الأمل، وربما كان هذا لأن إميلي الصغيرة كانت غائبة عن المنزل، وكنت عرفت الطريق التي ستعود منها، وفي الحال ألفيت نفسي أتمشى في تلك الطريق لملاقاتها.

ولم يطل بي الوقت حتى ظهر لي على بعد مسافة شكل ما، سرعان ما تبيّنت أنه شكل إميلي التي ما برحت مخلوقة صغيرة بقامتها، في حين أنها كبرت سناً. ولكن عندما اقتربت ورأيت عينيها الزرقاوين تبدوان أكثر زرقة، ووجهها ذا الغمازتين يبدو أكثر بهجة، وجسمها كله يظهر بمظهر أجمل وأبهى، انتابني شعور غريب جعلني أتظاهر بأني لا أعرفها، وأنني أمر كما لو أني كنت أنظر إلى شيء ما جد بعيد.

ولم تبالِ إميلي بشيء، فقد رأتني جيداً، ولكنها بدلاً من أن تستدير وتستدعيني راحت تركض في طريقها وهي تضحك، الأمر الذي أرغمني على أن أركض في إثرها؛ وكانت تركض بسرعة فائقة بحيث أننا كنا قد اقتربنا من الكوخ كثيراً قبل أن أمسك بها.

فقالت إميلي «آه، هذا أنت، أليس كذلك».

فأجبتها «آه، أنت تعرفين من أنا إذاً!».

قالت «وأنت، ألا تعرف من أنا؟» وكنت على وشك أن أقبّلها، إلاّ أنها سترت شفتيها الفرحتين بيديها؛ وقالت إنها لم تعد طفلة الآن. وركضت

إلى المنزل وهي تضحك أكثر من ضحكها الأول.

بدا عليها أنها كانت تفرح في مكايدتي، وهو الشيء الذي كان قد تبدّل فيها، وقد أدهشني كثيراً. ولكنها كانت ودودة جداً، وطبيعتها طيبة، وكان لديها شعور بالفرح بأن تكون خبيثة وخجولة في آن معاً، بحيث إنها سحرتني أكثر ممّا سحرتني في الماضي.

وكانت رقيقة القلب كذلك؛ لأنها عندما جلسنا حول النار، بعد احتسائنا الشاي، وبينا كان يصدر تلميح من السيد پيغوتي، وهو يدخن غليونه، حول الخسارة التي كنت أتحمل عذابها، كانت الدموع تترقرق في عينيها، أو كانت تنظر إلي بعطف عبر الطاولة، بحيث كنت أشعر بالامتنان لها.

قال لي السيد پيغوتي «وكيف حال صديقك يا سيدي؟».

أجبته «ستيرفورث؟».

فهتف السيد پيغوتي وهو يلتفت نحو هام «هذا هو الاسم».

لقد قلت أنت إن اسمه «رادرفورد» أجاب هام وهو يضحك.

فردد السيد پيغوتي «وقد جئت أنت على ذكر رادر. أليس كذلك؟ على العموم كيف حاله يا سيدي؟».

«لقد كان في تمام الصحة والعافية عندما جئت أنا يا سيد پيغوتي!».

وقال السيد پيغوتي وهو ينتزع غليونه من فمه «إنه صديق بالمعنى الصحيح. رباه أبقِ قلبي حياً كيما أنظر إليه!».

فقلت وقلبي مفعم دفئاً بمدحه «إنه جد ظريف، أليس كذلك؟ إنه أفضل جدجد رأيته في حياتك!».

وهز السيد پيغوتي رأسه كما لو أنه يقول «طبعاً! طبعاً».

واستطردت «إنه متحدّث لبق، إذ إنه يستطيع أن يحوز على رضى أي شخص. ولا أدري ماذا ستقول عنه لو سمعته يغني يا سيد پيغوتي».

وهز السيد پيغوتي رأسه للمرة الثانية كما لو أنه يقول «ليس عندي شك في مقدرته».

قلت وأنا مأخوذ بموضوعي عن صديقي: «إنه فتى طيب وكريم،

وعريق المحتد. ومن المستحيل تقريباً أن يمدحه الإنسان بقدر ما هو يستحق. وإني جد متأكد من أنه لن يسعني أن أشعر مطلقاً بالشكر الكافي نحو مروءته التي حماني بها؛ وأنا أصغر وأدنى منه مرتبة في المدرسة».

وكنت أُسرع في حديثي فعلاً عندما استقرت عيناي على وجه إميلي الصغيرة، الذي كان ينحني فوق الطاولة فيما كانت هي تستمع إليّ بانتباه عميق، وأنفاسها مقطوعة، وعيناها تبرقان مثل الجواهر، ولون الدماء يحرق خديها. وقد بدت مصغية مهتمة بشكل غير طبيعي، بحيث توقفت عن الكلام بشيء من الدهشة، وراح الجميع ينظرون إليها في الوقت ذاته، لأنهم، عندما أمسكت أنا عن الحديث، راحوا يتضاحكون ويحدقون إليها.

وقالت بيغوتي «إن إميلي مثلي؛ وتود أن تراه!».

وبدت إميلي مرتبكة أمام تحديقنا إليها، فنكست رأسها وقد كست وجهها حمرة الخجل. وإذ رفعت بصرها إلينا في الحال، عبر خصلاتها المتناثرة، ورأتنا لا نزال نحدق إليها (وإني أكيد من نفسي بأنه كان في وسعي أن أظل أحدق إليها لساعات) فقد انتفضت واقفة وركضت من أمامنا، وظلت بعيدة عنا حتى حان وقت النوم تقريباً.

وفي المساء الأول لوصولنا بالذات، ظهر السيد باركيس في حالة عارمة من الضياع وفي وضع مرتبك، وكانت معه حزمة من البرتقال مربوطة بمنديل، وبما أنه لم يكن أشار إلى هذه الحزمة بشيء، فقد اعتبرنا أنه قد نسيها خلفه مصادفة عندما غادرنا؛ إلى أن عاد هام، بعد أن لحق به كيما يعيدها إليه، وهو يحمل الخبر الصحيح، بأن هذه كانت قد جاءت على اسم بيغوتي.

بعد هذه الواقعة، راح يظهر علينا كل مساء، في الساعة ذاتها تماماً، ومعه دائماً حزمة صغيرة، دون أن يشير إليها بكلمة أبداً، والتي اعتاد، بانتظام، أن يضعها خلف الباب ويتركها هناك.

كانت خطوبة السيد باركيس، كما أذكر، خطوبة من النوع الغريب، إذ

قلما كان يفوه بكلمة، وإنما كان يجلس بقرب النار تقريباً وبالوضع الذي كان يجلس به في عربته، ويشرع في التحديق بإنعام إلى پيغوتي التي تكون جالسة في مواجهته. وكان يبدو عليه أنه يتلذذ بذلك كثيراً، دون أن يشعر بالحاجة إلى الكلام أبداً.

أخيراً، وعندما شارفت فترة زيارتي على الانتهاء، أُشيع بأن پيغوتي وباركيس سيأخذان يوماً من الراحة ويمضيان في نزهة معاً، وبأننا أنا وإميلي الصغيرة سنرافقهما. وفي تلك الليلة، السابقة للرحلة،لم أستطع النوم إلاّ في فترات متقطعة، وذلك لشعوري بالبهجة المسبقة التي سأحصل عليها بمصاحبتي لإميلي يوماً كاملاً.

وفي الصباح الباكر، كنا جميعاً منهمكين باستعداداتنا، ومضينا بعيداً في نزهتنا. وكان أول شيء فعلناه أن توقفنا عند الكنيسة، حيث ربط السيد باركيس عنان جواده إلى عمود درابزون، ودخل مع پيغوتي إلى الكنيسة، في حين تركانا أنا وإميلي وحيدين في العربة.

وانتهزت تلك الفرصة لألف يدي حول وسط إميلي، وأقترح، بما أني كنت على وشك العودة إلى المنزل بسرعة، بأنه ينبغي علينا أن نصمم على أن نكون محبين جداً الواحد للآخر، وسعيدين طوال النهار.

وإذ قبلت إميلي باقتراحي، وسمحت لي بتقبيلها، فقد غدوت متهوراً، وأعلمتها بأني لن أتمكن أبداً من أن أحب واحدة أخرى في حياتي، وبأني على استعداد لأن أسفك دماء كل من تسول له نفسه التودد إليها.

أمضى السيد باركيس وپيغوتي وقتاً طويلاً داخل الكنيسة، إلاّ أنهما خرجا في النهاية، ولمّا ركبا العربة انطلقنا ودخلنا الريف، وفيما كنا نسير في الطريق، استدار السيد باركيس نحوي وقال بغمزة من عينه ـ وعلى فكرة، من الصعب عليّ أن أفكّر أنه كان يستطيع أن يغمز بعينه قبل هذه اللحظة ـ:

«ما هو الاسم الذي كنت سجلته أنا على خيمة العربة؟».

فأجبته «كلارا پيغوتي!».

«وما الاسم الذي يجب أن أسجله الآن لو كانت توجد خيمة هنا؟».

قلت «كلارا بيغوتي من جديد؟».

«كلارا بيغوتي باركيس!» واستدار وانفجر في ضحكة مدوية هزت العربة كلها.

باختصار، لقد تزوجا، ولم يدخلا الكنيسة من أجل غاية أخرى غير الزواج.

ومضينا بالعربة إلى نزل يقوم عند طريق قريبة، حيث كانوا يتوقعون قدومنا هناك، وحيث جُهّزت لنا وجبة غداء عظيمة جداً. وقد أمضينا يومنا برضى وسرور عظيمين. ولو أن بيغوتي كانت قد تزوجت كل يوم، طوال العشر السنوات الأخيرة، لما كانت تشعر بالسعادة والراحة مثل ما كانت تشعر مع باركيس. لكن ذلك كله لم يغير فيها شيئاً، فقد ظلت كما هي تماماً؛ وخرجت للنزهة معي ومع إميلي قبل موعد احتساء الشاي؛ فيما كان السيد باركيس يدخن بغليونه بطريقة فلسفية، ويمتع نفسه، كما أعتقد، بالتأمل في سعادته. وبدا أن زواجه ببيغوتي قد فتح له شهيته؛ لأني أتذكر ذلك بوضوح، إذ بالرغم منه أنه كان قد أكل في وجبة الغداء كمية كبيرة من اللحم والخضر، وأتى على دجاجة أو دجاجتين، فقد وجدته مرغماً على أن يأكل أيضاً اللحم المقدد مع الشاي، وقد أتى على كمية كبيرة منه دون أن يبدو عليه أي تأثير للتخمة.

*

والآن، ها أنا أشعر بأني كمّ مهمل في المنزل، ولا يسعني أن أعود وأنظر إلى تلك المرحلة من حياتي دون أن يتملكني شعور بالحزن والندم.

والشيء الذي كنت أعتقده هو أن أُرسل إلى أدنى مدرسة موجودة، وأن أتعلم شيئاً ما، أي شيء، في أي مكان! ولكن لم يكن مثل هذا الأمل ليبزغ في أفق حياتي قط. لقد كانا يكرهاني، وقد أهملا الاهتمام بي بشكل مشؤوم وجاف.

لم يكن يُساء إليَّ فعليًا، ولم أكن أُضرب، أو أجوع، لكن الخطأ الذي كان يرتكب بحقي لم تكن له تعابير الشفقة، وكان يرتكب بطريقة منتظمة لا رحمة فيها. ويوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، كنت أشعر بأني مهمل بشكل بارد لا حياة فيه. وكنت أتساءل أحياناً، عندما يداهمني التفكير بوضعي، ماذا كانا سيفعلان لو أن مرضاً ما ألمّ بي؟ وأتساءل عما إذا كنت سأبقى طريحاً في غرفتي، وأذبل فيها على طريقتي الوحيدة المعتادة، أو أن أحداً ما سيساعدني على الخروج منها.

وفي يوم من الأيام، كنت خارج المنزل، أسير في إحدى الطرق متهالكاً، ومتفكراً بتلك الطريقة الفاترة التي يجري بها نمط حياتي، عندما صادفت، وأنا أعبر زاوية زقاق بالقرب من منزلنا، السيد ماردستون يسير بصحبة أحد الأشخاص، وقد عرفته وكان السيد كوينيون.

وقد بات السيد كوينيون في منزلنا تلك الليلة؛ وبعد تناولنا طعام الفطور في صباح اليوم التالي، وكنت قد أزحت مقعدي وهممت بمغادرة الغرفة، استدعاني السيد ماردستون، وقال:

«أعتقد بأنك تعلم يا دايفد بأني لست رجلاً غنياً، وعلى كل حال أنت تطّلع على ذلك الآن. وقد أصبت أنت شيئاً من العلم حتى اليوم، والعلم يكلف المال. وحتى لو لم يكن العلم باهظ التكاليف، وفي وسعي أنا أن أقدمه إليك، فإنّ من رأيي أنه لن يكون من المفيد بالنسبة إليك أن تبقى في المدرسة، فالشيء الذي ينتظرك الآن هو الصراع مع العالم. وكلما بدأت بهذا الصراع في وقت مبكر كلما كان هذا من الأفضل لك. لقد سمعت بـ«غرفة المحاسبة» التي أتينا على ذكرها أحياناً».

فكررت «غرفة المحاسبة يا سيدي؟».

فأجاب «غرفة المحاسبة لمؤسسة ماردستون وغرينباي، في مخزن الخمر. والسيد كوينيون هو الذي يدير هذه المؤسسة!».

ونظرت باحترام إلى ذلك الرجل، الذي كان يقف وينظر عبر النافذة.

«وبما أن هذه المؤسسة تتيح مجالاً لتوظيف بعض الفتيان، فالسيد

كوينيون لا يرى أي سبب يمنع من أن لا تتيح مجالاً لوظيفة لك، بالشروط ذاتها، وهذه الشروط هي أنك ستكسب ما فيه الكفاية لإمدادك بمصاريف الأكل والشرب، ومصروفك الخاص. وأما سكنك، الذي أمّنته لك، فسأدفعه أنا وكذلك بدل غسيل ثيابك».

فقالت شقيقته «وبدل الغسيل سيتوقف دفعه من ناحيتنا، حسب تقديري!».

وعاد السيد ماردستون يقول «وسنهتم بملابسك كذلك، بما أنك لن تكون قادراً، لفترة، على أن تبتاعها لنفسك. إذاً، ستمضي الآن إلى لندن يا دايفد، مع السيد كوينيون، كيما تبدأ صراعك مع العالم على نفقتك الخاصة».

وعقبت شقيقته «باختصار، لقد جُهّزت للأمر، وستكون سعيداً في القيام بواجبك».

وها أنذا في ساعة مبكرة من الصباح، أجلس، وأمامي كل حاجياتي الزهيدة داخل صندوق صغير، على كرسي العربة التي كانت تقل السيد كوينيون إلى حافلة لندن في يارماوث! وأنظر بحزن كيف كان منزلنا والكنيسة يتلاشيان تدريجاً على بعد المسافة، وكيف كان القبر، تحت الأشجار، يضمحل ويختفي عن الأنظار وسط أشياء تحجبه، وكيف كانت الأشياء الحلزونية المرتفعة في أرض ملعبي القديم تختفي نهائياً، والسماء تبدو فارغة.

5

يقع مخزن ماردستون وغرينباي وسط مساكن أناس طيبين، في بلاكفريارز؛ وكان البناء الأخير في نهاية شارع ضيق، وقد غُطّيت ألوان غرفه بأوساخ ودخان قرن مضى، أما قذارة المكان برمته وعفونته فقد كانتا شيئين لا يسعني أن أنساهما أبداً.

وكان أحد فروع مخزن ماردستون وغرينباي المهمة المموّل الوحيد بالخمر والمشروبات الروحية للسفن التي تمخر عباب البحر إلى الغرب والشرق الهنديين. وأدركت أن ثمة عدداً وفيراً من هذه الزجاجات الفارغة كانت متراكمة نتيجة مثل هذه الرحلات، وأن بعض الرجال والفتيان كانوا يعملون على فحص هذه الزجاجات أمام النور، كيما يرموا بتلك التي يكون قد ألمّ بها خدش أو عيب، ويغسلون الأخرى الصالحة لإعادة تعبئتها. وعندما كان ينتهي العمل من الزجاجات الفارغة، كان يبدأ عمل آخر هو لصق بطاقات العنوان على الزجاجات المملوءة، أو إيجاد قطع الفلين المناسبة لأفواهها، أو دمغ هذه القطع من الفلين بالأختام، أو تعبئة الزجاجات الممتلئة في صناديقها. كل هذا العمل كان من ضمن مهامي، وقد كنت أنا واحداً من بين ثلاثة أو أربعة فتيان كنا نقوم بهذا العمل.

وليس هناك من كلمات يمكن أن تعبر عن مدى ألمي النفسي المكبوت عندما كنت أغوص في مراحل الصداقة مع هؤلاء الفتيان، الذين كانوا يشاركوني أعباء العمل، وأقارن بين هؤلاء الأصدقاء الجدد وبين أولئك الذين كانوا لي في أسعد أيام طفولتي، بغض النظر عن ستيرفورث، وترادلس، وبقية أولئك الفتيان. وكنت أشعر بأن آمالي بأن أكبر وأغدو رجلاً متعلماً ومرموقاً قد دُفنت كلياً في صدري.

أما الذكرى العميقة للشعور الذي كان يتملكني لكوني كنت أعيش دون أمل في تلك الفترة، وللخجل الذي كنت أستشعره من حالي

المزرية، وللبؤس الذي كان يعيش فيه قلبي الفتي لإيماني بأني يوماً بعد يوم سأفقد كل ما كنت قد تعلمته وفرحت به شيئاً فشيئاً دون أن أستطيع استرجاعه أبداً، هذه الذكرى كان من المستحيل علي أن أكتب عنها شيئاً.

*

كانت ساعة «غرفة المحاسبة» تشير إلى تمام الثانية عشر ظهراً، وكان الجميع يستعدون لتناول الغداء عندما ناداني السيد كوينيون بأن نقر بأصبعه على زجاج نافذة الغرفة وأشار إلي بأن أدخل. وحين دخلت وجدت هناك رجلاً بديناً، في منتصف العمر، يرتدي معطفاً بنيّاً وسروالاً وحذاء أسودين، ولا يبدو أن على رأسه الكبير اللامع شعراً أكثر ممّا يوجد فوق بيضة؛ وكان وجهه عريضاً، وقد صوّبه إليَّ حالما دخلت. لقد كانت ثيابه بمجملها رثة، وبيده عصا مفرطحة لها شرابتان عفنتان، بالإضافة إلى نظارة مضحكة معلقة خارج معطفه، وقد اكتشفت فيما بعد أنها كانت مجرد زخرفة لأنه قلما كان ينظر عبرها، وإن هو فعل فلم يكن في وسعه أن يرى شيئاً. قال له السيد كوينيون وهو يشير إلي:

«هذا هو الفتى!».

«هذا هو كوپرفيلد! آمل أن تكون في صحة جيدة يا سيدي؟» قال الغريب كلماته بشيء من اللطف، وكأنه يقوم بأمر محتشم، بحيث أثر فيَّ كثيراً.

وأجبت بأني في تمام الصحة، وآمل أن يكون هو كذلك.

فقال «إني في تمام الصحة. شكراً لله. لقد تسلمت رسالة من السيد ماردستون يذكر لي فيها بأنه يود مني أن أستقبلك في غرفة خلفية من منزلي، وهي خالية الآن، وستكون... بالاختصار.. بالاختصار..» وابتسم ابتسامة ثقة «ستكون كغرفة نوم...والمبتدئ الجديد الذي لي الشرف الآن بأن...» وهز الغريب يده، وأسند ذقنه فوق ياقة قميصه.

وقال لي السيد كوينيون «إن هذا الرجل هو السيد ميكاوبر».

وصادق السيد ميكاوبر على صحة هذا الاسم، ثم أضاف السيد

كوينيون «والسيد ماردستون يعرف السيد ميكاوبر، وهو يقوم لنا ببعض الأعمال لقاء أجر، وذلك عندما يكون في وسعه ذلك. وقد كتب إليه السيد ماردستون بخصوص سكنك، وسيستقبلك على اعتبارك ساكناً جديداً».

وقال السيد ميكاوبر «إن عنواني هو: وندسور ترّاس، سيتي رود. وأنا، بالاختصار...» عاد السيد ميكاوبر يقول بشيء من اللطف، وبابتسامة أخرى من الثقة «أنا أسكن هناك!».

وانحنيت له احتراماً، وقال:

«وخوفاً من أن تضل طريقك، سأكون سعيداً بأن أعود هذا المساء لأرشدك إلى أقرب طريق للوصول إلى منزلي».

شكرته من صميم قلبي على لطفه ومحبته وتجشّمه كل هذا العناء. ثم إنه اعتمر قبعته واندفع إلى الخارج وعصاه تحت إبطه. كان مستقيماً في مشيته، وقد راح يدمدم بأحد الألحان.

وفي الوقت المحدد عند المساء عاد السيد ميكاوبر إلى الظهور، فشرعت أنا أغسل يديّ ووجهي كيما أبدي احتراماً كبيراً للطفه. ثم سرنا معاً إلى منزلنا، كما أعتقد بأنه ينبغي علي أن أدعوه الآن. وفيما كنا نسير، كان السيد ميكاوبر ينهال عليّ بذكر أسماء الشوارع، وبوصف أشكال المنازل عند الزوايا، بحيث يمكن لي أن أجد طريقي بسهولة في العودة عند الصباح.

وصلنا منزله في وندسور ترّاس، ولاحظت أنه كان عَفِناً مثل صاحبه، وكان كصاحبه يظهر كل ما يستطيع أن يظهره أيضاً. وقدمني فور دخولنا إلى السيدة ميكاوبر، الشاحبة التي لم تكن فتية مطلقاً، وقد كانت تجلس في غرفة الاستقبال (مع العلم أن الطابق الأول لم يكن مفروشاً أبداً، وكانت ستائر النوافذ تظل مغلقة كيما تخدع الجيران!) وكان معهما طفل تحمله على صدرها، وقد كان هذا الطفل واحد التوأم. ويمكنني أن أبدي هنا ملاحظتي بأني نادراً، وبالتالي بالكاد، كنت أرى، طوال معرفتي بهذه

العائلة، الطفلين التوأم بعيدين عن صدر السيدة ميكاوبر في آن معاً.

وكان لهما ولدان آخران، أحدهما صبي عمره حوالى الأربع سنوات والثاني فتاة وعمرها حوالى الثلاث سنوات. هذان بالإضافة إلى امرأة فتية سوداء، تتحكم بها عادة الشخير، كانت تعمل خادمة للعائلة، كانوا يكملون أفراد الأسرة. وقد كانت غرفتي في أعلى البناء، من الناحية الخلفية.

قالت السيدة ميكاوبر عندما صعدت ومعها التوأم والآخرون، كيما تريني المنزل، وقد جلست حتى تتمكن من استرداد أنفاسها «لم يسبق لي أن فكرت قط، قبل أن أتزوج فيما كنت أعيش مع أبي وأمي، بأني سأجد يوماً أنه من الضرورة أن ينزل عندنا أحد المستأجرين، إلاّ أن السيد ميكاوبر يواجه الآن صعوبات مادية، وجميع المشاعر والتصورات الخاصة ينبغي أن تفسح في المجال لمثل هذا الوضع، وإذا لم يمنح الدائنون الوقت الكافي للسيد ميكاوبر فإنهم سوف يتحملون النتائج كلها؛ وكلما أسرعوا في إصدار الحكم عليه كلما كانت النتيجة أفضل، لأن الدم لا يمكن أن يستخرج من الحجر، كما وأنه لا يمكن كذلك أن يحصل من السيد ميكاوبر أي شيء على الحساب، هذا بصرف النظر عن مصاريف المحكمة».

مسكينة السيدة ميكاوبر. لقد قالت إنها حاولت قصارى جهدها من أجل إسعاف زوجها؛ وأنا ليس عندي شك بأنها قامت بذلك فعلاً، إذ إن لوحة نحاسية كانت تقوم فوق منتصف باب المنزل المؤدي إلى الشارع وقد كتب عليها «مؤسسة السيدة ميكاوبر الداخلية للبنات»، غير أني لم أجد أي فتاة في تلك المدرسة قط، ولم أر أي فتاة جاءت إلى مؤسستها أو قررت أن تجيء مطلقاً. كما وأني لم ألحظ أقل استعداد جرى في وقت من الأوقات لاستقبال تلميذة واحدة.

الزائرون الوحيدون الذين كنت أراهم أو أسمعهم، دائماً، كانوا أولئك الدائنين؛ وقد اعتادوا أن يجيئوا في كل ساعة، والبعض منهم كانوا قساة

وشرسين تماماً. وفي هذه الأوقات كان السيد ميكاوبر يبدو شديد التأثر حزيناً مغموماً؛ إلى درجة أنه، وقد انتبهت إلى ذلك مرة على إثر صرخة أطلقتها زوجته؛ كان يقوم بحركات وإشارات نحو نفسه بموسى للحلاقة. لكنه بعد ذلك، بنصف ساعة، كان يقوم بصقل حذائه بجهد كبير، ثم يخرج من المنزل وهو يدمدم لحناً، بشيء من اللطف أكثر من المعتاد. وقد كانت السيدة ميكاوبر كالمطاط تماماً، فقد كنت أعرف أنها اعتادت أن تكون نهباً لنوبات إغماء في الساعة الثالثة، بسبب ضرائب الملكية، وتعود في الساعة الرابعة لتأكل شرحات من اللحم المقدد، وتشرب الخمر الدافئ؛ هذه الوجبة التي كانت تدفع ثمنها مقابل ملعقتين تكونان قد ذهبتا إلى محل المرابي.

كنت أزجي أوقات فراغي في هذا المنزل، ومع هذه العائلة؛ وأبتاع بنفسي طعام فطوري المكوّن من رغيف بشلن واحد، ومن حليب بشلن آخر. كما كنت أحتفظ برغيف آخر وبعض الجبنة بشلن لوجبة العشاء، عندما أعود ليلاً.

هذا الأمر كان يحدث ثقباً كبيراً في الشلنات الستة أو السبعة التي كنت أتقاضاها، وكنت أمضي إلى المخزن وأبقى فيه طوال النهار، وكان علي أن أكفي نفسي بهذا المبلغ من المال طوال أيام الأسبوع.

كنت أعلم أني أعمل من الصبح حتى المساء مع رجال وفتيان عاديين، وكنت أعلم كذلك بأني كنت أهيم في الشوارع وأنا جائع، وحيد. كنت أعرف كل هذا، وكان من السهل علي أن أكون، لولا بعض العناية الإلّهية، إمّا لصاً وإمّا متشرداً. وكم كنت أتألم، فهذه الأمور، كما سبق وقلت، لم يكن في وسعي أبداً أن أسردها هنا.

وفي النهاية تفاقمت مصاعب السيد ميكاوبر المالية، وقد أضافت إلى أحزاني حزناً جديداً، بحيث كنت أسير وأنا مثقل الكاهل بديون السيد ميكاوبر. لقد توطدت صداقة غريبة بيني وبين هذه العائلة، بالرغم من اختلاف أعمارنا. وقد أسرت إليّ السيدة ميكاوبر ذات مساء، بعد أن

أولتني كل ثقتها: «إني أعاملك كصديق لنا، ولذلك لا أجدني مترددة في أن أخبرك بأن أوضاع السيد ميكاوبر جد خطيرة، إذ لا يوجد في منزلنا سوى قطعة من الجبن». وقد وجدتني أتألم شديد الألم أمام هذا الاعتراف.

وأُوقف السيد ميكاوبر في ساعة مبكرة من أحد الأصباح واقتيد إلى سجن المحكمة الملكية في باوروف. وعند خروجه من المنزل أسرّ إلي بأن غضب الرب في ذلك اليوم قد نزل عليه. وخيل إليّ فعلاً أن قلبه كان مكلوماً مثل قلبي تماماً، لكني سمعت فيما بعد بأنه كان يمارس قبل ظهر أحد الأيام لعبة السكيتل(*)، التي تحتاج إلى نشاط وحيوية.

وفي يوم الأحد الأول، بعد سوقه إلى السجن، كان عليّ أن أمضي لأقابله، وأتناول وجبة الغداء معه؛ وكان السيد ميكاوبر ينتظرني عند البوابة وقد صعدنا معاً إلى غرفته، وبكينا هناك طويلاً. وقد توسل إلي بوقار أن آخذ حذري وأن أتعلم من سوء حظه؛ وأن ألاحظ بأنه إذا كان المرء يكسب عشرين جنيهاً في السنة، وصرف منها تسعة عشر، وتسعة عشر شلناً وستة بنسات فسيكون سعيداً؛ ولكنه إذا صرف العشرين فسيكون تعيساً في يوم من الأيام. وبعد أن اقترض مني شلناً واحداً للبواب، أعطاني وصلاً به محوّلاً على السيدة ميكاوبر؛ وأبعد منديله، وشرع في مرحه.

وعدت إلى المنزل لأطيب خاطر السيدة ميكاوبر بأخبار زيارتي له، لكني لم أكن أعرف كيف بيعت مفروشات هذا البيت. ومهما يكن من أمر فقد بيعت، وأخذت كلها ما عدا الأسرّة. وقد عقدت السيدة ميكاوبر النية أخيراً على أن تدخل السجن إلى جانب زوجها بما أنه يشغل غرفة فيه. وهكذا أُرسل السريران إلى السجن، ما عدا سريري، لأن غرفة صغيرة على مقربة السجن قد حجزت لي، وكانت تناسبني تماماً، لأنني

(*) Skittle أو ninepin: القناني التسع، وهي لعبة تُدحرج فيها الكرة لتصيب تسع قطع خشبية مصنوعة على شكل قناني. وهي اللعبة المعروفة اليوم بـ«بولينغ».

كنت قد ألفت عائلة ميكاوبر كثيراً، وتقاسمنا مشاكلنا، وغدا من الصعب علينا أن نفترق واحدنا عن الآخر.

في خلال هذه المدة كنت أعمل في مؤسسة ماردستون وغرينباي، وأعيش حياتي التعيسة المكبوتة ذاتها. كنت أعيشها بالطريقة المتكبرة المنفردة.

وفي الأمسيات اعتدت على أن أقصد السجن وأسير مع السيد ميكاوبر في الرواق جيئة وذهاباً؛ أو ألعب الورق مع السيدة ميكاوبر.

بعد أيام أعلمتني السيدة ميكاوبر أن عائلتها قد صممت على أن السيد ميكاوبر يجب أن يقدم طلباً لإخلاء سبيله، وذلك بناء على قانون المفلسين الذي يخوله حق الخروج من السجن في غضون ستة أسابيع تقريباً، كما كانت تتوقع.

وقال السيد ميكاوبر، الذي كان حاضراً «وعندئذ، لن يكون عندي أدنى شك بأني سأكون، رحماك أيتها السماء، في الطليعة في هذا العالم، وبأن أنهج في حياتي نهجاً جديداً تماماً، إذا... باختصار، إذا ما حدث شيء ما، ورفع من مستوى حياتي».

*

وفي الوقت المحدد أُطلق سراح السيد ميكاوبر وكانت فرحتي بخروجه جد عظيمة. قلت للسيدة ميكاوبر «هل يمكنني أن أسأل، يا أماه، ماذا قررت أن تفعلي أنت والسيد ميكاوبر الآن بعد أن اجتزت مصاعبه المالية، وبعد أن غدا طليقاً؟ هل قررتما أي شيء حتى الآن؟».

فقالت «إن السيد ميكاوبر رجل ذو نبوغ عظيم يا سيد كوپرفيلد». وأجبتها أنا بأني متأكد من ذلك. وعادت السيدة ميكاوبر تكرر «إنه ذو نبوغ عظيم! وعائلتي تعتقد بأنه سيكون لرجل، في مثل نبوغه، ما يعمله في القطاع الجمركي. وبما أن نفوذ عائلتي نفوذ محلي، فإن إرادتها هي في أن يمضي السيد ميكاوبر إلى بلايماوث، وهي تعتقد بأنه من الضروري أن يكون هناك في الحال».

وسألت مستفهماً «ولربما كان جاهزاً؟».

فأجابت السيدة ميكاوبر «أجل، ذلك صحيح تماماً. إنه جاهز، إذ لربما يحدث شيء ما، ويحسن من حالنا».

«وهل ستمضين أيضاً يا أماه؟».

كانت أحداث ذلك اليوم، بالإضافة إلى العناية بالتوأم، قد جعلت السيدة ميكاوبر عصبية المزاج، وقد ترقرقت الدموع في عينيها عندما أجابت «لن أهجر السيد ميكاوبر أبداً، بالرغم من أنه تمكن من إخفاء ضائقته المالية عني في الفترة الأولى؛ ولكن لعل طبعه الدموي الحاد هو الذي دفعه إلى أن يتوقع التخلّص من هذه الضائقة، وبالرغم من بيع عقد اللؤلؤ وأساوري التي كنت قد ورثتها عن أمي، وذلك بثمن لا يساوي نصف الثمن الذي تستحقه، والمجموعة العاجية التي كان والدي قد قدمها إلي هدية يوم زفافي، واضمحلت فعلاً لقاء لا شيء. رغم ذلك كله لن أبتعد عن السيد ميكاوبر أبداً. كلاّ» هتفت السيدة ميكاوبر وقد بدا عليها التأثّر أكثر من السابق «لن أبتعد عنه أبداً! وليس ثمة فائدة في أن تطلب إلي ذلك! إن للسيد ميكاوبر أخطاءه؛ وأنا لا أعارض في أنه رجل مجازف؛ ولا أعارض كذلك في أنه قد تركني في الظل بالنسبة إلى إيراداته وديونه!» واستمرت وهي تحدق إلى الجدار «ولكني لن أهجره، لن أهجره!».

كنت قد اعتدت على العيش مع عائلة ميكاوبر بشكل كبير، وغدوت على مودة صادقة وعميقة مع أفرادها في جميع أحزانهم، فبدونهم كنت أشعر بالوحدة وبأن لا أصدقاء لي، بحيث أن الفكرة بأن أغير سكني، وأمضي من جديد لأعيش بين أناس غرباء، كانت فكرة لا تُحتمل.

وقد أدركت جيداً بأن لا مفر لي من ذلك، إلاّ إذا كان الهروب من ناحيتي. وقلّما كانت تصلني أخبار أو رسائل من الآنسة ماردستون، في حين لم أكن أتلقى أي أخبار من السيد ماردستون. وكنت أقضي أمسياتي مع السيد والسيدة ميكاوبر، وأعتقد أننا كنا نزداد تعلقاً ببعضنا كلما كان

الوقت يمضي بنا. وفي يوم الأحد الأخير، دعاني كل من السيدة والسيد ميكاوبر لتناول الغداء معهما، وقد أكلنا اللحم والفطائر وشربنا عصير التفاح.

وكنت قد ابتعت في الليلة السابقة حصاناً خشبياً لأقدمه كهدية لويلكنز ميكاوبر الصغير، وكان هذا اسم الفتى؛ أمّا الفتاة الصغيرة إيما، فقد ابتعت لها دمية.

كان يوماً رائعاً ومفرحاً، وقد كنا في حالة هناء مفعمة بالعواطف بخصوص قضية فراقنا القريب. قالت لي السيدة ميكاوبر «لن أعود أبداً، يا سيد كوپرفيلد، بالذكرى إلى الفترة التي كان يعاني فيها السيد ميكاوبر الضائقة المادية، دون أن أفكر بك. لقد كان تصرفك دائماً ذا صفة كريمة وطيبة للغاية، ولم تكن قط مستأجراً، وإنما كنت صديقاً».

وأضاف السيد ميكاوبر «يا صديقي العزيز، أنا أكبر منك سناً، ورجل ذو خبرة في الحياة. و... وذو خبرة، باختصار، بالمصاعب المادية. على وجه العموم، وفي الوقت الحاضر، وإلى أن يحدث أي شيء يحسن من أحوالي - وهذا ما أتوقعه في كل ساعة - فليس عندي ما أغدقه عليك سوى النصائح. ومع أن نصائحي جديرة تماماً بأن يُعمل بها، فإني... بالاختصار، لم أعمل بها أنا نفسي قط. وأنا...» وهنا كبح السيد ميكاوبر، الذي كان حتى الآن يشرق بالفرح، ويبتسم كلياً، كبح جماح نفسه، وقطّب جبينه، واستمر يقول «وأنا الرجل البائس التعيس الذي ترى!».

وقالت زوجته «يا عزيزي ميكاوبر!».

واستطرد السيد ميكاوبر، ناسياً نفسه تماماً، والابتسامة تعلو وجهه من جديد «أقول، أنا الرجل البائس التعيس الذي ترى، بأن نصيحتي إليك هي: لا تفعل غداً ما في وسعك أن تفعله اليوم. والتأجيل هو لص الوقت، فخذ أنت بتلابيبه».

وعاد يقول لي بعد أن بدا حزيناً لمدة دقيقة تقريباً «والجملة الأخرى

في نصيحتي إليك: دخل سنوي مقداره عشرون جنيهاً مقابل مصروف سنوي مقداره تسعة عشر، وتسعة عشر شلناً، وستة بنسات، النتيجة: السعادة. دخل سنوي مقداره عشرون جنيهاً، ومصروف مقداره عشرون جنيهاً كذلك وستة شلنات، النتيجة: البؤس. إذ إن ذلك أشبه بأن تصاب الزهرة بالمرض النباتي، وتذبل أوراقها، وينصب غضب الرب يوم القيامة على المشهد المرعب.... وبالاختصار، تظل طوال حياتك معدماً، مثلي أنا».

وكيما يجعل السيد ميكاوبر مَثَله أكثر تأثيراً تجرع كأساً من الخمر، بشيء كبير من الفرح، والرضى، وراح يصفر لحنه المعتاد.

وفي صباح اليوم التالي، اجتمعت بالعائلة كلها في مكتب حجز التذاكر، ورأيتهم، وهم يحتلون أمكنتهم بقلوب محطمة، في الخارج في مؤخرة المركبة، وأعتقد، فيما كانت السيدة ميكاوبر تجلس مع أولادها، وأقف أنا في الطريق أحدق إليهم باهتمام، أعتقد بأن غمامة من الضباب قد انزاحت عن عينيها، ورأت أي مخلوق ضئيل كنته أنا في الحقيقة.

وقد اعتقدت ذلك لأنها أشارت إلي كي أصعد إلى المركبة بتعبير عاطفي جديد تماماً كان يخيم على وجهها. ثم لفت ذراعها حول رقبتي وقبلتني قبلة كما لو أنها تقبّل ابنها تماماً.

وبالكاد كان لدي الوقت لأهبط من المركبة إلى الأرض قبل أن تشرع بمسيرها، وذلك بعد أن باركتني السيدة ميكاوبر وودعتني، وكذلك السيد ميكاوبر الذي قال لي «الوداع يا كوپرفيلد، إني أتمنى لك كل حظ وكل سعادة. وفي حال حدوث أي شيء يحسن من أوضاعي فسأكون جد سعيد إن استطعت أن أفعل شيئاً من أجلك».

وبالكاد أيضاً كنت أستطيع أن أراهما وهما يلوّحان لي بمنديليهما؛ إذ إن المركبة كانت قد توارت عن الأنظار في مدة دقيقة واحدة. وعدت لأبدأ عيشي اليومي القلق في مؤسسة ماردستون وغرينباي. على أني لم أكن أعقد النية على أن أمضي أياماً قلقة عديدة أخرى هناك. كلاّ! لقد

قررت أن أهرب. قررت أن أمضي إلى المنطقة النائية، بأي وسيلة، حيث لي هناك القريب الوحيد في العالم، وهو عمتي الآنسة بيتسي، لأخبرها بقصتي كاملة. وبما أني لم أكن أعرف تماماً أين عنوان هذه السيدة، فقد كتبت رسالة مطولة إلى بيغوتي، وسألتها فيها عما إذا كانت لا تزال تذكر هذه السيدة، زاعماً أنه قد سبق لي وسمعت بها، وهي تسكن في مكان معين، وأنني أود أن أتأكد عما إذا كان هذا المكان هو العنوان الصحيح تماماً. ووصلني جواب بيغوتي سريعاً، وكان مليئاً بكلمات الحب والإطراء، وأخبرتني بأن الآنسة بيتسي تقطن على مقربة من دوڤر، ولكن لم تكن تدري أين بالتحديد.

لقد أبديت، حتى الآن، ملاحظتي بأني لم أعرف كيف خطرت هذه الفكرة السديدة في رأسي، ولكن ما دامت قد وُجدت، فقد ظلت موجودة. وبما أني مخلوق صغير ومخلص، ولا أود أن أترك أي شائبة خلفي في مؤسسة ماردستون وغرينباي بعد تركي للعمل، فإني قررت البقاء حتى مساء يوم السبت. وبما أني كنت قد قبضت أجر أسبوع سلفاً، عندما باشرت العمل، فقد حاولت ألاّ أظهر في غرفة المحاسبة، في الساعة المعتادة، ليصار إلى دفع راتبي. وبناء على ذلك، انتظرت حتى جاء مساء السبت، وكنا جميعاً في انتظار أن نقبض أجورنا، في المخزن، وقمت ساعتئذ بالفرار.

*

عندما انطلقت متجهاً ناحية سكني، رحت أبحث عن شخص يساعدني على نقل صندوقي إلى مكتب حجز التذاكر إلى دوڤر، ووجدت أخيراً رجلاً طويل القدمين، معه عربة يجرها حمار؛ وافق على القيام بالعمل، وهكذا أنزلنا الصندوق ووضعناه في عربته، ولكن ما إن كاد الصندوق يستقر في عربته حتى انطلق بالعربة سريعاً، فرحت أركض وراءه محاولاً اللحاق به حتى انقطعت أنفاسي، عندئذ عرفت أنني فقدت الصندوق كليّاً، فتحولت إلى غرينويتش، التي كنت أعرف

أنها تقع على طريق دوفر.

وبما أني كنت أقلعت عن فكرة اللحاق بالرجل، وسرت متجهاً إلى غرينويتش، فقد عقدت النية بشيء من العزم والتصميم على أن أجتاز كل الطريق إلى دوفر ركضاً. ومهما يكن من أمر، فقد توقفت بعد ذلك بوقت قصير، وجلست على عتبة أحد الأبواب ألهث لشدة التعب، بشكل تام، كيما أتمكن من البكاء على فقداني صندوقي.

كانت العتمة مخيِّمة على الكون في ذلك الوقت، وسمعت الساعات تدق معلنة العاشرة. ولحسن الحظ أن تلك الليلة كانت من ليالي الصيف، وكان الجو فيها بديعاً جداً. وعندما استرجعت أنفاسي، وشعرت بشيء من الراحة، نهضت واستأنفت المسير بأقصى ما أستطيع من سرعة، وأنا غارق في بحر أحزاني، دون أن تخطر ببالي فكرة العودة.

كانت في حوزتي ثلاثة بنسات ونصف البنس؛ ومع ذلك بقيت سائراً في طريقي ببؤس شديد؛ إلى أن حدث ومررت بدكان صغير، مكتوب على بابه أنه دكان لشراء وبيع الثياب الرجالية والنسائية. كان صاحب الدكان يجلس عند بابه يدخن، ومضيت أنا إلى الشارع التالي وخلعت صداري، وعدت إلى الدكان حيث أخذ الرجل الصدار مني وقال «أفضل ما يمكنني أن أدفعه هو تسعة بنسات!».

قلت له بأني رضيت بهذا السعر. ووجدت مع ذلك أن عليّ أن أبيع سترتي كذلك؛ وبأني سأمضي إلى دوفر بقميص وسروال ليس غير.

وجاءتني الفكرة بكيفية قضاء الليل، مفادها أن أنام وراء الجدار الخلفي لمدرستي القديمة، حيث كانت توجد دائماً أكداس من القش. وداهمني النعاس كما داهم كثيرين غيري من المتشردين الذين أوصدت في وجوههم أبواب المنازل، ونبحت عليهم الكلاب، في تلك الليلة. وهنا أعترف أني لن أنسى أبداً الشعور بالوحدة الذي تملكني في أثناء نومي للمرة الأولى في حياتي دون سقف فوق رأسي.

واستفقت عند الصباح، فيما كان تلامذة السيد كريكل يستفيقون،

وسرت في الطريق المغبرة التي كنت أعرف أنها طريق دوڤر، وذلك منذ أن كنت واحداً من هؤلاء التلاميذ. ولكن أوّاه من تلك الساعات الطويلة، التي كنت أسير خلالها وحيداً جائعاً في طريق دوڤر المغبرة، أمد يدي طوال الطريق أستطعم المارّة. ولكني وصلت أخيراً إلى المنخفضات العارية الشاسعة التي تقع بالقرب من دوڤر وذلك في اليوم السادس من هروبي.

رحت أسأل في البدء عن عمتي بين البحارة، وكنت أتلقى منهم أجوبة مختلفة. وكان الصباح قد ولّى وأنا أطرح الأسئلة، وبينا كنت أجلس على عتبة دكان فارغ، في زاوية أحد الشوارع، بقرب السوق، ومرَّ بي سائق عربة صغيرة، وعندما أوقفته بإشارة من يدي، لاحظت أن ثمة تعبيراً لطيفاً ومفرحاً كان يخيم على وجهه، الأمر الذي شجعني على أن أسأله عما إذا كان في وسعه أن يرشدني إلى مكان الآنسة تروتوود.

أجابني «تروتودد؟ دعني أفكر! إني أعرف هذا الاسم. هل هي سيدة وجيهة مسنّة؟».

فأجبت «أجل! تقريباً!».

وعاد يسأل وهو يقوّم ظهره جيداً «وهل هي مستقيمة الظهر؟».

فأجبت «أجل. أظن أن ذلك جد محتمل!».

«وهل هي فظة، تهاجم المرء بشراسة؟».

وشعرت بأن قلبي يكاد يسقط أرضاً فيما كنت أعترف بدقة وصفه الذي لا شك فيه.

قال «إذاً، سأقول لك ماذا تفعل! إذا ما صعدت إلى هناك» وأشار بسوطه نحو المرتفعات «وظللت سائراً حتى تصل إلى بعض المنازل التي تواجه البحر، فأعتقد أنك ستعرف شيئاً عنها».

وفي آخر المطاف دخلت دكاناً صغيراً، وسألت عما إذا كانوا يتلطفون ويرشدونني إلى مكان الآنسة تروتوود. وكنت قد توجهت إلى رجل يجلس خلف آلة الحساب؛ وكان يزن بعض الأرز لسيدة شابة، فإذا بهذه السيدة تتحوّل إلي بسرعة وتسألني:

«الآنسة تروتوود؟ ماذا تريد منها أيها الفتى؟».

فأجبت «أود أن أتحدث إليها، من فضلك!».

قالت «تعني أنك تود أن تستعطي منها!».

فأجبت «كلا، في الحقيقة!» ولكني فجأة شعرت بالخجل وبأن وجهي يكاد يحترق، فيما كنت أتذكر أني لم آتِ إلاّ من أجل هذه الغاية.

أمّا خادمة عمتي، وقد اتضح لي الأمر من خلال ما قالته لي بعد ذلك، فقد وضعت الأرز في سلة صغيرة واندفعت خارج الدكان، وهي تعلمني بأن في وسعي أن أتبعها إذا ما شئت أن أعرف مكان الآنسة تروتوود. وهكذا سرت خلف المرأة، وسرعان ما كنا أمام بناء صغير جد متقن، له نوافذ ناتئة مفرحة، وكانت ثمة فسحة أو حديقة أمامه مرصوفة بالحصى، مملوءة بالأزهار، المعتنى بها جيداً، والتي لها رائحة زكية.

قالت المرأة الفتية «هذه هي الآنسة تروتوود! والآن عرفتها؟ هذا كل ما لدي لأقوله». وبهذه الكلمات الأخيرة كانت قد اندفعت إلى داخل المنزل بسرعة، كما لو أنها تحاول أن تبعد عنها مسؤولية ظهوري، وتركتني واقفاً أمام بوابة الحديقة.

كان حذائي في ذلك الوقت في حالة يرثى لها، إذ كانت نعلاه قد أتلفتا، وانفتح الغطاء الجلدي وتفتت، بحيث أنه قد فقد شكله وصفته كحذاء. وكانت قبعتي، التي كنت قد استفدت منها كغطاء للرأس في أثناء الليل، قد بليت، وأما قميصي وسروالي فقد كانت البقع والقذارة تغطيهما، بالإضافة إلى أنهما قد تمزقا، ولعلهما أصبحا يخيفان العصافير من اللجوء إلى حديقة عمتي وأنا أقف عند البوابة. أمّا شعري فلم يكن قد عرف أي مشط منذ أن غادرت لندن، وعنقي ووجهي ويداي، التي لم تكن قد اعتادت التعرض لأشعة الشمس، كانت قد احترقت وغدت بنية اللون. وكنت مغطًّى بالغبار الأبيض الطبشوري، من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، كمن يخرج من الكلاّسة(*) تماماً. وفي هذه الحالة،

(*) Lime - Kiln، وهي أتون لحرق حجر الكلس وتحويله إلى كلس.

وبالإضافة إلى إدراكي القوي لما أنا عليه، رحت أنتظر لأقدم نفسي، إلى عمتي الرهيبة، وأكوّن عنها انطباعي الأول.

وأوحى إلي سكون نافذة الدار، بعد فترة، بأنها ليست موجودة. ورفعت نظري إلى النافذة العليا؛ حيث رأيت رجلاً ظريفاً بهيّ المظهر، ذا رأس رمادي؛ فأغلق هذا عينه بشكل مضحك، وهزّ رأسه لي عدة مرات، ثم ضحك وابتعد من أمام النافذة.

انزعجت كثيراً لهذا التصرف غير المتوقع، وكنت على وشك أن أبتعد كيما أفكر كيف يمكن لي أن أدخل في الموضوع، عندما رأيت سيدة تخرج من المنزل وهي تشد منديلها فوق قبعتها، وتلبس في يديها قفازين للحديقة، وتحمل سكيناً كبيرة. وأدركت في الحال أنها الآنسة بيتسي، لأنها كانت تخرج من المنزل وهي تتبختر في مشيتها، كما كانت قد اعتادت والدتي المسكينة أن تصفها غالباً في أثناء تبخترها في حديقتنا في بلندرستون روكاري.

«اذهب من هنا!» هتفت الآنسة بيتسي وهي تهز رأسها، وتقوم بهز السكين في الهواء «امضِ! ليس من أولاد هنا!».

ورحت أراقبها، وقلبي بين شفتي، وهي تسير إلى إحدى زوايا حديقتها وتتوقف لتقتلع أحد الجذوع من هناك. ودون أي شيء من الشجاعة، وإنما بشيء كبير من اليأس، دخلت بتؤدة وسرت إليها ووقفت بجانبها ولمستها بأصبعي، ثم شرعت في الكلام:

«أرجوك أيتها السيدة!».

وأجفلت ورفعت نظرها إلي.

«أرجوك يا عمتاه!».

«ماذا؟» هتفت الآنسة بيتسي بلهجة ملؤها الدهشة لم يسبق لي أن سمعتها في حياتي.

«أرجوكِ يا عمتي، أنا ابن أخيك!».

«آه رباه!» هتفت عمتي وجلست على الأرض، في ممر الحديقة.

«أنا دايفد كوبرفيلد، من بلندرستون في سوفوك، حيث جئتِ في ليلة مولدي وشاهدت أمي. لقد أصبحت تعيساً جدّاً منذ وفاتها. لقد استُخِفَّ بي، ولم أتعلم شيئاً، وتُركت لأعيش وحيداً، وأُلحقت بعمل لا يناسبني، جعلني أهرب وآتي إليك. وقد سرقت، واجتزت الطريق إليك بطولها، ولم أنم في سرير منذ أن شرعت في هروبي».

وهنا خانتني قواي فجأة؛ فانخرطت في موجة من البكاء، البكاء الذي أعتقد بأنه كان ممنوعاً عليّ طوال الأسبوع.

وكانت عمتي تجلس على الأرض تحدق إليّ، ووجهها خال من جميع التعابير، إلى أن شرعت بالبكاء. وعندما هبت واقفة على عجل طوقتني بذراعيها واقتادتني إلى غرفة الاستقبال.

وأول شيء قامت به هو أن فتحت إحدى الخزائن وأخرجت عدة زجاجات وراحت تفرغ في فمي بعضاً من محتويات كل واحدة منها. وأعتقد جازماً أن هذا المشروب كان قد استخرج جزافاً، لأني قد استطعمت بطعم اليانسون، وطعم صلصة السردين، والتوابل.

وفيما كنت لا أزال متوتراً للغاية، وعاجزاً عن ضبط دموعي، مضت بي وأجلستني على أريكة، واضعة شالاً تحت رأسي لئلا يتسخ الغطاء.

وبعد مضي بعض الوقت قرعت الجرس، وقالت، عندما دخلت خادمتها «جانيت، اصعدي إلى الطابق العلوي وبلغي تحياتي للسيد ديك، وقولي له بأني أود أن أتحدث إليه».

وبدت جانيت مندهشة قليلاً لرؤيتي أضطجع على الأريكة، ولكنها مضت في مهمتها. وجاء الرجل الظريف الذي كان قد أطلّ عليّ من النافذة وهو يضحك، فقالت له عمتي:

«لا تحاول أن تتغابى يا سيد ديك، لأن ليس في وسع أي شخص أن يكون حصيف الرأي مثلك، عندما تشاء أنت أن تكون كذلك. وهكذا فلا تكن غبياً أيّاً كنت».

وبدا على الرجل أنه غدا جديّاً على الفور، ومضى ينظر إليّ، حسب

ظني، كما لو أنه يرجوني ألاّ أذكر شيئاً عن موضوع النافذة. وعادت عمتي تقول:

«لقد سمعتني يا سيد ديك آتي على ذكر دايڤد كوپرفيلد، والآن لا تتظاهر بأن ليس لديك أي ذاكرة؛ لأننا نحن الاثنان نعرف أفضل من غيرنا!».

«دايڤد كوپرفيلد!» تساءل السيد ديك الذي لم يبد بالنسبة إلي أنه يتذكر الشيء الكثير عنه. «دايڤد كوپرفيلد، آه، أجل! إني متأكد، دايڤد، طبعاً!».

وقالت عمتي «حسناً. هذا هو ولده! ابنه! وسيكون مثل أبيه بقدر الإمكان، إن لم يكن مثل أمه كذلك».

وقال السيد ديك «ابنه؟ ابن دايڤد؟ حقاً!».

وتابعت عمتي «أجل، وقد قام بعمل عظيم للغاية! لقد فرّ هارباً. آه! وشقيقته بيتسي تروتوود لما كانت قامت بالهرب على الإطلاق» وهزت عمتي رأسها بحزم، وهي على يقين من خلق وتصرف الفتاة التي لم تولد قط. واستطردت «والآن، ها أنت ترى الفتى دايڤد كوپرفيلد، والسؤال الذي سأطرحه عليك هو، ماذا سأفعل به؟».

«ماذا ستفعلين به؟» قال السيد ديك وهو يحك رأسه بعجز ثم ردد «آه ماذا ستفعلين به؟».

«أجل!» قالت عمتي بنظرة جدية، وسبابتها ممدودة «كفى! أريد منك نصيحة سديدة!».

قال السيد ديك وهو يتأمل ويحدق إلي بشيء من الشرود «لو كنت أنا مكانك لكنت..» وبدا أن التأمل بي قد أوحى إليه بفكرة مفاجئة فأضاف بنشاط «لكنت أغسله!».

وهتفت عمتي، وهي تستدير بشيء من النصر الهادئ، الذي لم أتعرف إليه وقتذاك «جانيت! لقد نطق السيد ديك بالصواب، حضّري الحمام!».

ومع أني كنت مهتماً بهذه المحاورة بشكل عميق، غير أني لم يسعني

إلاً أن أقوم بمراقبة عمتي والسيد ديك وجانيت، فيما كانت تأخذ هذه المحاورة مجراها.

كانت عمتي ممشوقة القوام، ذات ملامح قاسية، ولكنها كانت تبدو قبيحة، دون أية أسباب، ولاحظت بشكل خاص أنه كانت لها عينان براقتان وسريعتا الحركة كثيراً، وأما شعرها الأشيب فقد كان مفلوقاً إلى فلقين واضحين تحت قبعتها، وكان فستانها ذا لوح فاتح، ومتقناً تماماً، وقد صنع بشكل ضيق وقصير، كما لو أنها كانت تود أن تخفف من حملها بقدر الإمكان.

وكان السيد ديك، كما ذكرت حتى الآن، أشيب الشعر بهي الطلعة، وبقولي هذا يجدر بي أن أكون قد قلت كل شيء عنه، لو أن عينيه لم تكونا جاحظتين وكبيرتين، وتحتويان على لمعانٍ مائي فيهما جعلني، بالإضافة إلى شروده، وإلى طاعته لعمتي، وإلى فرحه الطفولي الذي بدا عليه عندما أثنت هي عليه، جعلني كل هذا أشك في أن يكون مختل العقل؛ مع أنه لو كان مجنوناً، فكيف اتفق أن يكون هنا؟ ذلك ما حيّرني كثيراً. وقد كان يرتدي، مثل أي شخصٍ آخر، عادي، صداراً ومعطفاً للصباح رماديين مع بنطالٍ أبيض.

وكانت جانيت، الفتاة التي مضت لتجهز الحمام، جد جميلة، تناهز التاسعة عشرة، أو العشرين، وكانت صورة تامة للدقّة في عملها.

لم تلبث هذه الأخيرة أن عادت لتعلن أن الحمام أصبح جاهزاً. وكان هذا الحمام جد مريح، على أني غدوت الآن تعباً بحيث أنني بالكاد كنت أستطيع أن أبقي نفسي صاحياً لمدة خمس دقائق. وعندما انتهيت من الحمام ألبستني عمتي وجانيت ثياباً للسيد ديك، ولفّتاني بشالين كبيرين أو ثلاثة، ولم أعد أعرف، أي نوع من الحِزَم أصبحت أشبه، إلاّ أني كنت أشعر بالدفء العميم. وإذ كنت أشعر بالارتخاء والنعاس فقد عدت لأضطجع على الأريكة من جديد وسرعان ما رحت في سبات عميق.

من الممكن أن يكون ذلك كله حلماً، إلاّ أنني صحوت وأنا أعتقد بأن

عمتي كانت قد جاءت وانحنت فوقي، وأبعدت شعري عن وجهي، وأراحت رأسي أكثر من الأول، ثم توقفت وراحت تحدق إليّ. وخيل إليّ بأن كلمات «إنه فتى وسيم» أو «إنه فتى مسكين» لا تزال ترن في أذني أيضاً. ولكن من المؤكد أنه لم يكن ثمة شيء آخر، عندما صحوت من النوم، يقودني إلى الاعتقاد بأن عمتي هي التي نطقت بهذه الكلمات، وقد كانت تجلس عند النافذة ترنو إلى البحر.

بعد أن صحوت مباشرة تناولنا طعام العشاء، وكان مكوّناً من لحم الدجاج المحمَّر، والفطائر. وقد كنت طوال هذا الوقت كثير القلق والتفكير لمعرفة بما كانت عمتي على وشك أن تفعله بي. ولكنها تناولت طعامها بصمت مطبق.

بعد وجبة العشاء، جُلب بعض المشروب، ووضع فوق الطاولة؛ وبعثت عمتي من جديد بطلب السيد ديك الذي انضم إلينا، وبدا فطناً بقدر المستطاع عندما التمست عمتي إليه أن يستمع إلى قصتي، هذه القصة التي استخلصتها مني تدريجاً بعد كم كبير من الأسئلة.

«والآن يا سيد ديك!» قالت عمتي، بنظرتها الجدية، وسبابتها الممدودة كالسابق «إني أود أن أطرح عليك سؤالاً آخر. انظر إلى هذا الفتى!».

«ابن دايڤد؟» قال السيد ديك بوجه حائر ويقظ.

فأجابت عمتي «بالضبط! ماذا ستفعل به الآن؟».

فقال السيد ديك «ماذا سأفعل بابن دايڤد؟».

أجابت عمتي «أجل بابن دايڤد».

«آه! أجل! سأضعه في الفراش!» قال السيد ديك.

«جانيت!» نادت عمتي بلكنة النصر البشوش الهادئ الذي لاحظته من قبل «لقد نطق السيد ديك بالصواب. إذا كان السرير جاهزاً، فسنصعد به إليه».

كانت الغرفة رائعة ومفرحة، وفي أعلى المنزل، تطل على البحر الذي

يشع فوقه نور القمر، وإني أذكر، بعد أن تلوت صلواتي، وقد ذابت الشمعة، كيف بقيت جالساً أحدق إلى نور القمر فوق صفحة الماء، كما لو أني آمل أن أتمكن من قراءة طالعي فيه، كما في كتاب نفيس، أو أن أرى أمي مقبلة من السماء مع طفلها، عبر ذلك الممر الطويل اللامع، لتنظر إلي كما كانت قد فعلت عندما رأيت وجهها الحبيب للمرة الأخيرة. وإني أذكر، وأنا جالس في فراشي تلك الليلة، كيف رحت أفكر بجميع تلك الأمكنة الموحشة التي كنت قد نمت فيها ملتحفاً سماء الليل، وكيف رحت أتضرَّع إلى الله ألاّ يجعلني متشرداً بعد الآن، وأن لا أنسى أبداً زمن التشرد. وإني أذكر أيضاً كيف خيل إليّ أني كنت أسبح آنئذ فوق مجد تلك الطريق الكئيبة في البحر وأمضي إلى عالم الأحلام.

6

عندما نزلت من غرفتي، في صباح اليوم التالي، ألفيت عمتي تجلس إلى مائدة الفطور، ومرفقها فوق الصينية، وهي غارقة في تفكير عميق. وشعرت بأني واثق من أني كنت موضوع أفكارها، وغدوت أكثر قلقاً لمعرفة ما ستفعله بي. وحين أنهت طعامها، انحنت إلى الوراء في كرسيها، وقطبت جبينها، وشبكت يديها، ثم نظرت إلي بطابع الجدّ على وجهها بحيث أحسست له بالارتباك التام.

«مرحباً!» قالت لي بعد مضي فترة طويلة من الوقت. فرفعت أنا نظري إليها، وواجهت نظرتها الثاقبة الصارمة باحترام. وعادت تقول «لقد كتبت إليه!».

«إلى....؟».

فقالت «إلى زوج أمك. لقد بعثت إليه برسالة أعلمه بأني سأرغمه على أن يهتمّ بك، أو أني سأتشاجر معه».

وهنا أحسست بآلامي تتضاعف أمام هذه الكلمات، وأصبحت ذليلاً مثقل القلب. وسألت وأنا متخوف:

«وهل هو يعرف أين أنا يا عمتي؟».

فأجابت بهزة من رأسها «أجل، أنا التي أخبرته!».

فهتفت «لا أدري ماذا سأفعل لو توجّب علي أن أعود إلى السيد ماردستون».

فقالت عمتي «أود منك أن تصعد وتبلغ السيد ديك تحياتي، وسأكون سعيدة لو أني أعرف كيف حاله مع مذكراته!».

وصعدت برسالتي إلى السيد ديك الذي أجاب «حسناً، بلغها تحياتي. وأعتقد... أعتقد بأني قد وجدت البداية. أظن بأني قد وجدت البداية...» قال السيد ديك وهو يمرر أصابع يده عبر شعره الأشيب «هل سبق لك وذهبت إلى المدرسة؟».

فأجبت «أجل يا سيدي! لفترة قصيرة!».

فقال السيد ديك وهو يحدق إليّ باهتمام، ويأخذ القلم بيده ليسجل جوابي «هل تتذكر التاريخ الذي قطع فيه رأس الملك تشارلز الأول؟».

أجبت بأني أعتقد أن ذلك حدث في العام ألف وستماية وتسعة وأربعين.

فقال السيد ديك، وهو يحك أذنه بالقلم، ويحدق إلي بشيء من الريبة «حسناً، هذا ما تقوله الكتب. ولكنني لا أستطيع أن أعرف كيف يمكن أن يكون هذا، لأنه إن كان قد قطع منذ ذلك الوقت البعيد، فكيف تمكّن الناس من أن يرتكبوا الهفوة في استخراج بعض الهموم من رأسه، وهو مقطوع، ويضعوها داخل رأسي؟».

ودهشت كثيراً لهذا التعليل، إلاّ أني لم أتمكن من إعطاء أي إجابة على سؤاله في هذا الموضوع.

«إن ذلك جد غريب!» قال السيد ديك بنظرة متأملة فوق أوراقه، وأصابعه تتخلّل شعره للمرة الثانية «ذلك الأمر لا يسعني أن أتفهمه تمام الفهم أبداً. ولا يمكنني أبداً أن أوضح ذلك حق الإيضاح. ولكن لا بأس! لا بأس!» قال هذا أخيراً بفرح، فيما كان يهب واقفاً ويردف «فهناك الوقت الكافي! هناك الوقت الكافي!».

وكنت على وشك الخروج عندما لفت انتباهي إلى طائرة ورقية، وقال: «ماذا تقول في هذه، كطائرة ورقية؟».

فأجبت أنها جميلة، وأني أعتقد بأن طولها كان سبع أقدام تقريباً.

فقال السيد ديك «أنا صنعتها! سنمضي ونطيّرها، أنا وأنت! وهل رأيت هذا؟». وأراني أنها كانت مغطاة بمخطوطة مكتوبة بجهد كبير، وبخطوط متقاربة جدّاً، ولكنها كانت واضحة للغاية، بحيث أني عندما نظرت إليها فكرت بأني رأيت، من جديد، بعض التلميحات إلى رأس الملك تشارلز الأول، وذلك في مكان أو مكانين.

قال السيد ديك «ثمة كمية كبيرة من الخيطان؛ وعندما تحلق في

الأعالي ستمضي بالحقائق بعيداً جداً، هذه هي طريقتي في نشرها. ولا أدري أين ستهبط، إذ إن الأمر سيتوقف على المناسبات وعلى الريح، وما إلى ذلك».

ولم أكن أدري ما إذا كان وجهه يبدو رقيقاً وفرحاً للغاية؛ إلاّ أني كنت أدرك بأنه كان يمزح معي مزاحاً ذا طابع مرح. وهكذا ضحكت أنا وضحك هو، وافترقنا باعتبارنا أفضل صديقين يمكن أن نكونهما.

قالت لي عمتي عندما هبطت إليها «حسناً أيها الفتى؛ كيف حال السيد ديك هذا الصباح؟ وماذا تظن أنتَ به».

«هل هو... هل السيد ديك... أنا أسأل لأني لا أعرف يا عمتي.. هل هو فاقد العقل كلياً الآن؟..» وتلعثمت، لأني كنت أشعر بأني أسير في أرض خطرة.

«ليس تماماً» أجابت عمتي.

فعقبت أنا بفتور «آه حقّاً؟!».

فقالت عمتي «لقد عُرف بالمجنون؛ وهو قريب بعيد لي! إنه أعظم مخلوق ودود وطيِّع في الوجود، وهو كذلك بالنسبة إلى إسداء النصائح! وإني أستفيد من صداقته ونصائحه طوال هذه السنوات العشر الأخيرة. ولكن لا أحد يعلم ماهية عقل هذا الرجل إلاّ هو نفسه. هل قال لك شيئاً عن الملك تشارلز الأول أيها الولد؟».

«أجل يا عمتاه!».

«آه!» تنهدت عمتي وهي تفرك أنفها وبدت مغتاظة قليلاً. إنه يسرّي عن نفسه بسبب مرضه بالتبرم والاضطراب. وهذا هو الشكل، أو التشبيه، الذي يختار استعماله. ولِمَ لا يفعل إذا ما كان يفكر تفكيراً سليماً؟».

فقلت «طبعاً يا عمتاه!».

قالت عمتي «هذه القصة ليست شبيهة بطريقة الكلام عن الأعمال، أو القضايا الدنيوية، وأنا أدرك ذلك؛ وهذا هو السبب الذي يجعلني أصر

على أنه ينبغي ألاّ يذكر أية كلمة عنها في مذكراته».

«هل هي مذكرات عن سيرة حياته تلك التي يكتبها يا عمتاه؟».

«أجل!» أجابت عمتي وهي تفرك أنفها من جديد «إنه يكتب فيها عن رئيس القضاة، أو عن أي شخص آخر يدفع لقاء أن تكتب مذكرات عنه وعن أعماله. وأعتقد بأن مذكراته ستبدأ في أحد هذه الأيام، إذ إنه لم يكن قادراً حتى الآن على أن يكتبها دون أن يسجل تلك الحالة التي تعبر عن نفسه؛ وهذه الحالة لم تكن لتتوضح لديه بأي شكل من الأشكال، ولذلك كانت تبقيه دائماً في شغل شاغل».

والحقيقة، أنني أدركت بعد ذلك أن السيد ديك كان ولا يزال يحاول، منذ أكثر من عشر سنوات، أن يبقي الملك تشارلز الأول بعيداً عن هذه المذكرات؛ ولكن هذا الملك كان دائماً يتسرب إليها، وهو موجود فيها الآن.

*

وأخيراً وصل الجواب من السيد ماردستون، وأعلمتني عمتي به، ولشد ما كان خوفي كبيراً لأنه قرّر المجيء ليتكلم إليها بنفسه في اليوم التالي.

وفي اليوم الثاني جلست أحسب الوقت، وكانت عمتي تجلس عند النافذة، وهي منهمكة بأشغال الإبرة، ورحت أنتظر أن أجفل لرؤية الوجه العابس، الذي كان وصوله يخيفني في كل لحظة.

وكان طعام الفطور قد أُجِّل لوقت غير مسمى؛ ولكن بما أن الوقت كان يزداد تقدّماً فقد أمرت عمتي بأن يحضر، عندما هتفت فجأة، ولشد ما كانت دهشتي كبيرة، إذ رأيت الآنسة ماردستون تجلس فوق سرج على ظهر حمار، وتسير مقتربة ثم تتوقف أمام المنزل، وخلفها السيد ماردستون.

وانتهزت أنا الفرصة لأعرّف عمتي بأنهما كانا السيد والآنسة ماردستون، لكن الغضب كان قد استبد بها لرؤيتها الآنسة ماردستون

الباردة، وبدت عديمة الحركة، وعاجزة للحظة عن الخروج لاستقبالهما، ثم إنها قالت لي وهي لا تزال تهز رأسها، وتومئ بيدها عبر النافذة «لا يهمني من يكونان، فأنا لا أريد أن تُنتهك حرمة منزلي. لا أسمح بذلك. امضي! أديري الحمار يا جانيت، أبعديه من هنا» واستطعت أن أرى، وأنا أقف خلف عمتي، بعضاً من معركة حمارية، حرن فيها الحمار، وهو يقاوم، متشبثاً بالأرض بقوائمه الأربع المنتشرة في كل الاتجاهات، وبينما كانت جانيت تحاول سحبه باللجام، كان السيد ماردستون يحاول أن يدفعه إلى الأمام، والآنسة ماردستون تضرب جانيت بمظلة نسائية، وكان الصبية، الذين جاءوا ليشهدوا المعركة، يطلقون بعض الصيحات العالية.

نزلت الآنسة ماردستون عن ظهر الحمار، وراحت تنتظر مع أخيها، عند أسفل السلم، كيما تخرج عمتي وتستقبلهما، حسب التقاليد المعهودة. لكنَّ عمتي، وقد انزعجت قليلاً من مشهد المعركة، مشت إلى غرفة الاستقبال بأبهة عظيمة؛ ولم تأبه بوجودهما إلاّ عندما أعلنت جانيت عن حضورهما.

قلت لعمتي وأنا أرتعش «هل علي أن أذهب من هنا يا عمتي؟».

فقالت عمتي «كلاّ أيها السيد! طبعاً لا!» ودفعتني على أثر كلماتها إلى زاوية بالقرب منها، حيث استطعت أن أشاهد منها السيد والآنسة ماردستون وهما يدخلان إلى الغرفة، قالت عمتي:

«آه! لم أكن أدري، في البداية، من كنت أتشرف بمعارضة مجيئه، إلاّ أني لا أسمح لأي إنسان أن يسير راكباً فوق هذه القطعة المخضوضرة من الأرض. وليس عندي استثناءات! لا أسمح لأي إنسان أن يقوم بذلك».

فقالت الآنسة ماردستون «إن قواعدك مستهجنة نوعاًما، بالنسبة إلى الغرباء».

«حقاً؟» قالت عمتي!

وتدخّل السيد ماردستون، وقد بدا أنه خائف من استشراء العداء «آنسة تروتوود!».

وقالت عمتي بنظرة قاسية «أرجو معذرتك! هل أنت هو السيد ماردستون الذي تزوج بأرملة المرحوم ابن أخي، دايڤد كوپرفيلد، من بلندرستون روكري؟».

«أجل. أنا هو» أجاب السيد ماردستون.

فأردفت عمتي وهي تقرع الجرس «جانيت، بلغي تحياتي للسيد ديك، وقولي له أن يهبط إلينا» ثم تحولت إلى السيد ماردستون وقالت «أرجو أن تعذرني لقولي بأني أعتقد أنه كان أفضل، كثيراً، لو أنك قد تركت هذا الولد المسكين وشأنه!».

وجلست عمتي مستقيمة، وثابتة، وهي تحدق إلى الجدار بعبوس إلى أن نزل السيد ديك، وعندما دخل علينا قامت عمتي بواجب التقديم.

«إن السيد ديك صديق ودود وقديم! وأنا أعتمد...». قالت عمتي وهي تشدد بتوكيدها على كلامها، كإنذار للسيد ديك، الذي كان يعض على سبابته، ويبدو أبله تقريباً «وأنا أعتمد على حكمه».

وأخرج السيد ديك سبابته من فمه، بعد هذا التلميح، ووقف إلى جانب الآخرين وعلى وجهه تعبير جدي يقظ. وأحنت عمتي رأسها للسيد ماردستون الذي استأنف كلامه:

«عندما تسلمت رسالتك، يا آنسة تروتوود، فكرت أن سيكون من الأفضل جداً بالنسبة إليّ، وربما سيكون في ذلك احترام أكبر بالنسبة إليك، أن أجيبك على رسالتك بحضوري شخصيّاً، لا برسالة مثلها. فهذا الفتى التعيس الذي هرب من أصدقائه، ومن وظيفته، كان مجلبة لكثير من المتاعب والاضطرابات العائلية، وذلك منذ أن كانت المرحومة زوجتي الحبيبة على قيد الحياة، حتى الآن. إن فيه روحاً نكدة متمردة. وقد حاولت أنا وشقيقتي أن نقوّم اعوجاجه، ولكن دون فائدة!».

وقالت الآنسة ماردستون «لا أجدني في حاجة ضرورية إلى أن أؤكد أي شيء يقوله شقيقي، ولكني أرجو أن أبدي ملاحظتي بأني أعتقد أن هذا الفتى هو أسوأ ما في الدنيا من فتيان».

وقالت عمتي «هه! وماذا أيضاً أيها السيد؟».

وأردف السيد ماردستون يقول، وكان وجهه يزداد اسوداداً أكثر فأكثر، وذلك كلما كانت المراقبة تزداد بينه وبين عمتي، هذه المراقبة التي كانت تجري بدقة تامة بين الطرفين «إن لي آرائي الخاصة بالنسبة إلى أفضل أسلوب لتربيته! وإنه ليكفي أن أضع هذا الفتى تحت رقابة صديق لي، في عمل محترم؛ ذلك العمل لم يرق له! ذلك العمل الذي فرّ منه، ليجعل من نفسه متشرداً هائماً في الريف، وليأتي إلى هنا بأسماله ويستنجد بك، يا آنسة تروتوود. وإني أود الآن أن أضع أمام عينيك النتائج الحتمية لقبولك وتشجيعك لاستغاثته هذه».

وقالت عمتي «ولكن لنتحدث عن العمل المحترم، أولاً! لو كان هذا ابنك أنت، فهل كنت قد ألحقته بهذا العمل، كما فعلت معه تماماً؟ وهل كان قد ذهب، هذا الطفل المسكين، إلى ذلك العمل المحترم، لو أن أمه كانت حية؟ ماذا تقول؟».

وأجاب السيد ماردستون، بانحناءة من رأسه «أعتقد بأن كلارا لم تكن لتعترض على أي أمر كنت أوافق أنا وشقيقتي على أنه كان من أجل ما هو أفضل».

وأكدت الآنسة ماردستون على ذلك بدمدمة مسموعة. فقالت عمتي «آه، إنه ولد تعيس!».

أما السيد ديك، الذي كان يخشخش بقطع النقود طوال هذا الوقت، فقد ارتفع صوت خشخشته، بحيث وجدت عمتي أنه من الضروري أن تحذره بنظرة قبل أن تقول «ألم يكن هناك أي تسوية بخصوص العقار الصغير... أي المنزل والحديقة (هذا المكان الذي كان يُسمّى موئل الغربان دون أن تكون فيه غربان) بالنسبة إلى الفتى؟».

«إن المرحومة زوجتي...».

«إن المرحومة زوجتك، أيها السيد، كانت طفلة بائسة تعيسة وغير واقعية» أجابت عمتي وهي تهز رأسها «هذا ما كانته زوجتك. والآن ماذا

ستقول في ذلك؟».

فقال «أقول هذا فقط يا آنسة تروتوود؛ إني هنا لأعيد دايڤد، لأتفق معه على ما أعتقد أنه صحيح. وأنا لست هنا لأصرح بأي وعد، أو لأعطي تعهداً ما لأي شخص. ومن الممكن أن يكون عندك فكرة، يا آنسة تروتوود، بأن تتقبلي هذا الفتى في هربه، وفي مسالمته لك. ولكني يجب أن أحذرك بأنك إذا ما تدخلت بينه وبيني، الآن، فينبغي عليك أن تبقي على ذلك حتى النهاية، فأنا لا يسعني أن أعبث، أو أن أقبل من يعبث معي. أنا هنا، للمرة الأولى والأخيرة، في محاولتي لإعادته. فهل هو جاهز للعودة؟ فإن لم يكن جاهزاً، فمعنى ذلك أن أبوابي ستغلق بوجهه من الآن فصاعداً، وأبوابك، كما أكفل ذلك تماماً، ستكون مفتوحة له».

قالت عمتي «وماذا يقول الفتى؟ هل أنت جاهز للعودة يا دايڤد؟».

فأجبت بالنفي، ورجوتها ألا تدعني أذهب، وقلت بأن لا السيد ولا الآنسة ماردستون قد أحبّاني يوماً، أو أنهما كانا لطيفين معي، وبأنهما قد جعلا أمي، التي كانت تحبني دائماً بشكل كبير، جعلاها تعيسة من أجلي؛ وقد كنت أنا أدرك تعاستها تماماً، كما وأن پيغوتي كانت تدرك هذا أيضاً. وقلت إني كنت أكثر بؤساً مما كنت أعتقد، وأن ليس في وسع أي شخص أن يصدق بعد ذلك كم هو سني. ورجوت عمتي، والتمست أن ترعاني وتحميني كرمى لوالدي!».

قالت عمتي «ماذا عليّ أن أفعل بهذا الفتى يا سيد ديك؟».

وفكر السيد ديك، وتردد، ثم أشرق وجهه وقال «أن يؤخذ مقاسه لتفصل له بذلة في الحال!».

قالت عمتي وكأنما انتصرت «أعطني يدك، يا سيد ديك، لأن فهمك لا يقدر بثمن!» وبعد أن هزتها بمودة عظيمة، شدتني إلى ناحيتها وقالت للسيد ماردستون «في وسعكما أن تمضيا ساعة تشاءان؛ فإني سأجرب حظي مع الفتى، وإن كان كما قلتما عنه يمكنني أن أعامله، وقتذاك، مثلما عاملتماه أنتما على الأقل، غير أني لا أصدق كلمة واحدة مما قلتما عنه.

وهل تعتقد أنت أيها السيد أنني لا أعرف تلك الحياة التي كنت قد قدت إليها تلك الطفلة المضللة التعيسة؟».

وبعد أن أفرغت عمتي كل ما في صدرها، وصبت جام غضبها عليهما، واتهمتهما بأنهما قد حاولا أن يظهرا لها، أي لأمي، بمظهر الإنسانين الطيبين في البداية، ولا سيما السيد ماردستون الذي حاول أن يتودد إلي، ويظهر وكأنه بمثابة أب ثانٍ لي، كل ذلك كيما يتوصلا إلى أغراضهما؛ فقد ظهرا على حقيقتهما بعد ذلك. وراحت عمتي، بالإضافة إلى هذا، تسخر منهما، وتوجه إليهما التهم والإهانات، فيما كانت الآنسة ماردستون تتلوّى من الغيظ، وحاولت أن تقاطع عمتي التي استمرت في تعنيفها دون أن تبالي بها، وتهز أصبعها في وجه السيد ماردستون «كنت طاغية بالنسبة إلى تلك الطفلة البسيطة، يا سيد ماردستون، وقد حطمت لها قلبها. لقد كانت طفلة حبيبة؛ وكنت أعرف هذا فيها، كنت أعرفه قبل أن تراها أنت بسنوات. وكان واضحاً تماماً أن هذه الطفلة المسكينة الناعمة ستتزوج بشخص ما في يوم من الأيام! ولكني كنت آمل ألاّ يكون زواجها هذا بمثل هذه التعاسة التي كان عليها».

وطوال هذا الوقت كان السيد ماردستون يقف عند الباب، يراقبها وعلى وجهه شبح ابتسامة، مع أن جفونه السوداء لم تكن لترف إلاّ بتثاقل. ولاحظت آنذاك، بالرغم من الابتسامة التي كانت على وجهه، أن لونه كان قد غاب في ظرف لحظة، وبدا عليه أنه يتنفس كما لو أنه كان يركض.

وأخيراً قالت عمتي «طاب يومك، أيها السيد، ومع السلامة!» ثم استدارت فجأة نحو شقيقته وقالت «طاب يومك أنت أيضاً، أيتها السيدة! ودعيني أراك تركبين حمارك فوق العشب الأخضر، مرة أخرى، وكوني على ثقة بقدر ما أنت واثقة من أن لك رأساً فوق كتفيك، بأني سأنتزع لك قبعتك وأدوس عليها بقدمي».

كان ذلك المشهد بحاجة إلى رسام محترف، وليس إلى رسام عادي، كيما يصور وجه عمتي وهي تبوح بهذه العاطفة غير المتوقعة، ووجه

الآنسة ماردستون وهي تستمع إليها. لكن طريقة الكلام لم تكن بأقل شراسة وضراوة من إجابة الآنسة ماردستون الصامتة التي، دون أن تجيب بأي كلمة، شبكت يدها بذراع أخيها بمطلق الحرية، ومضت إلى الخارج بكبرياء.

وظلت عمتي واقفة خلف النافذة، تحدق إليهما وهي، دون أن يساورني أدنى شك، على أتم الاستعداد، في حال ظهور الحمار، لأن تنفذ تهديدها بشكل سريع.

وإذ لم تكن هناك ثمة محاولة للتحدي، فإن وجهها المتقلّص شرع بالارتخاء تدريجاً، وأصبح فرحاً للغاية، بحيث إني تجرأت لأن أقبّلها وأشكرها، وقد قمت بذلك بإخلاص كبير، بعد أن طوقت عنقها بكلتا يدي. ثم حيّيت السيد ديك، الذي راح يحييني لعدة مرات، كما حيّا هذه النهاية السعيدة لهذه الإجراءات بضحكات مدوّية متكررة.

وقالت عمتي «ستعتبر نفسك، بالاشتراك معي، قيماً على أمر هذا الفتى يا سيد ديك!».

وقال السيد ديك «سأكون سعيداً بأن أكون قيماً على ابن دايڤد!».

«عظيم! لقد انتهينا من هذا كله. ولكن هل تعرف يا سيد ديك أني كنت أفكر في أن أدعوه تروتوود؟».

فقال السيد ديك «طبعاً! طبعاً! فلندعه تروتوود، طبعاً. تروتوود ابن دايڤد!».

فقالت عمتي «أتعني تروتوود كوپرفيلد؟».

فأجاب السيد ديك وهو مرتبك قليلاً «أجل بالتأكيد، أجل تروتوود كوپرفيلد!».

وأُخِذَت عمتي بفكرة حياكة اسم تروتوود كوپرفيلد على جميع ثيابي الجاهزة، التي ابتيعت لي في بعد ظهر ذلك اليوم، وذلك بوساطة الإبرة والخيط والحبر الذي لا يمّحي قبل أن أرتديها.

وهكذا بدأت حياتي الجديدة، باسم جديد، وبكل شيء جديد من

حولي. والآن اضمحلت فكرة الشك، وشعرت، لعدة أيام، شعور من يكون في حلم. ولعل أوضح شيئين علقا في مخيلتي هما أولاً، المسافة البعيدة التي خيمت على الحياة القديمة في بلندرستون، وثانياً، الستار الذي انسدل إلى الأبد على فترة حياتي في مؤسسة ماردستون وغرينباي. ومنذ ذلك الحين لم يأت أحد يرفع هذا الستار، وقد رفعته أنا للحظة، بيد محجمة، حتى في هذه الرواية، ثم عدت وأسدلته بسرور، فذكرى تلك الحياة كانت مفعمة بالآلام بالنسبة إليّ، بحيث لم تكن لي الشجاعة حتى على محاولة معرفة المدة التي سيبقى محكوماً عليّ فيها باصطحاب مثل هذه الذكرى. ولكنني أعرف أنها كانت موجودة حقّاً، وأنها لم تعد، وبأني قد كتبت عنها وتركتها هناك.

*

سرعان ما أصبحت أنا والسيد ديك أفضل صديقين، وغالباً ما كنا نخرج لنطيّر تلك الطائرة الورقية الكبيرة معاً، عندما يكون قد فرغ من عمل يومه.

كنت اعتدت على أن أتصوّر أن منظره كان جد مؤثر وهو ينظر إلى تلك الطائرة وهي تحلّق في الأعالي، بينما تشد على يده، وتسحبها، ذلك أنه لم يكن يبدو صافياً في حياته، بمثل ما كان يبدو في ذلك الوقت. وقد اعتدت أن أتصوّر أيضاً، فيما أكون جالساً إلى جانبه في الأمسيات، عند أحد المنحدرات الخضراء، وأراه يراقب الطائرة وهي تلوح على ارتفاع كبير في الهواء الهادئ، بأنها كانت تنتزع عقله من خلال اضطرابه وتحلق به في السماوات. هكذا كان تفكيري الطفولي يصوّره لي.

وفيما كانت عرى الصداقة تتوثق بيني وبين السيد ديك كان حب عمتي لي في ازدياد، وأخذت، بعد مضي بضعة أسابيع، تختصر اسمي الاصطلاحي من تروتوود إلى تروت. حتى إنها قد شجعتني على أن آمل بأني، إذا ما استمررت كما بدأت، فقد أحتل مرتبة في قلبها بمستوى مرتبة شقيقتي بيتسي تروتوود، التي كانت ستولد عوضاً عني.

وفي مساء يوم قالت لي عمتي «تروت! يجب ألاّ ننسى مسألة دراستك. هل تود أن تمضي إلى مدرسة في كانترباري؟» وأجبت بأني سأكون جد سعيد بذلك، ولا سيما أن هذا سيكون بقربها. فقالت «حسناً! وهل تحب أن تمضي غداً إليها؟».

وبما أني لم أعد غريباً بالنسبة إلى سرعة تقلبات مزاج عمتي العامة، فلم أدهش بمفاجأة اقتراحها، فقلت «أجل!».

قالت عمتي «حسناً. استأجري، يا جانيت، الجواد الأشهب والعربة، غداً صباحاً، في الساعة العاشرة، واحزمي ثياب السيد تروتوود هذا المساء!».

وفي الصباح مضينا إلى كانترباري، حيث توقفت العربة أخيراً أمام منزل قديم، يبرز في نهاية الطريق، له نوافذ طويلة تبرز منه أيضاً بشكل ناتئ، وكانت الأعمدة ذات الأطراف المتعرِّجة ناتئة أيضاً، بحيث تصورت أن البناء بكامله كان ينحني إلى الأمام، فيما كنت أحاول أن أرى من يمشي على الرصيف الضيق تحت.

كان جد نظيف، لا تبدو عليه البقع، وكانت اليد النحاسية، ذات الطراز القديم، المثبتة والبارز فوق الباب بمثابة جرس، تتلألأ وكأنها نجم في كبد السماء. أما الدرجتان اللتان كانتا تقودان إلى الباب فكانتا من البياض بحيث يخيل إلى المرء أنهما ملفوفتان بقطعة نظيفة من القماش الأبيض. كما أنَّ جميع الزوايا والالتواءات والنتوءات، وزجاج النوافذ اللامع، بالرغم من أنها كانت قديمة قدم التلال، كانت نظيفة كالثلج الذي يتساقط فوق هذه التلال.

عندما توقفت العربة أمام الباب، رأيت وجهاً شاحباً يطل من خلال نافذة صغيرة في الطابق الأرضي، في زاوية صغيرة مستديرة كالبرج تمثل جانباً من جوانب هذا المنزل. وفتح عندئذ الباب الصغير البارز، وخرج منه ذلك الوجه، وكان مثلما بدا تماماً من خلال النافذة. كان صاحبه شاباً ذا شعر أحمر، يناهز الخامسة عشرة، كما أدركت ذلك الآن، ولكنه كان

يبدو أكبر من سنّه كثيراً، ولم تكن له جفون تقريباً،أو رموش، وكانت عيناه بلون بني ضارب إلى الحمرة، وليس لهما ما يحجبهما أو يظللهما، بحيث أذكر كم تساءلت كيف كان ينام. لقد كان مرتفع الكتفين، عظمي الشكل؛ يرتدي ثوباً أسود محتشماً، بالإضافة إلى قطعة بيضاء للرقبة، مزررة حتى حلقه. وكانت له يدان مهزولتان عظميّتان طويلتان، لفتتا انتباهي بشكل خاص، فيما كان يقف برأسه الضامر يحك ذقنه، ويحدق إلينا ونحن في العربة. قالت عمتي:

«هل السيد ويكفيلد في المنزل يا يوريا هيپ؟».

أجاب «أجل أيتها السيدة! إن السيد ويكفيلد في المنزل» وعاد يقول، وهو يشير بيده الطويلة إلى الغرفة التي يعني «إنه هناك إذا ما أحببت الدخول». ونزلنا من العربة، وسلمنا أمر الجواد له، ثم دلفنا غرفة استقبال مستطيلة تطل على الشارع، وهناك دخل علينا رجل ظريف، بعد أن فتح باباً من الناحية الثانية من الغرفة؛ وكان أشيب الشعر تماماً، مع أن حدقتي عينيه كانتا لا تزالان سوداوين وكان وجهه مرضياً كلياً، أما مظهره فقد كان ينم عن حالة رغد كتلك التي كانت لي منذ زمن قديم، عندما كنت أنعم برعاية پيغوتي. وتصورت أن هذه الحالة كانت قد انعكست في صوته كذلك، وقد عزوت بدانته إلى السبب ذاته. وكان حسن الهندام، يرتدي معطفاً أزرق، وصداراً مقلّماً، وبنطالاً قطنياً أصفر.

قال لعمتي «تفضلي بالدخول، يا آنسة بيتسي تروتوود».

وشكرته عمتي على حسن استقباله، ودلفنا إلى غرفته التي كانت مفروشة وكأنها أحد المكاتب، وكانت تشرف على حديقة، وفيها خزانة حديدية مثبتة داخل الجدار.

وعاد السيد ويكفيلد يقول «حسناً يا آنسة تروتوود، ما الأمر الذي جاء بك إلى هنا؟». وقد اكتشفت بسرعة أنه كان محامياً.

قالت عمتي «لم آت لأبحث قضية عمل. فهذا الفتى هو ابن أخي!».

فقال السيد ويكفيلد «لم أكن أعرف أن لك ابن أخٍ، يا آنسة تروتوود!».

قالت عمتي وهي تؤشر بيدها «لقد تبنّيته، وقد جئت به إلى هنا لألحقه بالمدرسة، حيث يمكن أن يتعلم جيداً، ويعامل بطريقة حسنة. والآن قل لي أين تقع تلك المدرسة وكل ما تعرفه عنها».

فقال السيد ويكفيلد متفكراً «حالياً لا يمكن أن يدخل ابن أخيك إلى المدرسة الداخلية الفضلى التي نريد، فاتركيه هنا في الوقت الحاضر، إنه فتى هادئ، ولن يزعجني أبداً. المكان هادئ كدير للرهبان، وفسيح مثل الدير كذلك. اتركيه هنا، وسيكون ثمة متسع من الوقت لإيجاد مكان ما أفضل في أثناء هذه الفترة، وسيمضي إلى مدرسة عادية!».

فقالت عمتي «إني جد ممتنة لك. وسأكون سعيدة للغاية بأن أتركه هنا!».

وقال السيد ويكفيلد «إذاً، تعالي وشاهدي مديرة منزلي الصغيرة!».

وبناء على طلبه صعدنا سلماً قديماً هشّاً، ثم دخلنا إلى غرفة استقبال معتمة، يتسرب إليها النور من خلال ثلاث أو أربع نوافذ من تلك النوافذ الظريفة التي كنت قد شاهدتها من الشارع.

وطرق السيد ويكفيلد باباً يقوم في زاوية جدار ملبَّس، فخرجت على عجل فتاة في مثل عمري تقريباً، وقبّلته. ومع أن وجهها كان مشعاً باسماً، فقد كان يغلفه شيء من الطمأنينة والسلام، وكانت تغلفها هي روح هادئة صافية، وطيبة، لم أنسها يومها، ولن أنساها أبداً.

قال السيد ويكفيلد إن آغنيس ابنته وإنها هي مديرة شؤون منزله الصغيرة. واقترح بعد ذلك على عمتي أن نصعد ونرى غرفتي، فمضينا معاً، وكانت هي تتقدمنا؛ وكانت الغرفة رائعة، وفيها المزيد من أعمدة خشب السنديان، وزجاج النوافذ الماسي.

وليس في وسعي أن أتذكر أين ومتى كنت قد رأيت في طفولتي زجاجاً ملوناً في إحدى الكنائس، ولم أكن أستطيع أن أتذكر مادته كذلك. ولكنني أدرك الآن بأني عندما رأيتها تستدير في ذلك الضوء الخافت، عند السلم القديم، وتقف تنتظرنا فوق، رحت أفكر بتلك النافذة. وقد امتزج شيء من لمعانها الهادئ بآغنيس ويكفيلد منذ ذلك الوقت.

كانت عمتي فرحة بقدر ما كنت أنا فرحاً بهذه الإجراءات الجديدة بالنسبة إليّ. وأعلمتني لتوّها بضرورة ألاّ أرغب في أي شيء آخر، ثم أسمعتني ألطف الكلمات، وأفضل النصائح.

وفي النهاية قالت عمتي «تروت، كن مفخرة لنفسك، ولي، وللسيد ديك. ولتكنِ السماء معك! لا تكن خسيساً في أي أمر أبداً، ولا تكن زائفاً، أو قاسياً أبداً. تحاشَ هذه النقائص الثلاث يا تروت، ويمكنني أنا أن أكون كثيرة الرجاء بك دائماً».

ووعدتها، بقدر ما أستطيع من عاطفة وصدق، بأني لن أسيء إلى لطفها أو أنسى عظاتها.

«إن الجواد والعربة عند الباب، وأنا ذاهبة! ابق أنت هنا».

بهذه الكلمات ضمتني عمتي إليها بسرعة، واندفعت خارج الغرفة وهي تغلق الباب خلفها.

وعند الساعة الخامسة، وهي الساعة المحدّدة لموعد العشاء، استجمعت معنوياتي من جديد، وحضّرت نفسي لآكل بالشوكة والسكين. وبعد العشاء صعدنا للمرة الثانية إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي. وفي إحدى الزوايا المرتبة، حيث تضع آغنيس الكؤوس لأبيها، مع زجاجة من الخمر؛ جلس السيد ويكفيلد وشرع باحتساء الخمرة لمدة ساعتين، وأظن أنه شرب كمية كبيرة منها. وفيما كانت آغنيس تعزف على البيان كانت تقوم على خدمة أبيها وتحادثه وتحادثني، وكان هو، معظم الوقت، فرحاً ومبتهجاً بنا، ولكن عينيه كانتا في بعض الأحيان تستقران عليها، فيصمت ويذهب في غيبوبة من التأمل. وكانت هي، كما أعتقد، تنتبه إلى ذلك بسرعة دائماً، ودائماً كانت تنتشله من هذه الوهدة بسرعة، بسؤال ما أو ببعض المداعبات، وعندئذ كان يتنبه من تأمله ويزيد من شربه.

وأعدّت آغنيس الشاي، وأشرفت على تقديمه؛ وبعد ذلك مر الوقت، كما مر بعد طعام العشاء، إلى أن حان وقت ذهابها إلى الفراش، وعند ذلك توجّهت أنا إلى فراشي أيضاً.

غير أني ما لبثت أن هبطت السلم وخرجت من الباب، وسرت قليلاً في الشارع، على أمل التمتع بمشاهدة المنازل القديمة، والكاتدرائية الداكنة. ولما عدت شاهدت يوريا هيپ وهو يقفل المكتب، وبما أني كنت أشعر بالصداقة والمودة نحو كل إنسان، فقد دخلت وتحدّثت إليه، وعندما فارقته مددت له يدي، ولكن آه كم كانت يده دبقة، مخيفة عند لمسها بقدر ما كانت عند رؤيتها! وبعد ذلك فركت يدي كيما أدفئها وأزيل عنها أثر يده. كانت يداً غير مريحة، بحيث إنها كانت لا تزال باردة ولزجة في ذاكرتي، عندما صعدت إلى غرفتي.

في صباح اليوم التالي، وبعد طعام الفطور، دخلت الحياة المدرسية من جديد. ورحت أتخيّل دراساتي القادمة،وقُدِّمت إلى أستاذي الجديد الدكتور سترونغ. وقد كان الدكتور سترونغ يبدو صدئاً، بالنسبة إلى تفكيري، بقدر ما كانت خطوط القطارات والأبواب الحديدية خارج المنزل. وقد وجدناه في مكتبه، وهو عاكف على العمل، وكانت ثمة سيدة حسناء تقف على مقربة منه، وقد ناداها باسم آني، وقدمها على أنها زوجته. ثم مضى بنا إلى غرفة الدراسة.

كانت غرفة واسعة جداً، تقوم في أهدإ مكان من المنزل، تطل على حديقة تخص الدكتور، حيث ينضج فيها الخوخ فوق الجدار الجنوبي المشمس. وكان حوالى خمسة وعشرين تلميذاً مكبين على كتبهم عندما دلفنا إلى الداخل، على أنهم هبوا واقفين ليلقوا على الدكتور تحية الصباح، وظلوا واقفين عندما رأوني ورأوا السيد ويكفيلد. قال الدكتور:

«إنه تلميذ جديد، أيها الفتيان! ويدعى تروتوود كوپرفيلد» وللتوّ اندفع أحدهم من مكانه، وكان اسمه أدامس، وهو رئيس التلامذة، ورحب بي. كان جد لطيف، وذا وجه بشوش، وأراني مكاني، وقدمني إلى المعلمين، بطريقة ظريفة للغاية أشعرتني بالراحة التامة.

وخيل إليّ بأنه مضى وقت طويل، منذ أن كنت بين مثل هؤلاء التلاميذ، بحيث شعرت بأني غريب كما لم أشعر في حياتي.

على أنَّ كل ما كنت تعلمته كان قد هجرني بسبب اضطرابات حياتي

من يوم إلى يوم، وغدوت الآن، عندما امتحنوني، وكأني لا أعرف شيئاً البتة، وأُلحقت بأدنى صف في المدرسة.

والذي زاد في قلقي وكربي هو تساؤلي عما سيقول عني رفاقي الجدد إذا كانوا قد رأوني أجتاز منطقة كانترباري وأنا منهك، فيما كنت أرتدي أسمالاً بالية. وماذا لو حاولوا أن يتنسموا أحوالي؟ كل هذا كان يدور في رأسي بشكل فظيع ذلك اليوم في مدرسة الدكتور سترونغ، بحيث إني كنت أبتعد كلما اقترب مني تلميذ، ولذت بالهرب بعد ذلك حالما انتهى وقت الدراسة.

ولكن كان ثمة تأثير ما في منزل السيد ويكفيلد القديم، إذ ما إن رحت أطرق بابه، وكتبي المدرسية الجديدة تحت إبطي، حتى بدأت أشعر بقلقي يتلاشى وأهدأ تماماً.

كانت آغنيس في غرفة الجلوس تنتظر مجيء والدها الذي كان قد تأخر في المكتب بسبب انشغاله بأحد الأشخاص، فاستقبلتني بابتسامتها الفرحة،وسألتني عمّا إذا أحببت المدرسة، فأجبتها بأني أحببتها كثيراً كما أملت، إلاّ أني شعرت أنني غريب في البداية. ثم سألتها:

«ألم تذهبي إلى المدرسة قط؟».

«أه، أجل، كل يوم!».

«هل تعنين أنك درست هنا في المنزل؟».

فأجابت وهي تبتسم «إن أبي لم يستطع أن يبعث بي إلى أي مكان آخر».

فقلت «أنا أكيد من أنه متعلق بك كثيراً».

«أجل» هزت برأسها، ثم مضت إلى الباب تسترق السمع. وعادت تستأنف كلامها بطريقتها الهادئة «لقد ماتت والدتي منذ أن ولدت. أصغ، ها هو والدي آت الآن!».

وشع وجهها المتلألئ الهادئ بالفرح فيما كانت تسير لاستقباله. وفيما كانا يدخلان الغرفة، ويده بيدها، حياني بكثير من الود، وقال لي إني، دون شك، يجب أن أكون سعيداً في مدرسة الدكتور سترونغ، الذي

كان واحداً من أظرف الرجال وأفضلهم.

جُهّز العشاء عندئذ، ثم هبطنا إلى الطابق الأرضي؛ وبعد ذلك عدنا وصعدنا إلى الطابق العلوي من جديد، حيث جرى كلّ شيء كما في اليوم السابق تماماً، إذ قامت آغنيس بإعداد الشاي، وبعد ذلك، وعندما جئت بكتبي المدرسية، أخذتها آغنيس وراحت تتفحصها وتقلب أوراقها، وترشدني إلى أفضل طريقة يمكنني أن أدرس وأتعلم بها.

وبعد أن مضت هي إلى الفراش، وكنت أنا على وشك الذهاب أيضاً، إذا بالسيد ويكفيلد يستوقفني ويسألني:

«هل تود أن تسكن معنا يا تروتوود، أو أنك تود أن تنتقل إلى مكان آخر؟».

فأجبت سريعاً «أود أن أبقى هنا!».

فقال «هل أنت متأكد؟ أخشى ألاّ تحب ذلك، فالحياة التي نعيشها هنا حياة كئيبة!».

«ليست كئيبة بالنسبة إليّ بأكثر ممّا هي بالنسبة إلى آغنيس يا سيدي. كلاّ إطلاقاً!».

«بأكثر ما هي بالنسبة إلى آغنيس!» كرر فيما كان يسير بتؤدة نحو حافة المدفأة الكبيرة، ويتكئ بمرفقه عليها «بأكثر ما هي بالنسبة إلى آغنيس!».

كان قد شرب في تلك الليلة نبيذاً إلى أن تورمت عيناه وغدتا حمراوين بلون الدم، وراح يدمدم دون أن يتكلم إليّ، وإنما كان يفكر بصوت مسموع، ولذلك فقد بقيت هادئاً.

«والآن، إني أتساءل ما إذا كانت آغنيس قد بدأت تملني، منزل قديم موحش، وحياة كئيبة! ولكن يجب عليّ أن أبقيها بقربي. وإن فكرت بأني قد أموت وأترك حبيبتي، أو أن حبيبتي قد تموت وتتركني...».

وظل متكئاً على حافة المدفأة وقتاً طويلاً. وفي النهاية استدار وحدق إلي وقال بأسلوبه المعتاد، وكأنه كان يجيب على شيء ما سبق أن قلته «ابق معنا يا تروتوود! فأنت صديق لنا نحن الاثنين. وستبقى هنا ما دمت سعيداً».

شكرته، وعلى الأثر هبط إلى الطابق الأرضي. وبما أني لم أكن متعباً فقد نزلت أنا أيضاً وبيدي كتاب، وإذ رأيت النور في غرفة المكتب الصغيرة المستديرة، انتابني شعور في الحال، وأحسست على إثره بأني متأثر بالسيد يوريا هيپ، الذي كان له علي بعض من السحر والتأثير، فقد دلفت إلى الداخل، وألفيت السيد يوريا هيپ يقرأ في كتاب ضخم جداً، وباهتمام كبير، بحيث كانت سبابته الضامرة تتبع كل سطر وهو يقرأه، وتترك على الصفحة آثاراً لزجة كآثار البزاق؛ أو أن هذا كان من وحي اعتقادي. قلت له:

«إنك تعمل لساعة متأخرة هذه الليلة يا يوريا!».

فأجاب: «أجل يا سيد كوپرفيلد!».

وفيما كنت أتخذ مجلسي على الكرسي المواجه، كيما أتمكن من التحدث إليه بطريقة أكثر ملاءمة، لاحظت أنه لم يكن يعرف أي شيء يطلق عليه اسم ابتسام؛ وإنما كل ما كان يستطيع أن يفعله هو أن يمطّ فمه، ويجعل في أسفل خديه ثنيتين، واحدة عند كل خد، وذلك للترحيب بأي شخص.

وعاد يقول «أنا لا أقوم بأعمال المكتب، ولكني أوسع خبرتي الشخصية بالقانون، يا سيد كوپرفيلد!».

«أعتقد أنك محامٍ عظيم تماماً!؟» قلت بعد أن رحت أتفحصه لفترة من الوقت.

«أنا يا سيد كوپرفيلد؟ آه! كلاّ! إني شخص متواضع جدّاً! وأدرك تماماً أني أكثر الناس تواضعاً على وجه الأرض». قال السيد يوريا هيپ باحترام. ثم أضاف «وأمي كذلك إنسانة متواضعة للغاية!».

وسألت يوريا عما إذا كان مضى عليه وقت طويل في العمل لدى السيد ويكفيلد. فأجابني وهو يغلق كتابه «إني أعمل معه منذ أربع سنوات يا سيد كوپرفيلد. بدأت العمل معه بعد وفاة والدي بعام واحد، ويجب أن أكون جد ممتنٍ للطف السيد ويكفيلد في إعطائي دروساً لم يكن في وسعي أن أفهمها في هذه المهنة».

قلت «إذاً، عندما تنتهي من دروسك هذه ستصبح محامياً عادياً، كما أعتقد، وربما تصبح شريكاً للسيد ويكفيلد في العمل، في يوم من الأيام،ويصبح المكتب باسم ويكفيلد وهيپ».

فأجاب يوريا وهو يهز رأسه «آه، كلاّ يا سيد كوپرفيلد! إني أقل تواضعاً من أن أحصل على هذا. إن السيد ويكفيلد رجل عظيم ورائع، يا سيد كوپرفيلد».

فأجبت بأني كنت متأكداً من أنه ذلك الرجل الذي يصف حقاً، وأضفت أني لم أكن أعرفه منذ وقت طويل، وإنما كان صديقاً لعمتي.

فقال يوريا «آه، حقاً يا سيد كوپرفيلد! إن عمتك سيدة لطيفة، يا سيد كوپرفيلد». وكانت له طريقة جد قبيحة في التلوي والتململ بجسمه عندما يريد أن يعبر عن بعض الحماسة. وأضاف «أجل، إنها سيدة لطيفة. وأعتقد أنها معجبة جدّاً بالآنسة آغنيس يا سيد كوپرفيلد، وآمل أن تكون أنت معجباً بها أيضاً!».

قلت «إني متأكد من أن على كل إنسان أن يعجب بالآنسة آغنيس».

فقال «آه، شكراً، يا سيد كوپرفيلد، لهذه الملاحظة. إنها صحيحة. آه! شكراً يا سيد كوپرفيلد».

وتململ في كرسيه، ثم نهض على أثر هياج مشاعره، وراح يقوم ببعض الاستعدادات للذهاب إلى منزله، ولكنه أردف يقول:

«إن والدتي تتوقع وصولي الآن، وقد تكون قلقة، لأننا بالرغم من كوننا جد متواضعين، يا سيد كوپرفيلد، فإننا متعلّقان واحدنا بالآخر كثيراً. وإن جئت لزيارتنا في بعد ظهر أحد الأيام، وشربت قدحاً من الشاي في منزلنا المتواضع، فستكون أمي فخورة بصحبتك بقدر ما سأكون أنا تماماً».

«سأكون سعيداً بهذه الزيارة».

ومضيت إلى المدرسة في اليوم التالي، وفي أقل من أسبوعين غدوت سعيداً للغاية هناك بين رفاقي الجدد.

كانت مدرسة الدكتور سترونغ مدرسة رائعة، ومختلفة عن مدرسة

السيد كريكل بقدر الاختلاف بين الفضيلة والنقيصة. وقد كان يلتحق بمدرستنا بعض التلامذة الذين هم في مرتبة أعلى من العلم؛ ومن خلالهم تعلمت بعض الخصائص التي ينفرد بها الدكتور، مثلاً، كيف كانت تنسب إليه طريقته في انهماكه الدائم في البحث عن جذور اللغة اليونانية، هذه الجذور التي كنت أظنها، لسذاجتي وجهلي، أنها متعلقة بعلم النبات، خصوصاً وأن الدكتور سترونغ كان ينظر دائماً إلى الأرض في سيره؛ إلى أن أدركت أخيراً بأنها كانت جذور كلماتٍ تتعلق بقاموس لغوي كان يفكر بوضعه. وقد قام، أدامس، رئيس التلامذة فينا، بحساب الوقت الذي سيستنفده هذا القاموس حتى يفرغ منه، وذلك حسب همّة الدكتور، وقال إنه يعتقد أن وضعه قد يتم في خلال ١٦٤٩ سنة، وذلك بدءاً من العام الثاني والستين لمولد الدكتور.

ولكن الدكتور نفسه كان معشوق المدرسة بكاملها، ولا شك في أنها كانت لتكون مدرسة سيئة التصنيف لو أنَّ رجلاً غيره كان يديرها، لأنه كان ألطف وأفضل الرجال قاطبة؛ وكانت رؤيته، وهو يسير مع زوجته الجميلة، تبعث على البهجة والفرح.

وبما أني قد استقريت في مدرسة الدكتور سترونغ، فقد كتبت رسالة مطولة إلى پيغوتي، فأجابتني عليها بأسرع ما يمكن، وكتبت إليَّ بعضاً من الأخبار، أثرت فيَّ كثيراً، أعني بأن بيعت جميع المفروشات في منزلنا القديم، وبأن السيد والآنسة ماردستون قد تركاه. ولم تكن ثمة أخبار أخرى في رسالة پيغوتي، سوى أن باركيس كان زوجاً رائعاً، كما قالت، مع أنه كان لا يزال خسيساً بعض الشيء. وكان السيد پيغوتي وهام في تمام الصحة والعافية. أما إميلي الصغيرة فقد كانت تبعث إليَّ بحبها.

جميع هذه الأخبار قصصتها على عمتي التي زارتني عدة مرات في كانترباري، وقد كنت أراها في يوم السبت من كل ثالث أو رابع أسبوع من الشهر، عندما أذهب إلى دوڤر.

7

كنت أرى السيد ديك كل يوم أربعاء، عندما كان يجيء في مركبة سفر، ويصل مع حلول الظهيرة، ويمكث حتى صباح اليوم التالي. وقد كانت أيام الأربعاء هذه من أسعد الأيام في حياته، حيث كان يقوم ببعض الألاعيب المسلية، الأمر الذي أدهشنا نحن جميعاً.

بيد أنَّ صيته لم يبق محصوراً بنا مدة طويلة، فبعد زيارات متكرّرة، راح الدكتور سترونغ نفسه يستوضحني عنه، فقصصت عليه أنا كل ما كانت عمتي قد أخبرتني به عنه، فأُعجب الدكتور كثيراً بما أخبرته، إلى درجة أنه التمس مني أن أقدّمه إليه في زيارته القادمة.

وهذا ما حصل؛ وكان السيد ديك، حتى بعد أن قامت بينه وبين الدكتور سترونغ صداقة متينة، ينزع قبعته عن رأسه في أثناء سيرهما معاً في تلك الساعة، في ذلك الجانب من الفناء الذي كان يُعرف بيننا بممشى الدكتور. كان ينزع قبعته بين الحين والآخر ليظهر احترامه لفطنة الدكتور ومعرفته. ولكن كيف حدث أن شرع الدكتور يقرأ بعض الفقرات من قاموسه المشهور في هذه النزهات، فإني لم أدرِ قط.

مهما يكن من أمر، فقد غدا هذا الأمر عنده عادة مألوفة أيضاً. أما السيد ديك، الذي كان يستمع إليه بوجه يشع بالإعجاب والسرور، فقد كان في صميم قلبه يعتقد أن هذا القاموس سيكون أعظم قاموس مبهج في العالم أجمع.

وقد غدت آغنيس صديقة حميمة للسيد ديك بسرعة تامة. وبسبب تردّده الدائم، تقريباً، على المنزل فقد تعرّف إلى يوريا أيضاً.

وفي صباح أحد أيام الخميس، كنت قد رافقت السيد ديك من النزل إلى مكتب الحجز، وقبل أن أعود إلى المدرسة، التقيت يوريا في الشارع، وقد ذكّرني بوعدي بأني سأزوره وأشرب الشاي معه ومع والدته.

وأضاف وهو يهز جسمه دائماً كعادته «ولكنني لا أتوقع منك أن تفي بهذا الوعد، يا سيد كوپرفيلد، فنحن جد وضيعين!».

أجبته بأني سأعلم السيد ويكفيلد بذلك، وإذا وافق، وليس عندي شك بذلك، فسآتي لزيارته بكل سرور. وما توقّعته كان، ففي الساعة السادسة مساء، وكان المكتب قد أُقفل باكراً، أعلمت يوريا بأني على أهبة الاستعداد للذهاب معه.

قال لي فيما كنا نسير معاً في الشارع «إن والدتي ستكون جد فخورة بك، حقاً!».

وسألته «هل كنت عاكفاً على دراسة القانون في هذه المدة؟».

فأجاب بشيء من إنكار الذات «آه، من الصعب حقاً أن يقال عن قراءتي إنها دراسة، يا سيد كوپرفيلد. أه، هذا هو منزلنا المتواضع يا سيدي!».

ودخلنا من الشارع مباشرة إلى غرفة منخفضة، ذات طراز قديم؛ ووجدنا السيدة هيپ قابعة هناك؛ فاستقبلتني بتواضع مطلق، وقد كانت شبيهة بابنها تماماً، غير أنها قصيرة القامة. واعتذرت مني حين قبّلت ابنها، وعقبت قائلة إنهما بالرغم من كونهما وضيعين، فإن لهما مشاعرهما الخاصة التي لا تضرّ أحداً، وأعلنت لابنها فيما كانت تقوم بتحضير الشاي «إني على ثقة، يا يوريا، بأن هذا اليوم لن يمحى من الذاكرة لأنه قد شهد زيارة السيد كوپرفيلد لنا!».

لاحظت أن السيدة هيپ كانت تقترب مني تدريجاً، وأن يوريا يتخذ مجلسه قبالتي تماماً؛ وراحا يلحان عليَّ باحترام أن أتناول شيئاً من الطعام الذي كان على المائدة. وشرعا بعد ذلك يتكلمان عن العمّات، فكلمتهما أنا عن عمتي؛ ثم انتقلا إلى الحديث عن الأمهات والآباء، وأخبرتهما أنا عن أمي ووالدي. ثم راحت السيدة هيپ تتكلم عن أزواج الأمهات، وشرعت أنا عندئذ أكلمها عن زوج أمي. ولكني سرعان ما صمتّ لأن عمتي كانت قد نصحتني بأن أبقى صامتاً

بخصوص هذا الموضوع. ولكن لم يكن في وسع سدادة ركيكة من الفلين أن تصمد أمام المِبرام(*) أو في وسع سن ضعيفة متخلخلة أن تصمد أمام طبيبي أسنان، بأكثر ما كان في وسعي أنا أن أصمد أمام يوريا والسيدة هيپ.

كانا يحصلان على ما يريدان مني، وكانا يستخرجان مني الأخبار، التي لم أكن أود البوح بها، بشيء كبير من الثقة، بحيث إنني أخجل عندما أفكر بهذا الأمر الآن.

وقد كانا يتناوبان الكلام، فمن السيدة هيپ إلى يوريا، ومن يوريا إلى السيدة هيپ، وبالعكس، إلى أن غدوت لا أعلم من الذي كان يتكلم، وبالتالي من الذي كان يحمل الكرة؛ حتى إن هذه الكرة ذاتها كانت تتغير؛ فآناً تكون السيد ويكفيلد، وآونة الآنسة آغنيس، وتارة براعة السيد ويكفيلد، وطوراً الإعجاب بالآنسة آغنيس. وهكذا أخذ الحديث يتشعب حتى راحا يتطرقان به إلى حياتي الخاصة؛ ووجدتني أخيراً أبوح بأشياء لا شأن لي بها، أو بالكلام عنها.

وكنت قد بدأت أشعر بالقلق، ورحت أتمنى في دخيلتي أن أنهي زيارتي عندما عبر فجأة شكل إنسان من أمام الباب، وهو يسير في الشارع، وقد كان هذا الباب مفتوحاً كيما يسمح بدخول الهواء، إذ إن الجو كان حارّاً؛ وعاد شكل الإنسان هذا ليبرز عند الباب من جديد، ثم نظر إلينا ودخل الغرفة وهو يهتف بصوت عالٍ «كوپرفيلد! هل هذا معقول؟».

كان السيد ميكاوبر! السيد ميكاوبر بنظارته الزجاجية، ذات العين الواحدة، وعصاه وياقة قميصه، وروحه المرحة، ولهجة صوته اللطيفة، وكل شيء فيه تماماً!

قال السيد ميكاوبر وهو يمد إليّ يده «عزيزي كوپرفيلد، إن هذه

(*) نازعة السدّادات الفلينية.

المقابلة مشهودة؛ المرور في الشارع، والتحقق من شيء يظهر للعيان فأجده صديقاً عزيزاً، بحيث أشعر الآن أني جد واثق من ذلك. كوپرفيلد، كيف حالك يا عزيزي؟».

حيّيته بحرارة، وسألته عن حال السيدة ميكاوبر. فأجابني «شكراً لك! إنها في تمام الصحة، وستكون جد سعيدة أن تراك من جديد، يا كوپرفيلد!».

وأعربت له عن رغبتي في رؤيتها أيضاً. ثم عرّفته بالسيدة هيپ وابنها يوريا، فاتخذ له مجلساً فيما كان يؤشر بيده على طريقته المحتشمة ويقول:

«إنَّ أي صديق لصديقي كوپرفيلد يعتبر صديقاً لي».

وقالت السيدة هيپ «إننا جد متواضعين يا سيد! وأنا وابني صديقان للسيد كوپرفيلد. وقد تلطّف وجاء يحتسي قدحاً من الشاي معنا، بفعل طيبته، ونحن شاكران له صداقته؛ ولك أيضاً أيها السيد، لقاء ملاحظتك».

وقال السيد ميكاوبر وهو ينحني احتراماً «أنتِ جد كريمة يا أماه!».

وقلت كيما أُبعد السيد ميكاوبر «هل سنمضي الآن لزيارة السيدة ميكاوبر؟».

فأجابني وهو يهب واقفاً «إذا أحببت أن تتكرم عليها بهذا الفضل! طابت ليلتك يا سيد هيپ! وأنا خادمك يا سيدة هيپ!» ثم اندفع معي إلى الخارج بطريقته المهذبة جدّاً؛ وراح يحدث بحذائه جلبة فيما كنا نمشي على الرصيف، ويدندن بأحد الألحان.

كان السيد ميكاوبر يشغل غرفة صغيرة، في نُزُلٍ صغير. وقد دهشت السيدة ميكاوبر لرؤيتي، إلاّ أنها كانت جد مسرورة. وكنت أنا كذلك سعيداً جداً برؤيتها، وبعد المجاملات الودية، من كلا الجانبين، اتخذت مجلسي فوق الأريكة الصغيرة إلى جانبها.

قال السيد ميكاوبر «إن كنت ستخبرين كوپرفيلد، يا عزيزتي، عن وضعنا الحاضر، فإني سأمضي وأطالع الجريدة لأرى ما إذا كان قد ظهر شيء في صفحة الإعلانات».

وقلت للسيدة ميكاوبر فيما كان السيد ميكاوبر يخرج «لقد ظننت أنكما في بلايماوث يا أماه!».

فأجابتني «لقد ذهبنا إلى بلايماوث يا عزيزي كوپرفيلد!».

قلت «أليتسلم وظيفته؟».

فقالت «أجل بالضبط! ليتسلم وظيفته. ولكن الحقيقة هي أن النبوغ ليس مرغوباً في القطاع الجمركي، إذ إنهم بالمعنى الصحيح لا يريدون رجلاً في مقدرة السيد ميكاوبر، لأنه كان سيظهر عدم كفاءة الآخرين».

فهتفت «يا إلّهي!».

وقالت السيدة ميكاوبر «أجل! هذا ما حصل، وأمام هذه النتائج، لم يبق لنا سوى مجال واحد... هو أن نستقرض بعض المال من عائلتي ونعود إلى لندن».

فقلت «إذاً، ستعودون جميعاً، من جديد، يا أماه؟».

أجابت «أجل؛ ومنذ ذلك اليوم، تباحثت مع أفراد آخرين في عائلتي بشأن الطريق التي ينبغي على السيد ميكاوبر أن يسكلها، وكان من رأيهم أن يوجه اهتمامه، في الحال، إلى صناعة الفحم».

«إلى ماذا؟».

«إلى صناعة الفحم الحجري! وقد ظنّ السيد ميكاوبر أنه سيكون ثمة مجال لإظهار نبوغه في مؤسسة ميدواي للفحم الحجري. وحين أعلن السيد ميكاوبر رأيه الصحيح بأن أول خطوة ينبغي اتخاذها هي أن نأتي ونرى ميدواي، فقد جئنا ورأيناها! وأقول «جئنا» يا سيد كوپرفيلد». وكانت تنطق بهذه العبارة التالية بانفعال «لأني لا أريد أن

أهجر السيد ميكاوبر أبداً! وقد كان رأيي في مصلحة الفحم هذه، عند ذلك النهر، بأنها قد تتطلب النبوغ، ولكنها تتطلب رأس المال دون شك. والنبوغ موجود لدى السيد ميكاوبر؛ أما رأس المال فليس موجوداً».

وأخذت السيدة ميكاوبر نفساً عميقاً ثم أضافت «وبما أننا قريبون جداً، فقد ظن السيد ميكاوبر أنه سيكون من الفطنة أن نأتي إلى هنا، على أمل أن يحدث شيء في مدينة الكاتدرائية. وقد مضى علينا هنا ثلاثة أيام! وحتى الآن لم يحدث أي شيء! وفي الوقت الحاضر ننتظر أن يصلنا مبلغ من المال، من لندن، لندفع حساب النزل؛ وإلى أن يصل هذا المبلغ فسأبقى بعيدة عن أولادي وعن منزلي».

شعرت بالعاطفة والأسى نحو السيد والسيدة ميكاوبر في ضائقتهما المادية، وقد عبرت عن ذلك للسيد ميكاوبر عندما عاد.

وعندما أردت العودة، راحا يتوسلان إليّ بإلحاح كيما آتي وأتناول معهما طعام العشاء قبل أن يغادرا، بحيث إنه لم يكن في وسعي أن أرفض هذا التوسُّل.

وفيما كنت أنظر عبر النافذة، في ذلك المساء ذاته، فوجئت، وبالتالي شعرت بعدم الارتياح، لرؤية السيد ميكاوبر ويوريا هيپ يعبران في الشارع ويد أحدهما بيد الآخر. كان يوريا يشعر بذلك الشرف الذي أحرزه؛ أما السيد ميكاوبر فقد كان يشعر ببهجة رقيقة في امتداد عنايته إلي يوريا!

ولشد ما كانت دهشتي شديدة، عندما مضيت إلى النزل الصغير في اليوم التالي، في ساعة العشاء المحددة، والتي كانت في الساعة الرابعة، وسمعت بأن السيد ميكاوبر قد مضى مع يوريا، وشرب البراندي الممزوج والماء، في منزل السيدة هيپ!

قال لي السيد ميكاوبر «سأوضح لك حقيقة الأمر يا كوپرفيلد! لو

كنت أعرف صديقك يوريا هيپ في ذلك الوقت، الذي بلغت فيه ضائقتي المادية ذروتها، واشتدت أزمتها عليّ، لكانت، وهذا كل ما أستطيع أن أقوله، قد انتهت أمور ديوني، بشكل أفضل ممّا انتهت عليه!».

تناولنا وجبة لذيذة جداً على العشاء وشربنا النبيذ. وبعد ذلك قدّمت لنا السيدة ميكاوبر وعاء من المشروب الساخن. وقد كان السيد ميكاوبر يشعر بالسرور والبهجة بشكل غير طبيعي، بحيث يمكنني أن أقول إنه لم يسبق لي قط ورأيته جليساً طيباً بهذا الشكل. ولذا لم أكن جاهزاً في صباح اليوم التالي، كي أتسلم الرسالة التالية، التي كانت مؤرخة في تمام الساعة التاسعة والنصف ليلاً، أي بعد ربع ساعة من عودتي من زيارته:

«صديقي العزيز

«لقد انتهى كل شيء! وبما أني كنت أحجب جميع مخاوفي وراء ستار البهجة، فلم أعلمك هذا المساء بأنه لم يعد ثمة أمل بوصول أي مبلغ من المال، وفي هذه الحالة، فقد أنهيت أمر حساب النزل بأن أعطيتهم إقراراً بخط يدي بأن يتم الدفع في ظرف أربعة عشر يوماً، في منزلي في بانثيڤيل، في لندن، وعندما سيحين وقت سداده لن يسدد، وستكون النتيجة: الخراب».

«هذه هي الكلمة الأخيرة، يا عزيزي كوپرفيلد، التي لن تتسلم سواها أبداً من الشريد».

«ويلكنز ميكاوبر»

وقد صدمت كليّاً بهذه الرسالة، بحيث أسرعت إلى ذلك النزل الصغير، في طريقي إلى مدرسة الدكتور سترونغ، لأحاول مؤاساة السيد ميكاوبر. ولكن في منتصف المسافة إليه شاهدت عربة لندن وفي مؤخرتها السيد والسيدة ميكاوبر. كان السيد ميكاوبر، الصورة التامة

للسرور، يبتسم لحديث زوجته، ويأكل المكسرات، التي في كيس من الورق، بالإضافة إلى زجاجة تبرز من جيب صداره. وبما أنهما لم يرياني، فقد اعتقدت أن من الأفضل ألاّ ألفت نظرهما إليّ.

*

والآن، فلأنظر إلى الوراء وأحاول أن أرى ما إذا كانت ثمة آثار وأحداث تمكنني من أن أتذكر أيام دراستي، وشريط حياتي غير المرئي، وغير المحسوس به، منذ عهد الطفولة حتى عهد الشباب.

لقد بلغت في الأدب الدراسة العليا؛ وعلى وشك أن أصبح عظيماً في الأشعار اللاتينية؛ وقد كان الدكتور سترونغ يقول عني جهراً إني التلميذ المرجو! وكان فرح السيد ديك بي عظيماً في تلك الأيام.

كان الزمن قد مر سريعاً، دون أن ينتبه إليه أحد؛ إذ إن أدامس لم يعد رئيس التلامذة، حتى إن زمن رئاسته لم يدم طويلاً بعد مجيئي إلى المدرسة، إذ سرعان ما أخذت مكانه، وأصبحت أنا الآن رئيس التلامذة.

وإني أتساءل، أين هي تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها في منزل السيد ويكفيلد في يومي الأول؟ لقد اختفت أيضاً. آغنيس، أختي الرقيقة، كما كنت أدعوها في أفكاري، ومنجدتي وصديقتي، لقد أصبحت الآن فتاة كبيرة، وامرأة تقريباً.

وإني أشك في ما إذا كنت سعيداً قلبياً أم تعيساً، عندما كانت أيام دراستي تقترب من نهايتها، وحين حان الوقت لأغادر مدرسة الدكتور سترونغ. وكنت أقوم أنا وعمتي بعدة مداولات جدية حول العمل الذي يجب أن أقوم به.

قالت لي عمتي في صباح يوم من أيام عطلة عيد الميلاد، عندما تركت المدرسة «تروت، سأقول لك رأيي يا عزيزي! بما أن هذا الموضوع لم يقرر بعد، وبما أننا يجب ألا نرتكب أي خطإ في ما نتخذه من قرارات، إذا ما أمكننا ذلك، فإنني أعتقد بأنه من الأفضل أن

نتريث قليلاً في الموضوع. وإنه ليخيل إليّ بأن تغييراً بسيطاً في مسيرة حياتك قد يكون مفيداً لك، ويساعدك على إدراك ما تفكّر به. فافرض بأنك ستقوم برحلة ما، مثلاً، وتزور تلك المرأة، صاحبة ذلك الاسم المرعب» قالت عمتي وهي تفرك أنفها لأنه لم يكن في وسعها قط أن تغفر لبيغوتي مثل هذا الاسم.

«إن ذلك هو أفضل ما أرجو في هذا العالم، يا عمتي!».

«هذا أمر طبيعي، ومنطقي. وإني جد مقتنعة بأن كل ما تعمله يا تروت سيكون دائماً طبيعياً ومنطقياً».

«آمل ذلك يا عمتي!».

وقالت عمتي «إن شقيقتك، بيتسي تروتوود، كان يمكن أن تبقى فتاة طبيعية ومنطقية ما دامت حية. وستكون أنت أهلاً لها فتحل محلها، أليس كذلك؟».

«آمل أن أكون أهلاً لك أنتِ يا عمتاه! وحسبي ذلك!».

وأردفت عمتي «ولكن الذي أريده منك، يا تروت، هو أن تكون إنساناً حازماً، إنساناً حازماً، وطيباً، لك إرادتك الخاصة. وكلك عزيمة». وهزت هنا قبعتها أمامي، وشدت على قبضتها «وتصميم! وصاحب شخصية، يا تروت، شخصية لا تتأثر بأي إنسان وأي شيء، إلاّ عندما يكون الدافع خيراً. هذا ما أريدك أن تكونه!».

وأعربت عن أملي بأن أكون عند حسن ظنها بي. في حين استمرت تقول: «وقد تبدأ بسلوك أول الطريق، بالاعتماد على نفسك، إذ سأرسلك لتقوم برحلتك بمفردك».

وأمام إغراء مشروع عمتي هذا، جُهّزت بعد ذلك اليوم، بفترة قصيرة، بمحفظة جميلة ملأى بالنقود، وحقيبة سفر، ثم ودعتها بكثير من العطف والمودة، بعد أن وعدتها بأني سأكتب إليها ثلاث مرات في الأسبوع.

وقصدت أولاً إلى كانترباري، كيما أقوم بتوديع آغنيس والسيد

ويكفيلد وغرفتي القديمة التي لم أهجر المنزل القائمة فيه بعد.. ولأودع الدكتور سترونغ الطيب القلب. وكانت آغنيس جد مسرورة برؤيتي، وأخبرتني بأن المنزل لم يعد كما كان عليه منذ أن تركته. ورحنا نثرثر لفترة من الوقت، ثم رفعت عينيها إلى عيني فجأة وقالت «تروتوود، إن هناك شيئاً أود أن أسألك عنه! وربما لن تُتاح لي فرصة أخرى لكي أسألك عنه، لوقت طويل. وأعتقد أن هذا السؤال لن أطرحه على أي إنسان آخر. قل لي صدقاً، هل لاحظت أي تبدل تدريجي عند أبي؟».

كنت قد لاحظت مثل هذا التغيّر فيه، ولكني طالما كنت أتساءل عما إذا كانت هي قد لاحظته أيضاً. ولا شك في أني قد أظهرت ذلك على وجهي الآن، لأن عينيها تحولتا عني إلى الأرض للحظة، وقد رأيت الدمع فيهما.

«أظن!... هل سأكون صريحاً تماماً، يا آغنيس، جراء حبي الكبير له؟».

«أجل» أجابتني.

«أعتقد أنه يضر نفسه بتلك العادة التي أدمنها منذ أن جئت إلى هنا للمرة الأولى. إنه دائماً عصبي المزاج، أو أنا الذي أتصور هذا! ويداه ترتعشان، وكلامه غير واضح، وعيناه تبدوان هائجتين. وقد لاحظت في تلك المرات، وعندما يكون، على الأقل، صاحياً، أنه كان يبدو عليه أنه متأكد تماماً بأن ثمة بعض الأعمال كانت مطلوبة منه».

فقالت آغنيس «أهو يوريا الذي يتطلبها؟!».

«أجل! وشعوره بكونه غير لائق لهذه الأعمال، أو لكونه قد أظهر وضعه قسراً، يبدو أنه يقض مضجعه، ويزيد من سوء حاله يوماً بعد يوم. ولا تجزعي من كلامي، يا آغنيس، ولكني رأيته في مثل هذه الحالة في إحدى الأمسيات، وقد كان يلقي برأسه فوق مكتبه وينتحب كالطفل».

وأمرّت أناملها بنعومة من أمام شفتي فيما كنت لا أزال أتكلم. وفي خلال لحظة كانت تستقبل أباها عند باب الغرفة. وفي تلك اللحظة

لاحظت أن تعبير وجهها كان يبدو جد مؤثر، بحيث إنها لم تقل أي شيء أمكنه أن يعبر لي أو يؤثر فيَّ بأكثر من ذلك.

كان علينا أن نحتسي الشاي في منزل الدكتور سترونغ. وقد سرنا إليه في الساعة المعتادة، فوجدناه وزوجته الشابة يجلسان بقرب النار في غرفة المكتبة. وقد نهض الدكتور يستقبلني وكأني ضيف شرف، وقال يخاطب السيد ويكفيلد «لن أرى وجوهاً جديدة تحتل مكان تروتوود يا ويكفيلد. إني أزداد كسلاً، وأود أن أعيش حياة سهلة بسيطة، وسأقوم بترك المدرسة بعد ستة أشهر أخرى».

فقال السيد ويكفيلد «لقد اعتدت أن تقول هذا مرات عديدة في خلال السنوات العشر الأخيرة!».

فردَّ الدكتور والابتسامة على وجهه «ولكني أعني ما أقول في هذه المرة. ويجب ألاّ يكون ثمة ما أفكر فيه ما عدا قاموسي، وزوجتي».

مضى المساء وكأنه ساعة واحدة، وقد أتى لي الصباح بالافتراق عن هذا المنزل القديم. وقد كان قلبي حزيناً جدّاً وأنا أحزم كتبي وثيابي لترسل إلى دوفر، وأكثر حزناً ممّا حرصت على أن أبديه ليوريا هيپ الذي كان جافاً للغاية في مساعدتي إلى درجة أني فكرت بأنه كان جد سعيد لذهابي.

وابتعدت عن آغنيس وعن أبيها، بكيفية ما، وأنا أتظاهر بأني غير مكترث لرجولتي؛ واتخذت مجلسي في عربة لندن.

كان من المستغرب حقاً أن أجلس هناك، وأنا مثقف تماماً، وأنيق الملبس، وجيوبي ملأى بالمال، وأن آخذ في البحث بعينيّ عن الأمكنة التي كنت قد نمت فيها في رحلتي القلقة.

وعندما مررنا أخيراً، ونحن على وشك الوصول إلى لندن، بمؤسسة سالم، حيث كان السيد كريكل القاسي، المتجبّر، وددت لو أني كنت قد تخليت عن كل ما أملك لقاء إذن قانوني بأن أهبط وأحطمه شر تحطيم، وأُخرج جميع التلامذة، وكأنها عصافير أسيرة في أقفاصها.

وسرنا إلى فندق غولدن كروس، في تشارينغ كروس، حيث أدخلني النادل إلى غرفة الطعام، ثم اقتادتني خادمة إلى غرفتي.

أما وقد غدوت هادئ المزاج، بعد عشاء لذيذ، فقد قررت أن أمضي وأشاهد إحدى المسرحيات، وقد اخترت مسرح كايڤنت غاردن. ثم قفلت عائداً إلى الفندق وأنا لا أزال غارقاً في ذكرى مشاهد المسرحية طوال الطريق. وبعد أن تناولت القليل من الماء، والنبيذ، بقيت جالساً بهدوء في غرفة الطعام. وأذكر أني قد انتبهت، وأنا جالس أحلم بقرب النار، إلى شكل إنسان وسيم، دون أن ألحظ دخوله.

وأخيراً قمت لأخلد إلى النوم، وفي مسيري نحو الباب، مررت بالشخص الذي كان قد دخل الغرفة، وقد رأيته بوضوح، فاستدرت وعدت أحدق إليه من جديد. لم يتعرف إليّ وإنما استطعت أنا أن أتعرف إليه في خلال لحظة. فاقتربت منه في الحال، بقلب ينبض على عجل، وقلت:

«ستيرفورث! ألا تذكرني؟».

فهتف دَهِشاً «رباه! إنك كوپرفيلد الصغير!».

وأخذت يديه بين يديّ، ولم أستطع أن أفلتهما أبداً. وقلت «لم أكن سعيداً قط، يا عزيزي ستيرفورث، أما الآن فإن فرحتي برؤيتك لا تقدر».

قال وهو يهز يدي بحب «وأنا فرح جداً برؤيتك أيضاً! آه يا كوپرفيلد، أيها الفتى الكبير، لا تنفعل كثيراً!» وفكرت بأنه، مع ذلك، كان سعيداً جداً بأن يرى كيف أن الفرحة برؤيته قد أثرت فيّ.

«كيف حدث أنك هنا يا كوپرفيلد؟».

فأجبت «وصلت بعربة كانترباري اليوم. لقد تبنتني عمتي وهي تعيش في أحد الأمكنة في تلك المنطقة، وقد أنهيت دراستي هناك حالياً. ولكن كيف حدث أنك هنا أنت، يا ستيرفورث؟».

أجابني: «إنا ممن يطلقون عليهم اسم «رجل أكسفورد»، وأنا في

طريقي الآن لزيارة أمي. إنك تبدو إنساناً وسيماً يا كوپرفيلد، وإني أنظر إليك الآن كما اعتدت أن تكون دائماً».

فضحكت بفرح. وعاد هو يقول «أجل، إني في زيارة لوالدتي، وهي تعيش خارج البلدة. وبما أن الطرقات إليها في حالة سيئة، فقد بقيت هنا الليلة، وقضيت فترة المساء في حضور إحدى المسرحيات!».

فقلت «وأنا كنت أشاهد إحدى المسرحيات أيضاً، في مسرح كايڤنت غاردن، يا لها من حفلة مفرحة ومدهشة!».

وضحك ستيرفورث بمودة، ثم قال وهو يربت على كتفي «كم تبدو مدهشاً يا عزيزي كوپرفيلد! لقد كنت أنا أيضاً أشاهد تلك المسرحية في كايڤنت غادرن، ولكن لم تكن هناك أسوأ منها مسرحية!».

وعاد يربت على كتفي من جديد، ودعاني إلى أن أتناول طعام الفطور معه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وقد كان الوقت آنذاك متأخراً جدّاً؛ فحملنا الشموع وصعدنا إلى الطابق العلوي.

*

في صباح اليوم التالي لم أجد ستيرفورث في غرفة الطعام، وإنما وجدته جالساً في غرفة خاصة ذات ستائر حمراء، وسجادة تركية، حيث كانت النار تشتعل بشكل عظيم، وحيث كان طعام الفطور الساخن الشهي مغطى فوق الطاولة بقطعة نظيفة من القماش.

قال ستيرفورث بعد أن مضى الخادم «والآن، يا كوپرفيلد، أود أن أسمع أخبارك كلها؛ ماذا تعمل، وإلى أين أنت ذاهب الآن؟ إذ إني أشعر وكأنك ملك لي».

ورحت أخبره، وأنا عامر بالبهجة لاكتشافي أنه لا يزال يهتم بي، كيف أن عمتي اقترحت عليّ القيام بهذه الرحلة الصغيرة، وإلى أين تؤدي مثل هذه الرحلة.

فقال ستيرفورث «بما أنك لست على عجلة من أمرك، إذاً، تعالَ

معي إلى المنزل في هاي غيت، وابقَ ليوم أو يومين، وستسر برؤية أمي. إنها فخورة بي نوعاً ما، وحديثها عني يبعث على الملل، ولكن في وسعك أن تعذرها. وستفرح هي الأخرى برؤيتك».

كانت عتمة الغسق تخيم على الكون عندما توقفت بنا العربة أمام منزل قديم ذي سقف آجري، ينتصب على قمة رابية في هاي غيت. وعندما ترجلنا من العربة كانت ثمة سيدة مسنّة تقف عند المدخل، وكانت ذات هيئة متعجرفة، ووجه جميل. سارعت للتو إلى ضم ستيرفورث بين ذراعيها، فيما كانت تحييه بعبارة «عزيزي ستيرفورث»، ثم قدمني إليها على أنها أمه، وقد رحبت بي ترحيباً حاراً.

وكانت هناك سيدة أخرى، ذات قامة قصيرة نحيلة، داكنة اللون، ومظهرها جميل أيضاً، وقد لفتت انتباهي. كان لها شعر أسود، وعينان مشرقتان سوداوان، وكان ثمة أثر ندب فوق شفتها العليا، وقد استنتجت أنها كانت في حوالى الثلاثين من عمرها تقريباً، وبأنها كانت عانساً تتمنى الزواج. أما نحافتها فقد بدت أنها كانت نتيجة تأثير بعض النيران التي تشتعل فيها، والتي كانت تجد لها منفذاً من خلال عينيها.

وقد قُدِّمت إليّ باسم الآنسة دارتل، وكان السيد والسيدة ستيرفورث يدعوانها باسم روزا. وعلمت أنها كانت تعيش هناك، بما أنها كانت، ولا تزال، منذ وقت طويل صديقة للسيدة ستيرفورث.

كان منزلاً هادئاً، نظيفاً،وذا طراز قديم. وكان في وسعي أن أشاهد، من خلال نوافذ غرفتي، مدينة لندن وهي ترقد على مقربة، فيما كانت أنوارها تضيء هنا وهناك. وعندما استدعيت لتناول طعام الغداء، لم يكن لدي من الوقت ما يمكنني إلاّ أن أنظر إلى اللوحات المعلقة فوق الجدران، وأنا أقوم بارتداء ملابسي.

وبينا كنت أتحدث والسيدة ستيرفورث في أثناء تناول الغداء، قالت لي «لقد كنتما في مدرسة السيد كريكل، عندما تعارفتما، وتوطدت بينكما الصداقة، كما أخبرني ابني!».

قلت «لقد كان شهماً ونبيلاً معي في تلك الأيام يا أماه! وقد كنت في حاجة إلى مثل هذا الصديق».

قالت السيد ستيرفورث بكبرياء «إنه دائماً شهم ونبيل».

ووافقت على كلامها صادقاً. ثم ذكرت لها، عَرَضاً، فيما كانت تسألني عن رغبتي في الذهاب إلى سوفوك، بأني سأكون سعيداً إذا جاء ستيرفورث معي. وإذ كنت أوضحت لستيرفورث بأني ذاهب لرؤية مربيتي القديمة، وعائلة السيد بيغوتي، فقد ذكرته بذلك البحار الذي كان قد رآه في المدرسة، فقال: «آه! ذلك الشخص المنتفخ! لقد كان معه ابنه، أليس كذلك؟».

فأجبته: «كلاّ! إنه ابن أخيه، وقد تبنّاه. وله ابنة أخت جميلة جداً تبنّاها كابنة أيضاً. وبالاختصار، إن منزله، وبالتالي مركبه، لأنه يعيش في داخله على اليابسة، مليء بالأشخاص الذين يضمهم بدافع لطفه ومودته! وستكون فرحاً برؤية تلك العائلة».

فقال «حقاً! حسناً، أعتقد بأني سأكون فرحاً، ويجب أن أرى ما ذكرت لي. إنَّ رؤية أولئك الناس معاً تستأهل القيام بالرحلة، هذا بغض النظر عن المتعة التي ستجلبها الرحلة معك».

وبعد أن تدخلت الآنسة دارتل في الحديث، فيما كانت عيناها البراقتان تراقباننا، وبعد أن دار بينها وبين ستيرفورث حديث ساخر، خرجت من الغرفة. فسألني ستيرفورث رأيي فيها فقلت:

«يا له من ندب ذاك الذي فوق شفتها!».

فصمت ستيرفورث عن الكلام لحظة ثم قال «في الحقيقة أنا هو الذي أحدثه لها!».

«إثر حادث عَرَضي؟».

«كلاّ، لقد كنت طفلاً وقد أغاظتني، فرميت وجهها بمطرقة. لقد كان من المفروض أن أكون الملاك المرجو!».

كنت جد أسِف للخوض في مثل هذا الموضوع المؤلم، ولكن لم يكن ثمة فائدة الآن! وعاد ستيرفورث يقول: «وقد حملت تلك الأثر منذ ذلك الحين، كما ترى! ولسوف تحمله إلى القبر، هذا إذا ما رقدت يوماً في أحد القبور؛ مع أني بالكاد أستطيع أن أعتقد بأنها سترقد يوماً في واحد منها، في مكان ما. لقد كانت يتيمة الأم، وابنة أحد أقرباء والدي. وعندما توفي والدها جاءت بها والدتي، التي كانت أرملة في ذلك الوقت، لتكون لها صديقة. هذا هو تاريخ الآنسة روزا دارتل، وقد أطلعتك عليه».

قلت «وليس عندي شك في أنها تحبك كأخ لها؟».

«هه!» رد ستيرفورث وهو يحدق إلى النار.

وعندما دخلت لتناول الشاي لم يسعني إلاّ أن أنظر إلى أثر الندب باهتمام وحزن. ولم يطل بي الوقت حتى اكتشفت أن هذا الندب كان أكثر مواضع وجهها حساسية، وكان لونه يتبدل لدى أدنى تأثير يبدو على ملامحها.

لم يكن ثمة ما يدعو إلى الدهشة حين وجدت أن السيدة ستيرفورث توقف وقتها كله على ابنها، وكان يبدو عليها أنها لم تكن تستطيع أن تتكلم أو تفكر بأي شيء آخر سواه. وقد أرتني صورة له وهو طفل، مع بعض خصلات من شعره، في إحدى العلب. وأرتني صورة له كما كان عندما تعرفتُ إليه، وصورة أخرى كانت تحملها في صدرها، وهي مأخوذة له حديثاً. كما كانت تحتفظ بجميع رسائله إليها في خزانة صغيرة بقرب كرسيها، أمام المدفأة. ولكانت قد قرأت لي البعض منها، ولكنت قد استمعت إليها بفرح كبير أيضاً، لو أن ستيرفورث لم يتدخل ويلاطف أمه لتقلع عن هذه الفكرة.

وكان في المنزل خادم أيضاً، عرفت أنه يكون بصحبة ستيرفورث عادة، وقد سبق له ومضى ليقوم على خدمته في الجامعة، وأما مظهره فقدكان أنموذجاً مثالياً للاحترام، وكان يدعى ليتيمار.

كذلك كان خفيف الحركة، هادئ الطبع وسريع الملاحظة. ودائماً ما يكون حاضراً عند الحاجة، وبعيداً عندما لا تكون ثمة حاجة إليه. وقد كان يضفي على نفسه نوعاً من الاحترام، وينقل خطاه ضمن هذا الاحترام تماماً. وأظن أنّي كنت دقيق الوصف بشأن هذا الرجل، وذلك بدافع ما كان له من تأثير فيّ في ذلك الوقت، وبدافع ما قد حدث فيما بعد.

قرر ستيرفورث أن يأتي معي إلى الريف، ويوم رحيلنا ودعنا السيدة ستيرفورث بحرارة، وودعتنا هي بكثير من اللطف والمودة. على أني لن أحاول أن أُبيّن شعوري في العودة إلى الأماكن القديمة المألوفة. وركبنا العربة، ومضينا إلى الفراش في ليلة وصولنا، وتناولنا طعام الفطور في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. وقد كان ستيرفورث، الذي كانت معنوياته جد عالية، قد نهض قبلي، وراح يتنزه على الشاطئ، وقد أخبرني أنه قد أقام صداقة مع بعض البحارة، وأكثر من ذلك، فقد رأى عن بعد منزلاً جعله يتأكد من أنه منزل السيد پيغوتي، وسألني عند عودته «متى تود أن تصطحبني إلى هناك، يا صديقي؟».

«أظن أن زيارتنا ستكون مناسبة هذا المساء، يا ستيرفورث، عندما يكونون جميعاً متحلّقين حول النار».

فقال ستيرفورث «إذاً هذا المساء. والآن أظن أنك ماضٍ لرؤية مربيتك القديمة. سأترككما تتباكيان لمدة ساعتين، هل هذا الوقت كافٍ؟».

فأجبت ضاحكاً بأننا قد ننتهي من ذلك في هذا الوقت، ولكن يجب عليه أن يأتي أيضاً. وأعطيته الإرشادات الدقيقة ليستدل على منزل السيد باركيس وخرجت وحيداً.

كان من الطبيعي أن تبدو الشوارع ضيّقة، إذ إن الشوارع، التي نراها ونحن صغار فقط، تظل على حالها دائماً، كما أعتقد، عندما نعود إليها ونحن كبار. إلاّ أني لم أنسَ أي شيء فيها، ولم أجد شيئاً متغيراً، إلى أن بلغت دكان السيد أومر، فقلت وأنا أهم بالدخول «هل السيد أومر

موجود؟ إذا كان موجوداً فإني أود أن أراه للحظة».

وسمعت لهاثاً ثقيلاً يتجه نحوي، وفي الحال انتصب أمامي، وكرشه أصغر مما كان عليه في السابق، ولكن دون أن يبدو عليه الكبر. وقال «خادمك يا سيدي، ما الذي في وسعي أن أؤديه لك؟».

«في وسعك أن تُحيّيني فقط، يا سيد أومر!» قلت وأنا أمد له يدي، «لقد كنت طيباً معي، ذات يوم، ولكني كنت خائفاً آنذاك، فلم أبد أني كنت أعتقد ذلك!».

سُرّ كثيراً لسماع هذا الكلام مني، لكنه عاد ليؤكد لي بأني قد أكون على خطإ، وليس هو الرجل المقصود، فرحت أذكره بما أسداه إليّ من خدمة، بالإضافة إلى الجنازة التي جهّزها لوالدتي، فكان سعيداً بأن يتذكر كل ذلك، وفرح برؤيتي، وراح هو يذكرني كذلك بباركيس وبيغوتي، وأعلمني أن إميلي تعمل عنده في الخياطة، وبأن لها ذوقاً رفيعاً، وأخبرني أنها كانت جد جميلة، وبأن لها وجهاً كانت تجن به نصف نساء البلدة، في حين كانت عنيدة نوعاً ما، وكان عليها أن تأتي إلى هنا لتتمرن لمدة ثلاث سنوات، وقد مضت منها سنتان حتى الآن تقريباً. وكانت طوال هاتين السنتين فتاة مهذبة وطيبة كعادتها.

ثم توجهت إلى عزيزتي القديمة، بيغوتي، بعد أن تركت السيد أومر. كانت في المطبخ ذي السقف الآجري، تقوم بإعداد الطعام، وقد نظرت إليها والابتسامة على وجهي، إلاّ أنها لم تبتسم لي بدورها. لم أكن قد انقطعت عن الكتابة إليها قط، ولكن لا شك في أنه مضى على لقائي بها للمرة الأخيرة سبع سنوات تقريباً. وسألتها محاولاً أن أتكلم بلهجة جافّة:

«هل السيد باركيس في المنزل، أيتها السيدة؟».

أجابت «أجل، إنه في المنزل، ولكنه نائم في فراشه، بسبب داء الروماتيزم».

فسألتها «ألا يسافر إلى بلندرستون في هذه الأيام؟».

أجابت «أجل عندما يكون في تمام الصحة».

وعدت أقول «وهل كنت أنت تذهبين إليها، يا سيدة باركيس؟ لأني أود أن أطرح سؤالاً بخصوص منزل يقوم هناك، ويدعى... ماذا يدعى؟ أجل، يدعى موئل الغربان!».

وتراجعت خطوة ومدت ذراعيها بطريقة وجلة مترددة، كما لو أنها تحاول أن تبقيني بعيداً، فهتفت «بيغوتي!».

وهتفت هي الأخرى «فتاي العزيز!» وانفجر كل منّا باكياً، وضم واحدنا الآخر بشدة، وقالت بيغوتي فيما كانت تمسح دموعها بمئزرها «سيكون باركيس جد مسرور برؤيتك. وذلك سيحسن من حالته أكثر من المرهم. هل يمكنني أن أمضي وأخبره بأنك هنا؟ وهل ستصعد وتراه يا عزيزي؟».

واستقبلني باركيس بحماسة عظيمة، وكان مريضاً للغاية، بحيث كان من الصعب عليه أن يسلم بيده، إلاّ أنه رجاني أن أهز، أي أسلّم، على الشرابة التي في أعلى قلنسوة نومه، وفعلت ذلك بشيء كثير من الود. وعندما جلست بقرب السرير، قال لي إنه جد سعيد بأن يشعر كما لو أنه يمضي بي في عربته على طريق بلندرستون من جديد.

وأخبرني أنه سعيد جدّاً مع بيغوتي، ولم يندم في يوم من الأيام قط على زواجه بها. ورحت أنا أعد بيغوتي لاستقبال ستيرفورث، ولم يمضِ طويل وقت حتى وصل. وقد استمالها إليه خلقه المرح، وصدره الرحب، ونظراته الظريفة، في خلال خمس دقائق. ثم إنه دخل غرفة السيد باركيس وكأنه النور، والهواء، يدخلانها فيبعثان فيها بالضياء والهواء المنعش. ولم يكن ثمة جلبة أو مجهود أو وعي في أي شيء كان يقوم به، ولكن كان يوجد في أي شيء يأتيه رشاقة لا توصف، طبيعية ومستحبة للغاية، إلى درجة أنها كانت تستحوذ عليَّ كلياً، حتى وأنا آتي على ذكرها الآن.

وقد بقي محتفظاً بجميع صفاته المبهجة عندما قصدنا، في الساعة

الثامنة، منزل السيد پيغوتي. وبلغنا الباب بصمت وهدوء ففتحناه ودلفنا إلى الداخل. كانت دمدمة الأصوات مسموعة إلى الخارج، وما إن دخلنا حتى سمعنا تصفيقاً، وقد فتح السيد پيغوتي، الذي كان يضحك وسع شدقيه، يديه الصلبتين كما لو أنه كان يفتحهما من أجل أن ترمي إميلي بنفسها بينهما. وكان هام، وعلى وجهه تعبير ممزوج من الاستحسان والابتهاج والحياء، يخيم عليه جيداً، كان يمسك بيد إميلي كما لو أنه كان يقدمها للسيد پيغوتي، وكانت تخيم على إميلي نفسها حمرة الخجل، وإنما كانت مبتهجة لابتهاج السيد پيغوتي، كما كانت تدل عيناها الفرحتان. وقد توقفت هذه الأخيرة بسبب دخولنا، عندما كانت على وشك أن تنتقل من يد هام لتستقر بين يدي السيد پيغوتي، لأنها كانت أول من رآنا.

وعلى الفور تلاشى هذا المشهد الصغير عند دخولنا، حتى إنه كان يخيل إلى المرء أنه لم يكن موجوداً قط. وكنت أقف وسط العائلة المندهشة، وجهاً لوجه أمام السيد پيغوتي الذي مددت له يدي محيِّياً، عندما هتف السيد هام «السيد دايڤي! إنه السيد دايڤي!».

وفي خلال لحظة كنا جميعاً نتبادل التحيات والعناق، ورحنا نتكلم في الحال عن أحوالنا، وعن فرحنا الكبير بهذا اللقاء. وقد قال السيد پيغوتي وهو يضحك من فرط السعادة، ويتخذ له مجلساً إلى جانبنا، قرب النار «إن هذه الليلة من أبهج الليالي في حياتي. تعالي إلى هنا يا عزيزتي إميلي، فهذا صديق السيد دايڤي! لقد جاء ليراك والسيد دايڤي في أبهج ليلة في حياة عمك».

وجرت إميلي إلى الغرفة الصغيرة التي كنت أنام فيها، بعد أن تركت عمها يقبّلها حوالى اثنتي عشرة مرة. وعاد يقول وهو يسترد أنفاسه «عزيزتي إميلي، آه، لقد أدركت أني على وشك أن أتناول الحديث عنها، ولذلك عمدت إلى الفرار. حسناً، إن هذا الليلة، كما قلت، هي أبهج ليلة في حياتي، وإميلي الصغيرة هذه، يا سيدي، ليست ابنتي، غير أنه ليس في وسعي أن أحبها أكثر من ذلك».

وعبث السيد پيغوتي بشعره، ثم عاد يستأنف الكلام: «ثمة شخص قد عرفها منذ حادثة غرق والدها، وليس بالشخص المهم، وإنما هو، على العموم، إنسان مخلص، وطيب القلب».

وخيِّل إليَّ أني لم أرَ هام مرة يبتسم بفتور بمثل ما كان يبتسم في ذلك الوقت، فيما كان يجلس وينظر إلينا. واستأنف السيد پيغوتي كلامه بوجهه المعبر عن الفرح «وقد وقع هذا الفتى في حب إميلي الصغيرة. وفجأة، وفي مساء يوم، يعود بإميلي إلى المنزل ليقول لي بفرح «انظر إليَّ، إن هذه الفتاة ستكون زوجة لي». ولتقول هي لي بشيء من الجرأة والخجل «أجل يا عماه، إذا سمحت!» ويهز السيد پيغوتي رأسه ببهجة أمام هذه الفكرة ويردد «هه! إذا سمحت! رباه! كأني كنت سأفعل أي شيء آخر».

ورحنا نتحدث، وقد سيطر علينا ستيرفورث بسحر كلامه، وعذوبته، بحيث جعل السيد پيغوتي يغني، وبالتالي يزأر بأغنية «عندما تهب وتهب الرياح العاصفة» وغنانا أغنية البحار بلهجة شجية حلوة ما دفع بي إلى أن أتصور أن الريح كانت تهب فعلاً باكتئاب حول المنزل، وتدمدم بصوت منخفض خلال سكوننا الدائم.

وكانت إميلي قد انضمت إلينا بعد فترة قصيرة، وظلت طوال السهرة هادئة صامتة. كانت تحدق إلينا وتصيخ السمع، ليس أكثر، وكما أذكر، كان الوقت حوالى منتصف الليل، عندما غادرنا مركب السيد پيغوتي، وقد تناولنا بعض «البسكويت» والسمك المجفف في عشائنا، وشربنا بعضاً من الخمر الذي كان ستيرفورث يحمله معه في مطرة في جيبه. وافترقنا فرحين، ولدى خروجنا اجتمع الكل عند الباب كيما ينيروا لنا الدرب قدر الاستطاعة، ورأيت عيني إميلي الزرقاوين الطيبتين تتبعاننا من خلف ظهر هام، وسمعت صوتها الناعم يطلب إلينا أن نأخذ حذرنا في الطريق. وكنا، أنا وستيرفورث، جد مغتبطين بهذه السهرة الممتعة، مع هؤلاء الناس الطيبين.

8

بقيت أنا وستيرفورث في ذلك القسم من الضاحية لمدة تزيد على الأسبوعين تقريباً. وكنت أنا أقوم برحلات إفرادية إلى بلندرستون، سيراً على قدميّ، كيما أتذكر كل شبر من هذه الطريق القديمة، وكيما أكثر من التردّد إلى الأماكن التي لن أملها أبداً. وكنت أسير بقرب القبر الذي يقوم تحت إحدى الأشجار، حيث يرقد والدي.

كانت ثمة تبدّلات كثيرة قد طرأت على منزلنا القديم، ونمت الأعشاب البرية الطفيلية في الحديقة، وكانت نصف نوافذ المنزل مقفلة، إذ كان يشغله رجل واحد أبله مسكين، بالإضافة إلى الذين كانوا يقومون على العناية به.

وسمعت عن ستيرفورث أنه كان يقيم بعض الحفلات البسيطة للبحارة في منزل السيد بيغوتي، بعد أن أخلد إلى فراشي، وأنه يرتدي ثياب الصيادين وينطلق في البحر طوال الليالي المقمرة، ويعود مع بزوغ الفجر. وقد أدركت أن طبيعته القلقة، وروحه الجريئة، كانتا تفرحان بأن تجدا مصرفاً في الجهد المتعب، والطقس القاسي، مثلما تجدان في أية وسائل أخرى للإثارة كانت تواجهه بشيء من المتعة. وهكذا فلم يكن أي تصرف من تصرفاته ليدهشني.

وفي أحد الأصائل المعتمة، وكنت عدت متأخراً أكثر من العادة، وذلك لأني كنت أقوم في ذلك اليوم بزيارة أخيرة لبلندرستون، لأننا كنا على وشك العودة إلى البيت، وجدت ستيرفورث يجلس وحيداً قرب النار، في منزل السيد بيغوتي، وقد كان غارقاً في بحر تأملاته، بحيث لم يكن ليشعر بدخولي أبداً، وأجفل إذ ألقيت بيدي فوق كتفه، ما جعلني أجفل أنا الآخر، وقال لي «لقد تأخرت كثيراً! أين كنت؟».

«كنت أقوم بتوديع نزهاتي المألوفة».

وسألته عن الآخرين، فأجابني أنه حين جاء لم يجد أحداً هنا. وأعلمني أنه كان جالساً يفكر بأن جميع الناس الذين وجدناهم سعيدين - في ليلة مجيئنا - قد يتشتت شملهم أو يموتون أو لا يدري أحد ماذا سيحل بهم. وتمنى لو أن كان له أب حكيم في خلال العشرين السنة التي مضت. فقلت له:

«ما خطبك يا عزيزي ستيرفورث؟».

صاح «أود لو أني وُجِّهت توجيهاً أفضل كلياً، وأود من صميم قلبي أن أتمكن من توجيه نفسي بشكل أفضل!» وأضاف وهو يهب واقفاً ويتكئ على حافة المدفأة ووجهه إلى ناحية النار «وسيكون من الأفضل أن أكون بيغوتي هذا المسكين، أو ابن أخيه، من أن أكون أنا نفسي، أفطن وأغنى عشرين مرة من أن أكون مجلبة لآلام نفسي، مثلما كنت في مدى نصف الساعة الماضية، في مركب الشيطان الشراعي».

شعرت بالحيرة أمام هذا التبدّل الذي طرأ عليه، بحيث لم أستطع في البداية إلاّ أن أراقبه بصمت مطبق، فيما كان يلقي برأسه فوق يده، ويحدق بكآبة إلى النار. ولكنه سرعان ما رفع من معنوياته، واسترد طريقة الحديث النابض بالحياة، فيما كنا نسير إلى النزل الذي كان ينزل فيه. وكنت أنا طوال هذه الفترة أنام عند مربيتي القديمة بيغوتي، التي كانت قد أصرت على ذلك.

قال لي بفرح «إننا نهجر حياة القرصنة هذه غداً، أليس كذلك؟».

فأجبت «هكذا اتفقنا وقد حُجز لنا مكانان في العربة».

«آه! ليس هناك من مفر كما أظن! ولكني كنت قد نسيت، تقريباً، أنه يوجد ثمة ما يقوم به المرء غير الخروج والهيام في عرض البحر هنا، وأعتقد أن في وسعي أن أجتاز امتحاناً ممكناً وجيداً في قيادة المراكب في هذه المياه الآن!».

فقلت «السيد بيغوتي يقول إنك مدهش!».

«هل تعلم أني ابتعت مركباً هنا؟».

فهتفت وأنا أتوقّف عن المسير، لأني كنت أسمع هذا للمرة الأولى «يا لك من إنسان خارق يا ستيرفورث!».

فقال ستيرفورث «لقد شعرت بميل نحو هذا المكان. وعلى كل حال، فقد ابتعت مركباً كان معروضاً للبيع، وسيكون السيد بيغوتي رئيسه في فترة غيابي عنه. على أنه يجب أن يعاد ترميم هذا المركب من جديد، وسأترك السيد ليتيمار هنا حتى يتأكد من إنجاز هذا الترميم، ويعلمني أنه قد أصبح جاهزاً تماماً. ولكن، هل أعلمتك أن ليتيمار قد جاء إلى هنا؟».

وإذ أجبته بالنفي قال «أجل! وصل هذا الصباح، وهو يحمل رسالة من والدتي!».

وعندما التقت نظراتنا، لاحظت أنه كان شاحباً حتى شفتيه، ولكنه نظر إليّ بثبات وحزم، وقال:

«وسيشهد تغيير اسم المركب. إن اسمه الحالي هو «طائر النّوء» وما الذي يهم السيد بيغوتي من طيور النوء. سأطلق عليه اسماً نصرانياً!».

فسألته «أي اسم ستطلقه عليه؟!».

«إميلي الصغيرة!».

وأبديت له مدى سروري بهذا الاسم بعد أن لمست منه الرغبة في هذا الإبداء، وفيما كنا نعاود سيرنا إذا به يدلني إلى هام، الذي كان يرتدي ثياب العمل، وكان يعمل آنذاك في بناء المراكب، وإلى جانبه إميلي التي كان يقوم على حراستها جيداً. وعندما توقفنا لنتحدّث إليهما سحبت يدها من يد هام بحياء، وعلت وجهها حمرة الخجل بينما كانت تقدمها إلى ستيرفورث وإليّ. ولم تشأ، عندما استأنفا سيرهما، أن تعيد يدها إلى يده، في حين ظلّت تبدو خجلى ومكرهة.

كانت بيغوتي، وجميع أفراد أسرتها، مجلّلين بالحزن نتيجة مغادرتنا

لهم، وقد خرج جميع أفراد مؤسسة السيد أومر وجورام لوداعنا. وقد رحلنا والجميع متأسفون على فراقنا، وخلّفنا وراءنا أناساً كثيرين يلفهم وشاح الحزن. ومضى السيد ليتيمار معنا إلى حيث ركبنا العربة، وظل منتظراً هناك حتى انطلقت بنا، فتمنى لنا رحلة موفقة، وتركناه واقفاً على الرصيف كلغز غامض جليل، مثل أي هرم من أهرام مصر.

ظللنا لفترة قصيرة دون أن نخوض في أي حديث لأن ستيرفورث كان غارقاً في صمت غير اعتيادي، ولكوني كنت منهمكاً تماماً بالتساؤل، في قرارة نفسي، متى سأرى هذه الأمكنة القديمة والحبيبة مرة أخرى، وأية تغيرات جديدة تحدث لي، أو لها، في غضون هذه الفترة! وأخيراً جذبني ستيرفورث من ذراعي، بعد أن غدا مرحاً وثرثاراً خلال لحظة، وقال:

«قل يا دايڤد، ماذا بشأن الرسالة التي كنت تتكلم عنها، على مائدة الفطور؟».

فقلت وأنا أخرجها من جيبي «أه! إنها من عمتي، تسألني فيها عما إذا كنت أرغب في أن أصبح محامياً في مركز «دكتورز كامنس» في لندن. فما رأيك بذلك؟».

أجاب ستيرفورث ببرود «لا أدري. ولكني أعتقد أن في وسعك أن تغدو محامياً، مثلما في وسعك أن تغدو أي شخص آخر؟».

ولم يسعني إلاّ أن أضحك من جديد، نتيجة لمقاييسه التي يقيس بها جميع الحرف والاختصاصات على حد سواء. وقد أخبرته بذلك. ثم سألته «ومن هو المحامي، يا ستيرفورث؟».

فأجاب «إنه وكيل دعاوى. ويمكنني أن أشرح لك ما هو، بشكل أفضل، عندما أخبرك ما هو مركز «دكتورز كامنس». إنه مكان تتم فيه الاتفاقيات بين الناس، وعقود الزواج، وتسوّى فيه المنازعات بين المراكب والبواخر، كما أنه مكان تتم فيه صفقات رابحة، فيها شيء

كبير من الاحتيال. على كل حال، أود أن أنصحك بأن تنضم إلى هذا المركز يا دايڤد».

وفي الحال قررت أن أمتهن هذا الاختصاص، ثم أخبرت ستيرفورث أن عمتي قد حجزت غرفتين لنا، لمدة أسبوع، في نزل خاص كائن في «لينكولنز إن فيلدس».

وحين أشرفنا على نهاية رحلتنا، قصد هو إلى المنزل بعد أن وعدني بأن يتصل بي في اليوم التالي. وسرت أنا إلى ذلك النزل حيث وجدت عمتي في انتظاري لتناول طعام العشاء.

ولو أني كنت أقوم برحلة حول العالم، منذ أن افترقنا، لكان من الصعب جداً أن نفرح بهذا اللقاء بأكثر مما فرحنا به الآن، بلقائنا في لندن. وهتفت عمتي على الفور وهي تضمني إليها، محاولة التظاهر بالضحك «لو كانت أمك المسكينة حية ترزق لكانت تلك المخلوقة الضئيلة سكبت دموعاً غزيرة، ولم يكن عندها شك في ذلك».

وقدم لنا العشاء، وكان ساخناً. وعندما فرغنا منه، ورفعت الأطباق، راحت جانيت تساعد عمتي على رفع شعرها لتتمكن من اعتمار قلنسوة النوم، كما راحت تساعدها كذلك على لف ركبتيها بثوبها، فهذه كانت إجراءاتها المعتادة لكي تدفئ نفسها قبل أن تمضي إلى الفراش. وبعد ذلك مزجت لها كأساً من الخمر الأبيض الدافئ بالماء، وجلبت لها قطعة من الخبز المحمص، وشرعت تتحدّث إليَّ حالما بقينا وحيدين.

«إذاً يا تروت! ما رأيك في أن تكون محامياً؟».

«إني أحب هذه المهنة كثيراً يا عمتي! ولكن هناك ثمة صعوبة وحيدة!».

فقالت عمتي «قل ما هي يا تروت!».

«أود أن أسألك ما إذا كان تخصصي في هذه المهنة يكلف الكثير؟».

فقالت «إن تخصصك في هذه المهنة سيكلف ألف جنيه».

قلت لها وأنا أقرب مقعدي منها «طبعاً هناك بعض الطرق، يا عمتي العزيزة، قد أتمكن من بدء حياتي بها دون أي مصروف تقريباً، ومع ذلك أبدأها وكلي أمل في الاستمرار».

التهمت عمتي قطعة الخبز، وأجابت: «إذا كانت لي غاية في الحياة، يا عزيزي تروت، فهي أن أسعى إلى أن تكون رجلاً سعيداً، وحكيماً،وطيباً. ومنذ أن جئتني وأنت ولد صغير، طريد، يعلوك الغبار ويضنيك التعب، حتى الآن، يا تروت، وأنت عند حسن ظني، ومبعث فخري وبهجتي، وليس عندي أية طريقة أخرى لأنفق فيها مالي، في حين أنك ابني بالتبني. وأن ترعاني بحبك في شيخوختي، ليس غير، تكُن بذلك قد قدمت إلى المرأة العجوز أكثر مما قدمته العجوز إليك».

وصمتت لبرهة ثم استأنفت كلامها:

«كل شيء متفق عليه بيننا، يا تروت. أعطني قبلة، وسنقصد إلى مركز «دكتورز كامنس» غداً بعد طعام الفطور».

في منتصف اليوم التالي تقريباً، قصدنا إلى مكتب السيدين سبينلو وجاركنز في مركز «دكتورز كامنس» وقد أوصلتنا إلى هذا المكتب عدة أفنية وممرات ضيقة ومعتمة. وفي الممر كان ثمة ثلاثة أو أربعة كتّاب منهمكين في العمل. انتصب أحد هؤلاء واقفاً، وهو رجل ضئيل، نحيل، ليستقبل عمتي، ويقودنا إلى غرفة السيد سبينلو وهو يقول: «إن السيد سبينلو في المحكمة، أيتها السيدة! وهي قريبة جداً من هنا. سأبعث في طلبه حالاً».

كنت أتفحص غرفة المكتب عندما تناهى إلينا من الخارج وقع أقدام سريعة، ودخل السيد سبينلو وهو يرتدي ثوباً يزين أطرافه فرو أبيض. كان رجلاً ظريفاً، ذا شعر أبيض، يرتدي ياقة بيضاء قاسية. وبعد جدل وأخذ ورد حول التكاليف، إذ إني كنت أحاول أن أنقص منها كيما

أوفر على عمتي، كان الأمر عبثاً، لأنه كان يدعي أن شريكه كان يعتقد بأن هذا الأجر زهيد، وتم الاتفاق بيننا على أن أبدأ الشهر الأول، الذي يعتبر كتجربة، حالما أشعر برغبة في ذلك.

وعدنا أنا وعمتي على أثر موافقتي على الالتحاق بالمركز، وقد راق لي بعد أن رأيته. وقالت لي عمتي حال عودتنا إلى النزل «إني هنا منذ أسبوع تقريباً، وقد حان الوقت لأعود. يوجد ثمة مسكن بعدة غرف مفروشة وبرسم الإيجار في أدلفي، يا تروت، وهو يناسبك تماماً».

فقلت وأنا فرِح بفكرة السكن في منزل ذي عدة غرف «إن هذا هو المسكن الذي يناسبني تماماً».

فأجابت عمتي «إذاً تعال، سنمضي لنراه!».

ومشينا إليه، ولدى وصولنا سألنا عن السيدة كراب، التي برزت في الباب عندما قرعنا الجرس. كانت هذه الغرف تقوم في أعلى البناء، وتحتوي على مدخل تستطيع بالكاد أن ترى من خلاله أي شيء، وعلى غرفة صغيرة للمؤونة، حيث لا تستطيع أن ترى أي شيء إطلاقاً، وعلى غرفة للجلوس، وغرفة للنوم. أما المفروشات فقد كانت قديمة العهد، ولكنها تناسبني أنا تماماً. وكان في وسعي أن أرى النهر عبر النوافذ.

وفيما كنت مبتهجاً بهذا المسكن، دخلت عمتي والسيدة كراب غرفة المؤونة لكي تتباحثا في الشروط المطلوبة. ولمّا عادتا بعد فترة قصيرة، وجدت، ولشد ما كانت فرحتي عارمة، بأن الاتفاقية قد تمت. لقد استأجرت لي عمتي المكان لمدة شهر، مع السماح بالاستمرار لمدة سنة كاملة، بعد مضي هذا الشهر. وكان على السيدة كراب أن تؤمّن الشراشف والمناشف وما شابه، وأن تقوم بإعداد الطعام.

كان من المدهش حقاً أن أحصل على هذا المسكن لنفسي، وأن أسير في البلدة ومفتاح منزلي في جيبي، وأن أعلم أنه في وسعي أن أطلب من أي شخص أن يأتي معي ساعة أشاء. كما كان من المدهش

أيضاً أن أدخل وأخرج دون أن ألقي بكلمة لأي إنسان.

بعد مضي يومين وليلتين، شعرت كما لو أنه مضى عليّ عام كامل، إذ كنت أشعر بأني أود أن أتكلم إلى أحد ما. لقد كنت أحن إلى آغنيس التي أحسست بفراقها. ولم يعد ستيرفورث يزورني. وفي اليوم الثالث تركت مركز «كامنس» في وقت مبكر، وسرت إلى هاي غيت. كانت السيدة ستيرفورث سعيدة جدّاً برؤيتي، وقالت بأن ستيرفورث قد مضى مع أحد أصدقائه من جامعة أكسفورد، ولكنها كانت تتوقع مجيئه في صباح اليوم التالي.

وفيما كنت أحتسي قهوتي في صباح اليوم التالي، قبل أن أمضي إلى مركز «كامنس»، كنت متأكداً تماماً بأن ستيرفورث هو نفسه الداخل علي، فقلت له «سنتناول طعام الفطور، يا عزيزي ستيرفورث، وستعد لك السيدة كراب بعض القهوة الطازجة».

فقال ستيرفورث «كلا، لا أستطيع، إني ذاهب لأتناول طعام الفطور مع صديقين، وسنمضي جميعاً غداً صباحاً».

فأجبت «إذاً اصطحبهما إلى هنا لتناول طعام العشاء معاً».

واتفقنا على أن تكون الساعة السادسة مساء موعداً لتناول العشاء. وكان أحد صديقي ستيرفورث يدعى غراينجر، والآخر ماركام. وغراينجر هذا كان أسنّ من ستيرفورث قليلاً، أما ماركام فقد كان يبدو فتياً، وأؤكّد أن عمره لم يكن يزيد على العشرين.

وعندما حان وقت العشاء، جعلت ستيرفورث يتخذ مكانه عند رأس المائدة. وكانت السيدة كراب قد هيأت كل شيء حسبما نشتهي، ولم نوفر نحن الخمر. وفي الوقت الذي قدمت فيه الفاكهة، كنت أشعر بأني فرح جدّاً، ومسرور القلب.

رحت أفتح سدادة زجاجة الخمر الجديدة وأقدمها قبل أن تكون قد فرغت رفيقتها، وكنا جميعنا ندخن، وألقى ستيرفورث كلمة رددت

عليها بالشكر، وكنت أتمنى منهم جميعاً أن يتناولوا طعام العشاء معي غداً، وبعد غد.

قال لي أحد الصديقين «لنمضِ إلى المسرح يا كوپرفيلد» والمسرح هو الشيء المحبّب إليَّ. وفيما كنت أبحث عن الباب بين ستائر النافذة أخذني ستيرفورث من ذراعي، وهو غارق في الضحك، واقتادني إلى الخارج.

بعد ذلك بوقت قصير، كنا نحتل أمكنتنا في مكان عالٍ جداً في أحد المسارح الدافئة للغاية، ورحنا ننظر إلى الخشبة التي يمثل عليها الناس. كان المبنى بكامله يبدو وكأنه يدور بي، فقررنا أن نهبط إلى المقاصير الخاصة، حيث أنها كانت تمتلئ بالنساء. ودخلنا إحدى هذه المقاصير، ووجدت نفسي أنطق ببعض العبارات فيما كنت أهم بالجلوس، والناس من حولي يهتفون بي: هدوء! هدوء! وفجأة رأيت آغنيس تجلس على المقعد أمامي، في المقصورة ذاتها، وإلى جانبها سيدة وشاب. فهتفت بتثاقل «آغنيس، آغنيس».

فأجابت «اصمت من فضلك. إنك تزعج الناس، انظر إلى الخشبة».

وحاولت أن أستمع إلى أي شيء مما كان يدور على الخشبة، ولكن عبثاً، فعدت أنظر إلى آغنيس من جديد، فرأيتها تنقبض في مقعدها في الزاوية، وتضع يدها فوق جبهتها، فناديت «آغنيس، أخشى أنك لست على ما يرام».

فأجابت «أجل، أجل، إني على خير ما يرام، لا تبالِ بي. إني أعلم أنك تنفذ لي طلبي، فامضِ الآن يا تروتوود من أجلي، وقل لأصدقائك أن يصحبوك إلى المنزل».

ومع أني كنت مستاءً منها، فقد شعرت بالخجل، ونهضت بعد أن تمنيت لها ليلة سعيدة، وسرت وقد تبعني الآخرون، وإذ اندفعت خارج المقصورة وجدت نفسي أدخل غرفتي في الحال، حيث لم يكن

بصحبتي إلاّ ستيرفورث، وهو يساعدني على خلع ملابسي، وحيث كنت أخبره بدوري أن آغنيس كانت بمثابة شقيقة لي، وأرجوه أن يأتي إليّ بزجاجة أخرى من الخمر.

ولكن، أي ألم عقلي وأي خجل كنت أشعر بهما عندما استرددت وعيي في صباح اليوم التالي وكل شيء يدهمني: ذكرى النظرة التي حدجتني بها آغنيس، واشمئزازي من رؤية الغرفة، حيث أُقيمت الحفلة ليلة البارحة، وألم رأسي، ورائحة التبغ، ومنظر الأقداح، واستحالة الخروج من الغرفة، أو النهوض من السرير. آه، أي يوم كان ذاك اليوم.

كنت على وشك الخروج، في ذلك الصباح الذي تلا يوم ألم الرأس والغثيان، عندما رأيت رجلاً يصعد السلم ومعه رسالة لي. فتناولت الرسالة التي قال إنها تحتاج إلى جواب، وعدت أدخل مسكني من جديد.

وعندما فضضتها وجدت أنها كانت كلمة لطيفة من آغنيس، تقول:

«عزيزي تروتوود، إني أنزل في منزل وكيل والدي، السيد واتربروك، في إيبلايس، هولبورن. فهل ستأتي لمقابلتي اليوم، في أي وقت تود أن تحدّده؟ المحبة لك دائماً. آغنيس».

وطال بي الوقت في كتابة الإجابة، وفي النهاية كتبت:

«عزيزتي آغنيس، إن رسالتك لطيفة مثلك، وماذا يسعني أن أقول عنها ليأتي قولي بمدحها أفضل من هذا؟ سآتي في الساعة الرابعة. المحب. ت.ك».

ومع أني تركت المكتب في الساعة الثالثة والنصف، وبلغت المنزل في خلال بضع دقائق، فقد ظللت ربع ساعة قبل أن تتملكني الشجاعة الكافية لأقرع الجرس في منزل السيد واتربروك. ودخلت إلى غرفة جلوس جميلة جدّاً، وكانت آغنيس تجلس فيها وبيدها بعض أشغال الإبرة.

كانت تبدو جد هادئة ولطيفة، وراحت تذكّرني بأيام دراستي في كانترباري، وبالتعيس الأبله الذي كنته في الليلة السابقة، بحيث رحت أذرف الدموع.

وألقت آغنيس بعد ذلك بيدها فوق ذراعي، فشعرت بالراحة الكبرى، ولم يسعني إلاّ أن أرفعها إلى شفتي وأقبّلها برضى. وقالت آغنيس بابتسام «اجلس! ولا تكن تعيساً يا تروتوود، وإن لم يكن في وسعك أن تثق بي فبمن يمكنك أن تثق؟».

فأجبت «آه يا آغنيس، أنت ملاكي الطيب».

وخيّل إليّ أنها تبتسم بحزن، وتهز رأسها. ثم سألتني عمّا إذا كنت قد رأيت يوريا، فقلت «يوريا هيپ؟ كلاّ! هل هو في لندن؟».

فأجابت آغنيس «إنه يأتي إلى المنزل، في الطابق الأرضي، كل يوم! وصل إلى لندن قبلي بأسبوع. وإني لأخشى أن يكون هنا بسبب أمر ما، كريه!».

وألقت أشغال الإبرة جانباً، وعادت تقول وهي تشبك يديها:

«أعتقد أنه سيدخل شريكاً في العمل مع والدي».

فهتفت بسخط «ماذا؟! هذا الرجل المتزلف، الدنيء، يتسلل بنفسه إلى مثل هذا المركز؟ ألم تقولي أي شيء بهذا الشأن يا آغنيس؟ يجب ألاّ تسمحي لوالدك بأن يتخذ مثل هذا الإجراء الخاطئ!».

وفيما كانت لا تزال تحدق إلي، وأنا أتكلم، هزت رأسها وأجابت:

«أتذكر محادثتنا الأخيرة حول والدي؟ لم يمضِ عليها وقت طويل حتى أخبرني هو بما أقوله لك الآن. كنت حزينة جداً وأنا أراه يحاول أن يخبرني بأنه هو الذي أراد هذا، مع العلم أنه لم يكن يستطيع أن يخفي أنه كان مرغماً على ذلك».

«مرغماً على ذلك يا آغنيس! من أرغمه عليه؟».

فأجابت بعد لحظة من التردّد «لقد حاول يوريا أن يجعل من نفسه

شخصاً ضروري الوجود بالنسبة إلى والدي، إنه ذكي ويقِظ، وقد اطلع على نقاط الضعف في حال والدي واستغلها إلى أن... أن غدا والدي يخافه».

ولاحظت بوضوح أنه كان في وسعها أن تقول أكثر مما قالت وأنها تعرف أكثر مما أخبرتني به، أو أنها كانت ترتاب في أشياء أخرى. ولم يسعني أن أزعجها بأسئلتي، لأني كنت أعلم أنها تخفيها عني كيما تحافظ على مكانة والدها، ولذا فقد بقيت صامتاً.

وعادت آغنيس تقول «إن سلطانه على والدي قوي جدّاً، وقد أخبره أنه آسف جداً، وأنه لا ينوي أن يتركه، وأن لديه آمالاً كباراً. وكان حزن والدي كبيراً بهذه المشاركة، إلاّ أنه بدا أفضل قليلاً أمام فكرة المشاركة هذه، مع أنه، في الوقت ذاته، كان يبدو حزيناً وخجلاً بها».

«وكيف رضيت أنت بها يا آغنيس؟».

أجابت «رضيت بها يا تروتوود، وما كنت أُؤمّله كان صحيحاً. وإذا كنت أشعر، وأنا واثقة، بأن التضحية ضرورية بالنسبة إلى حالة والدي وسلامته، فقد رجوته أن يقوم بها. وقد زعمت له أن ذلك سيحسن من وضعه وأنه سيتيح أمامي فرصاً أخرى كيما أكون فيها صديقة له. آه يا ترتوود!» هتفت وهي تضع يديها على وجهها فيما كانت دموعها تنحدر على وجنتيها وتابعت «أشعر وكأني كنت عدواً لوالدي بدل أن أكون ابنته المحبة».

وأخيراً رفعت رأسها وقالت «ليس من المستحسن أن نمكث وقتاً أطول وحيدين، وإذ الفرصة مناسبة، دعني أرجوك أن تكون صديقاً ليوريا، يا تروتوود، لا تقاومه، وفكر أولاً بوالدي وبي».

ولم يسعفها الوقت بأن تتفوه بالمزيد، فقد فُتح الباب ودخل منه السيد واتربروك. ودعتني إلى العشاء في اليوم التالي، فقبلت دعوتها وغادرت المنزل.

وعندما قصدت إلى منزل السيد واتربروك في اليوم التالي، وجدت عدة أشخاص هناك، ومن ضمنهم يوريا هيپ، وهو يرتدي بذلة سوداء، بكثير من الضعة. وظلّ يلازمني طوال السهرة، وكلما كنت أقول كلمة لآغنيس كلما كنت أتأكد من أن عينيه كانتا مركزتين عليّ.

كان من بين المدعوين شخص يدعى ترادلس، وحالما سمعت بهذا الاسم عادت بي الذاكرة إلى مؤسسة سالم، وتساءلت هل من الممكن أن يكون هو تومي نفسه؟ وأخيراً تمكنت من رؤيته جيداً وتأكدت تماماً من أنه كان تومي ترادلس الذي عرفته سابقاً!

واتجهت إلى السيد واتربروك بالحديث، وقلت له إني سعيد جداً بأن أقابل عنده صديق دراسة قديم. واستوضحت عما كان اختصاص السيد ترادلس، فقال لي السيد واتربروك «إن ترادلس شاب يدرس كي يصبح محامياً».

وعندما جهز العشاء، كنا أنا ويوريا وترادلس آخر من هبط، وهذا ما أفسح لي في المجال لتقديم نفسي لترادلس، الذي حياني ورحب بي بود عظيم، فيما كان يوريا يتلوى ويسترق النظر إلينا، بشيء كبير من الضعة والرضى، بحيث كنت أستطيع أن أدفعه من على السلم بفرح.

وافترقنا أنا وترادلس حين جلسنا إلى المائدة، وحالما صعدنا إلى الطابق العلوي وتقابلنا، بعد العشاء، كان لي الحظ بأن أقدمه إلى آغنيس. كان يبدو خجولاً، ولكنه بشوش، ولا يزال ذلك المخلوق الطيب نفسه. وكان عليه أن يرحل في الصباح التالي، لمدة شهر، إلاّ أننا تبادلنا عنوانينا، وتواعدنا على أن نتقابل مرة أخرى.

وقد أخبرتني آغنيس أنها هي الأخرى كانت مسافرة في اليوم التالي، ولهذا السبب مكثت هناك حتى غادر الجميع، ما عدا يوريا الذي لم يكف قط عن ملازمتنا. وعندما هبطت السلّم كان يسير خلفي مباشرة، وظل كذلك، عندما غادرت المنزل. وإذ تذكرت ما قد أخبرتني به آغنيس، فقد سألته ما إذا كان يود أن يأتي إلى غرفتي

ويحتسي بعض القهوة. فتلوى بجسمه وقال:

«آه، حقّاً يا سيد كوپرفيلد! لا أصدق أنك تطلب من رجل متواضع مثلي أن يأتي إلى غرفتك، ولكني سأكون فرحاً جدّاً بذلك».

«حسناً، هيا بنا إذاً».

ولم يسعني إلاّ أن أكون فظاً معه، نوعاً ما، ولكن بدا عليه أنه لم يكترث لذلك. وفيما كنت أقتاده فوق السلّم المعتم، أحسست بيده اللزجة، الباردة، وكأنها ضفدع في يدي، بحيث تشوقت إلى أن أتركها وأفر هارباً. ثم فكرت بآغنيس وسرت به إلى قرب مدفأتي. قال وأنا أحضّر القهوة:

«لم أستطع أن أتوقع رؤيتك تقوم على خدمتي يا سيد كوپرفيلد. ولكن أشياء كثيرة حدثت لي، ولم يكن في وسعي أن أتوقعها وأنا في مركزي الوضيع».

وقررت في دخيلتي أني أكرهه بشدة، وعاد يسألني عما إذا كنت قد سمعت شيئاً عن آماله، فأجبته بأني قد سمعت الشيء القليل، فصرح بأنه كان يتوقع أن تكون آغنيس على علم بذلك وهو سعيد بمعرفتها هذه. وأطلق عليّ اسم متنبّئ، إذ ذكرني بعبارتي عندما قلت له بأنه قد يصبح، في يوم من الأيام، شريكاً للسيد ويكفيلد.

أجبته بأني أذكر ذلك تماماً، ولكن هذا لم يكن متوقعاً آنذاك، فأجابني بأن الناس الوضعاء يمكنهم أن يؤدوا أعمالاً جليلة، وهو سعيد لأنه تمكن من أن يؤدي للسيد ويكفيلد أعمالاً مفيدة! وقد اتهم السيد ويكفيلد بأنه، بالرغم من كونه رجلاً معتبراً، كان عديم التبصّر.

فقلت «آسف لسماع هذا» وأضفت عن عمد «من جميع النواحي».

ووافق على كلامي كلياً، وقال إني كنت أول من أدخل إلى رأسه المتواضع أفكار الطموح، ثم طلب قدحاً آخر من القهوة. لكن ثمة شيئاً في كلامه، وفي نظرته التي كان يحدجني بها، كان يجعلني أرتعد

كأني أراه مضاء بوهج ما. وقلت أخيراً:

«وهكذا فإنّ السيد ويكفيلد، الذي يعدل خمسمائة شخص مثلك ـ أو مثلي ـ كان عديم الفطنة! أليس كذلك يا هيپ؟».

فأجاب وهو يتأوه «أه، عديم الفطنة تماماً يا سيد كوپرفيلد. ولو أن أحداً سواي كان يشغل مكاني، في هذا الوقت، لكان وضع السيد ويكفيلد تحت سلطانه». وعاد يردد ببطء «تحت سلـ..طا...نه». وفكرت آنذاك بأنه لم يكن في وسعي أن أكن له كرهاً أشد من هذا في أي وقت آخر.

وسحب منديله من جيبه وراح يمسح به يديه، ثم قال إنه سيطلعني على سر في حياته، وهو أنه يعشق الأرض التي تسير عليها آغنيس، رغم كل وضاعته. وخيل إليّ في تلك اللحظة أن فكرة جنونية طرأت عليّ، وهي أن أنتشل قضيب الحديد الأحمر الحامي من الموقد وأطعنه به. ولكنني سألته، بكيفية ما، وبحشمة أكثر مما كنت أعتقد أنه يمكن لي التظاهر بها، عما إذا كان قد صرح بمشاعره هذه لآغنيس، فأجاب:

«آه، كلا يا سيد كوپرفيلد، لم أصرح بها لأحد سواك، وهي متعلقة كثيراً بوالدها، بحيث إنها عندما تجد كم أنا مفيد بالنسبة إليه، وكم أنا أسهل له حياته، أعتقد بأنها قد تميل إلي، على حسابه».

وسبرت إذ ذاك أغوار خطة هذا المحتال بكاملها، وأدركت لماذا صرح بها إليّ. وقال إني إذا ما احتفظت بهذا السر فإنه سيعتبر ذلك بمثابة إسداء معروف خاص.

آه يا عزيزتي آغنيس! الحبيبة الغالية، والطيبة جداً! هل من المعقول أن تصبح زوجة لمثل هذا الإنسان التعيس؟

وفيما كنت أحدق إليه عاد يقول «وليس ثمة عجلة، في الوقت الحاضر، يا سيد كوپرفيلد، فحبيبتي آغنيس لا تزال صغيرة، وعليّ أنا ووالدتي أن نسير في طريقنا صعداً، وأن نحقق منجزات عديدة جديدة،

ومفيدة، قبل أن يستقر الوضع تماماً. آه إني جد ممتن لك لإصغائك إليّ».

وأخذ يدي، وبعد أن شدّ عليها بيده اللزجة، نظر إلى ساعته وقال «يا للعجب، الساعة الواحدة والنصف تقريباً، يا سيد كوپرفيلد». فزعمت أني كنت أظن أن الوقت متأخر أكثر من ذلك، لأنه لم يكن ثمة ما أقوله؛ وعندما رأيته يهبط السلم، شرّعت النوافذ لعل هواء غرفة الاستقبال يزيل آثار وجوده.

*

ولم أعد أرى يوريا هيپ حتى ذلك اليوم الذي غادرت فيه آغنيس البلدة، وكنت قصدت مكتب حجز التذاكر لأودعها، وقد كان هو هناك عائداً إلى كانترباري في العربة ذاتها. وكما فعل من قبل في حفلة العشاء، انضم إلينا وراح يستمع إلى كل ما كان يدور بيننا من أحاديث.

وعندما كتبت إليّ آغنيس تخبرني بسلامة وصولها، شعرت بالتعاسة عينها التي شعرت بها عند رؤيتي لها وهي تبتعد. وعندما كنت أغرق في بحر تأملاتي، كان هذا المشهد دائماً موضوع أفكاري، وبالكاد كانت تمر ليلة دون أن أحلم به.

كان لديّ الوقت الكافي لأفكر في تلك الفترة، لأنّ ستيرفورث كان في أكسفورد، وكنت وحيداً تماماً. كنت أكتب إليه بكثير من الود، ولكنني كنت أظن بأني جدّ سعيد، على العموم، لأنه لم يكن يستطيع أن يأتي إلى لندن في تلك الفترة.

وفي أثناء هذا الوقت، كانت الأيام والأسابيع تمر سراعاً؛ وكنت مرتبطاً بمركز سبينلو وجاركنز. وقد تلقيت من عمتي تسعين جنيهاً لأصرفها خلال العام.

وفي اليوم ذاته الذي تسجلت فيه، ابتعت بعض «السندويشات» والمرطبات وأخذتها إلى المكتب، حيث وزعتها على الكتّاب. وعند المساء مضيت إلى المسرح وحيداً.

قال لي السيد سبينلو إنه كان سيسعد بأن يراني في منزله في نوروود، لنحتفل بقضية ارتباطنا، ولكن بما أنه كان يتوقع عودة ابنته من باريس، بعد أن أنهت دراستها، فإنه سيكون سعيداً عند عودتها بأن يقيم حفلة لتكريمي، وكان السيد سبينلو طيباً، ووفى بما وعد. وفي خلال أسبوع أو أسبوعين أخبرني أني إذا جئت معه في يوم السبت القادم، ومكثت في منزله حتى يوم الاثنين، فسوف يكون سروره عظيماً. ووعدته بأن آتي. وكان عليه هو أن يصحبني. وفي يوم السبت، رحلنا معاً في المركبة، بعد انتهاء وقت العمل، وظللنا نتحدث حتى بلغنا بوابة منزله. وقد كانت ثمة حديقة جميلة تنبسط أمام المنزل، ومع أنه لم يكن الوقت المناسب للزراعة، فقد كانت حديقته تبدو جد جميلة، وملأى بالأزهار.

«هذه ابنتي دورا يا كوپرفيلد!» لقد كان صوت السيد سبينلو، دون شك، ولكنني لم أكن لأبالي بصوت أيٍّ كان، إذ إن كل شيء قد تمَّ خلال لحظة، واكتشفت أني وقعت أسيراً في حب دورا سبينلو.

كانت دورا جميلة جدّاً، براقة العينين، ساحرة، ذات وجه فتّان، وخلق يسحر اللب، حتى إني لم أكوِّن أي فكرة عما قُدّم من الطعام عند العشاء، إذ كنت طوال الوقت مأخوذاً بها، لا أبالي بمن حولي، وقد دفعت جميع الأطباق دون أن أمسها، وكنت أجلس بقربها، أصغي إلى صوتها المبهج، وضحكها الممتع. وكل ما وعيته من ذلك المساء هو أن قلبي بدأ يغني طرباً.

عندما صحوت في الصباح، كان الوقت باكراً، فخرجت لأتمشى وأستعيد طيفها، في الحديقة، التي كان يملؤها الهواء المنعش. ولم يكن قد مضى علي طويل وقت حتى استدرت ورأيتها، وشعرت بالخدر يسري من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، كما يرتعش القلم في يدي الآن أمام تلك الذكرى، قلت لها:

«إنك مستيقظة... في.. ساعة مبكرة، يا آنسة سبينلو!».

«إنها أبهج ساعة بين سويعات النهار؛ ألا تعتقد ذلك؟».

أجبتها بشيء من الارتباك أنها حقاً أبهج ساعة بالنسبة إلي في هذا الوقت، مع أنها كانت ساعة معتمة منذ دقيقة، فقالت دورا «هل تعني ما تقول حقّاً؟ أهو ثناء أم أن الطقس قد تبدل بالفعل؟».

وارتبكت أكثر من الأول وأنا أجيبها بأن هذا لم يكن ثناء، وإنما الحقيقة الواضحة، مع أني لم أكن منتبهاً إلى أي تغير في الطقس، ولكن هذا التغير حصل في حالة مشاعري.

وسرنا معاً، نخطو في الحديقة الملأى بأنواع الأزهار، وكانت دورا تتوقف هنا وهناك كيما تبدي إعجابها وحبها لبعض الورود، وتتنشق عبيرها. وعلى هذا الحال مرت عطلة الأسبوع بكاملها، دون أن أتذكر من كان موجوداً هناك، ما عدا دورا التي كنت أتحدث إليها، وأضحك لضحكها، وأصغي إلى صوتها المبهج. وعدت بعد ذلك إلى لندن وأنا أفكر بها فقط، وأتساءل متى سأراها من جديد!

وأردت في اليوم التالي أن أمضي وأزور ترادلس. كان يقطن في منزل يقوم في شارع صغير بالقرب من فيتيرينري كوليدج، في مدينة كامدن. وعندما بلغت المنزل، ذكرني الجو العام في المكان بتلك الأيام التي كنت أعيش فيها مع السيد والسيدة ميكاوبر. وإذ حدث لي وبلغت باباً، كان مفتوحاً لبائع الحليب، بعد الظهيرة، ازداد تفكيري بالسيد والسيدة ميكاوبر أكثر من السابق. وسمعت بائع الحليب يقول للخادمة الجميلة والفتية «هل دبر مال فاتورتي الصغيرة؟» فكان الجواب الذي راح بائع الحليب يدمدم به بعد أن سكب لها كمية الحليب المطلوبة في الوعاء، ومضى في سبيله «أه! إن السيد يقول إنه سيهتم بتدبيره في الحال!».

وتقدمت من الخادمة وسألتها عما إذا كان ترادلس يسكن هنا، فأجابتني أن نعم. ودخلت المنزل، وتوجهت إلى الطابق العلوي. وعندما بلغت آخر السلم، كان ترادلس يهرول في الممر الصغير

ليستقبلني. وكان جد مسرور برؤيتي، وكذلك كنت أنا. وأدخلني إلى غرفته الصغيرة، وكانت هذه الغرفة بمثابة مدخل المنزل، نظيفة للغاية، مع أنها تحتوي على القليل من الأثاث، وقد كانت الغرفة الوحيدة التي يسكن وينام فيها.

وقد أعلمني ترادلس أنه يستأجر، وثلاثة سواه، مسكناً آخر، ولكنه لحبه لي أعطاني هذا العنوان. قلت له «إن السيد واتربروك قد أخبرني أنك تتخصص في المحاماة!».

وصادق على صحة هذا القول، وقال لي بأني لا أزال أبدو الآن كما كنت أبدو دائماً. وذكرته أنا بالثوب الأزرق السماوي الذي كان يرتديه؛ فأكمل هو «ذاك الذي كان ضيقاً عند الكمين والقدمين، أليس كذلك؟ يا للعجب! لقد كانت تلك الأيام جد سعيدة أليس كذلك؟».

فأكدت على قوله،وقلت بأن أستاذنا كان يمكن أن يجعلها أكثر سعادة بكثير لو أنه لم يؤذِ أحداً منا. وأخبرني أنه كان مخطوباً إلى ابنة قندلفت، في ديفونشاير، وأنها واحدة من عشرة أولاد، وأنها فتاة طيبة وعزيزة! وقال إن خطوبتهما قد تطول كثيراً، أما شعارهما فقد كان «انتظر وعش بالأمل». وقد كانت على استعداد لأن تنتظره حتى تبلغ الستين من العمر.

انتصب واقفاً وراح يدلني بكبرياء على بعض المفروشات، وهو يقول إنهما قد بدأا يؤسسان بيتهما،ويبتاعان الأشياء تدريجاً. ورحت أنا أبدي استحساني لجميع الأشياء التي كان يريني إياها، وقال بأنه لا يربح كثيراً من المال، وإنما لم يكن يصرف كثيراً. وعلى العموم كان يتناول طعامه بثمنه مع الشخصين اللذين كانا يقطنان في الطابق الأسفل، واللذين كانا طيبين جدّاً، على حد قوله. وخلص أخيراً إلى القول «إنهما طيبان جداً، أي السيد والسيدة ميكاوبر، وقد مرت بهما مصاعب كثيرة في الحياة! وصداقتهما عظيمة للغاية».

فهتفت «تقول السيد والسيدة ميكاوبر! إني أعرفهما جيداً».

وسمعت للتوّ طرقاً مزدوجاً على الباب، وجعلني هذا، لخبرتي القديمة، أتأكد من أنهما كانا صديقي القديمين فعلاً، فرجوت ترادلس أن يطلب إليهما أن يدخلا. وفعل ترادلس ذلك نزولاً عند رغبتي، ودخل علينا السيد ميكاوبر، الذي لم يكن قد تبدل فيه شيء إطلاقاً: عصاه، ياقة قميصه القصيرة، ونظارته ذات العين الواحدة! كل هذه كانت لا تزال على حالها تماماً. دخل علينا بالطبع الفرح الشبابيّ، وقال بنبرة صوته المعتادة، فيما كان يكف عن ترديد لحن خفيف «أرجو معذرتك يا سيد ترادلس، لم أكن أدري أن عندك ضيفاً» وانحنى لي احتراماً، ورفع ياقة قميصه! فقلت له «كيف حالك يا سيد ميكاوبر؟».

فأجاب «إنك جد لطيف لسؤالك هذا يا سيدي، إنني في تمام الصحة، شكراً لك!».

وأردفت «وكيف حال السيدة ميكاوبر؟».

فأجاب «يسعدني أن أقول إنها في تمام الصحة كذلك يا سيدي!».

وطوال هذا الوقت لم يتعرف إليّ السيد ميكاوبر. ولكن ما إن رآني أبتسم حتى هتف «هل هذا معقول؟ هل لي الشرف بأن أقابل كوپرفيلد من جديد؟» واقترب مني يسلم عليّ بكلتا يديه.

سُرَّ كثيراً برؤيتي، ونادى السيدة ميكاوبر بأعلى صوته. ثم عاد يقول لي وعيناه على ترادلس «إنك تجدنا الآن نعيش، في الوقت الحاضر، بطريقة هادئة تقريباً. ولكنك تعرف بأني قد تغلبت، في مجال عملي، على جميع مصاعبي المادية، وهناك مراحل في حياتي يكون من الضروري عليَّ فيها أن أتوقف عن العمل، إلى أن يحدث شيء ما. وهذه الفترة الحاضرة هي إحدى تلك المراحل».

وفيما كان يتكلم، دخلت السيدة ميكاوبر، فاستطرد السيد ميكاوبر وهو يقدمها إليّ «إليك يا عزيزتي صديقنا كوپرفيلد الذي يود أن يجدِّد صداقته بك».

وسرّت السيدة ميكاوبر فعلاً برؤيتي. وظللنا نتحدث لمدة نصف ساعة تقريباً، وقبل أن أغادر المنزل طلبت منهم جميعاً أن يحدّدوا لي يوماً يأتون فيه ليتناولوا العشاء معي. وعيّنا للتوّ يوماً كان يناسبنا نحن جميعاً. وعندئذ غادرت مودّعاً.

احتفاءً بهذه المناسبة، ابتعت في ذلك اليوم المعيّن كل ما يلزمني من طعام وشراب، وأشعلت النار في غرفتي من أجل راحة السيدة ميكاوبر. وفي الوقت المحدد، وصل زواري الثلاثة معاً، ولشد ما كانت فرحتهم كبيرة بمسكني. قال لي السيد ميكاوبر إن طريقة الحياة هذه تذكره بتلك الفترة السعيدة من حياته، والتي كان يعيش فيها بأهنإ حال. وقلت له إني أعتمد عليه لكي يغلي لنا بعضاً من مشروب البانش. ولم أر قط رجلاً يبهج نفسه مثلما فعل السيد ميكاوبر بعد ظهر ذلك اليوم.

أما من ناحية السيدة ميكاوبر، فإن القبّرة لم تكن بأسعد منها. وسرعان ما اقتنعت تماماً بأنه كان من المستحيل عليهما أن يتبهجا بأكثر ممّا أظهرا. وكان ترادلس يضحك بطيبة طوال الوقت تقريباً. وقد أعدت لنا السيدة ميكاوبر الشاي، وبعد ذلك رحنا نثرثر قرب النار. وكانت السيدة ميكاوبر من الطيبة والسعادة بحيث شرعت تغني لنا.

كانت الساعة ما بين العاشرة والحادية عشرة عندما نهضت السيدة ميكاوبر واقفة لتعتمر قبعتها، واغتنم السيد ميكاوبر الفرصة، عندما كان ترادلس يرتدي معطفه الكبير، ودس رسالة بين يدي، فاغتنمت أنا الفرصة كذلك كي أحمل شمعة وأتقدّمهم لأضيء لهم طريق السلّم، ولأعيق ترادلس قليلاً في أعلى السلّم وأقول له «إن السيد ميكاوبر، يا ترادلس، لا يبغي أي ضرر، ولكني لو كنت مكانك لما كنت أقرضه مالاً».

فأجاب ترادلس وهو يبتسم «ليس لدي أي مال لأقرضه، يا عزيزي!».

فقلت له «إنّ لك اسمك!» فأجابني «آه! أجل طبعاً. ولكني أخشى أني قد أقرضته إياه!».

وإذ رفع السيد ميكاوبر نظره إلينا، لم يعد لدي من الوقت إلاّ لأردد

عليه تحذيري، فشكرني ترادلس وهبط السلم.

وعدت إلى جوار النار، ورحت أفكر بالسيد ميكاوبر، وبالصداقة القديمة بيننا، عندما سمعت وقع أقدام سريعة ترتقي السلم، وإذ اقترب هذا الوقع، فقد عرفت القادم، وشعرت بالدم يتصاعد إلى وجهي، إذ كانت وقع أقدام ستيرفورث. ضحك وهو يسلم عليَّ بفرح، ثم قال:

«ماذا يا دايفد! هل كانت عندك حفلة؟» وراح يجيل نظره في أنحاء الغرفة، ثم أجج النار بالقضيب وهو يتخذ مجلسه فوق المقعد. وأخبرته أنا عن صديقي ميكاوبر، بشكل دقيق، جعله يضحك لقصته، ثم أخبرته عن صديقنا ترادلس، ففرح لذلك، لكنه غيّر موضوع الحديث، وسألني عما إذا كان بوسعي أن أقدم له ما يأكله. فأخرجت ما تبقى من طعام في حفلتنا.

وفيما كان يأكل، راح يخبرني بأنه آتٍ لتوه من يارماوث، بعد أن قضى فيها حوالى أسبوع قام خلاله بأعمال الملاحة. فقلت له إن ليتيمار جاء إلى هنا ليسأل عنه. وأخيراً أعلمني أنه يحمل لي رسالة من بيغوتي، مربيتي القديمة. وأخرج بعض الأوراق من جيب صداره. وسألته عن حال الجميع، وخصوصاً عما إذا كانت إميلي قد تزوجت، فأجاب «كلا، حتى الآن، ولكنها ستتزوج بعد بضعة أسابيع، كما أعتقد، أو شهور، وعلى فكرة، لم أكن أراهما كثيراً». ثم أردف «وأظن أن الرسالة تدور حول ذلك الشخص، ما اسمه؟ إنه في حالة خطرة!».

«تعني باركيس؟».

«أجل! وأخشى أن يكون أمره على وشك الانتهاء». وفيما كنت أقرأ الرسالة، كان ستيرفورث يكمل أكله وشرابه، وعندما انتهيت من قراءتها قال لي «إن هذا الأمر لعين.. ولكن الشمس تغرب كل يوم، والناس يموتون في كل دقيقة، وينبغي ألا يخيفنا مصير الأحياء! كلاّ».

وبعد أن خضنا في حديث شبه فلسفي، يتعلق بالكون والحياة، قلت له إني أنوي أن أمضي لأرى مربيتي القديمة، ولن يكون هذا بكثير من ناحيتي

عندما أقوم بزيارتها وهي بحاجة ماسة إليّ، أمام ما كانته هي لي. ولو كنت في مكاني يا ستيرفورث أما كنت تذهب وتعتبرها رحلة يوم واحد؟».

وراح يفكر وقد بدت على وجهه علامات القلق، قبل أن يجيب «أجل! امضِ. فلن تصاب بضرر! لكني يجب أن أرى والدتي، في هذا المساء، إذ إنني لم أرها منذ وقت طويل! ولكنك ستمضي غداً، أليس كذلك؟».

«أجل! كما أعتقد!».

وودعني بعد ذلك بوقت قصير، وانطلق إلى منزله بعد أن أشعل سيكاره وقال لي وهو يبتسم «إذا ما وقع ما يفرقنا فأرجو أن تفكر بي حسناً يا كوپرفيلد». وفيما كنت أخلع ملابسي في غرفتي، إذا برسالة السيد ميكاوبر تسقط على الأرض، فأخذتها وفضضتها وقرأت ما يلي، وقد كانت مؤرخة قبيل ميعاد العشاء بساعة ونصف:

«سيدي، لأني لا أجرؤ على أن أقول عزيزي كوپرفيلد، إنه من الضروري أن أعلمك بأن كاتب هذه السطور قد تحطم. وقد كتبت هذه الرسالة إليك وأنا بالقرب من مأمور الحجز القانوني الذي انتُدب، لأني لم أتمكن من تسديد بدل الإيجار. وأعلمك بأن قائمة الجرد، التي أعدها بالموجودات، لا تتضمن كل شيء يعود إليَّ وحسب، وإنما تتضمن الموجودات التي يملكها السيد توماس ترادلس، المستأجر مني. وكنت استدنت من السيد ترادلس هذا مبلغاً زهيداً لأن مبلغ الثلاثة والعشرين جنيهاً، والأربعة شلنات، والتسعة بنسات ونصف، استحق علي ولم يسدد....».

مسكين ترادلس! كنت أعلم أن السيد ميكاوبر في وسعه أن يجتاز هذه المحنة، وأن يتعافى من جديد، ولكن صفو ليلتي قد عكر بالتفكير بوضع تومي ترادلس، وبابنة القندلفت في ديفونشاير، الفتاة الطيبة، التي ستنتظر ترادلس إلى أن تبلغ الستين من العمر، ورحت أفكر أيضاً بعزيزتي دورا التي كانت تزورني في أحلامي في كل ليلة، بعينيها البرّاقتين.

9

أخبرت السيد سبينلو في صباح اليوم التالي بأني في حاجة إلى عطلة قصيرة، فلم يبدِ لذلك أية ممانعة. وقصدت إلى يارماوث في المساء، وسرت إلى النزل، حيث تناولت طعام العشاء. وكانت الساعة العاشرة مساء عندما خرجت وقصدت إلى دكان السيد أومر، ولمّا كانت معظم المحلات مقفلة أبوابها، فقد رأيت السيد أومر جالساً في الداخل يدخن غليونه، بالقرب من باب ردهة الجلوس، فدخلت وحيّيته. وسرّ كثيراً برؤيتي. ولمّا سألته عن إميلي قال «لكم سأكون سعيداً، عندما يتم عقد قرانها!».

ولما سألته عن سبب ذلك أجاب «لأنها غير مستقرة في هذه الأيام، ولأنها ليست جميلة كما كانت، وإنما لأنها تبدو أجمل، أجل، أؤكد لك ذلك».

وأعلمني بمرض باركيس الخطير، وقال إن زواج إميلي بهام قد تأخر بسببه. فأجبت بأني أعلم ذلك، وتمنيت له ليلة سعيدة، وتركته وسرت قاصداً منزل بيغوتي، يتملّكني شعور بالوقار والخشوع.

وبعد أن طرقت باب مربيتي بيغوتي، جاء السيد بيغوتي، نفسه، ليفتح لي. تصافحنا بحرارة؛ ودخلنا المطبخ معاً، حيث وجدنا إميلي تصطلي بقرب موقد النار، وهام يقف إلى جانبها. قال السيد بيغوتي: «انظري من هنا، يا عزيزتي إميلي، إليك السيد دايفي!».

وعندما دخلت بيغوتي احتضنتني بين ذراعيها، وباركتني وشكرتني على مؤاساتي لها في أحزانها، ثم رجتني باكية أن أصعد إلى غرفة السيد باركيس الذي كان دائماً يحبني ويتحدث عني، ولكنه لم يتمكن من رؤيتي. صعدنا وظللنا واقفين هناك بعض الوقت، حتى راح أخيراً يهذي بصوت واهن، وكان من المؤكد أنه يتناول في هذيانه تلك الفترة

التي كان ينقلني فيها إلى المدرسة، فقالت پيغوتي «إنه يعود إلى وعيه! باركيس، عزيزي!».

فهتف بوهن شديد «كلارا پيغوتي باركيس، ليس من امرأة أفضل منها في العالم» فقالت له پيغوتي، بما أنه كان يفتح عينيه الآن «انظر، إن السيد دايڤي هنا!».

وكنت على وشك أن أسأله عما إذا كان قد عرفني عندما حاول أن يمد ذراعه، قال لي؛ بوضوح، والبسمة المبهجة تظلل وجهه «إن باركيس يود...».

وهنا تنهد تنهيدة عميقة، وأغلق عينيه إلى الأبد.

قررت أن أبقى إلى ما بعد الجنازة، وكنت أشعر ببعض الرضى بمؤاساتي لپيغوتي وبقائي إلى جانبها، بالإضافة إلى اهتمامي بوصية السيد باركيس. كانت تركته تبلغ حوالى ثلاثة آلاف جنيه، وقد ترك للسيد پيغوتي مبلغ ألف جنيه، يعمل بها وهو لا يزال حياً، أما بعد وفاته فقد أوصى بأن يقسم المبلغ الباقي بكامله، بالتساوي، بيني وبين پيغوتي وإميلي. وقد خلف كل ما تبقى من أثاث لپيغوتي.

قضيت أسبوعاً كاملاً أقوم بإنجاز أعمال پيغوتي، ولم أرَ إميلي أبداً خلال هذه الفترة. وفي صباح يوم الجنازة مضيت إلى بلندرستون، في ساعة مبكرة، ولم يحضر هذه الجنازة سوى پيغوتي وشقيقها، وبعدها مشينا في المقبرة لمدة ساعة، وجمعنا بعض الوريقات الخضراء من الشجرة التي كانت تظلل قبر والدتي ووضعناها على قبر باركيس. وكان على پيغوتي أن تمضي معي إلى لندن في اليوم التالي لإنفاذ وصية زوجها السيد باركيس نهائياً. أما إميلي فقد كانت تمضي ذلك النهار عند السيد أومر. واتفقنا على أن نلتقي جميعنا في مركب السيد پيغوتي القديم، في ذلك المساء.

وفي المساء قصدت منزل السيد پيغوتي، وما أسرع ما بلغته ورأيت

الأنوار تشع من خلال نافذته. كان السيد پيغوتي يدخن بغليونه المسائي، فيما كانت الاستعدادات قائمة لتحضير طعام العشاء بعد قليل. كانت النار مشتعلة بشكل مبهج. وأما پيغوتي فقد عادت لتجلس في مكانها المعتاد، من جديد، وتبدو وكأنها لم تبارحه قط، وتنكب على أعمال الإبرة القديمة، الموضوعة في الصندوق، حيث يتربع على غطائه تمثال القديس پولس، بالإضافة إلى «المازورة» وقطعة الشمع. وكان جميع الموجودين كما لو أنهم لم ينزعجوا لشيء قط.

نهض السيد پيغوتي من مكانه، بعد أن نظر إلى الساعة وأضاء الشمعة، ثم وضعها على النافذة، وهو يقول بفرح «لقدكنت الأول يا سيد دايڤي، ولكن ها أنا أضيء الممر، كالعادة! إنك تتساءل لِمَ فعلت هذا؛ فعلته من أجل إميلي. إن الممر مظلم، وقد اعتدت، عندما أكون هنا في مثل هذه الساعة، التي تعود هي فيها إلى المنزل، أن أضع لها هذه الشمعة. ها هي ذي قادمة!».

ولكن «هام» هو الذي كان قادماً بمفرده. فبادره السيد پيغوتي حال دخوله بالسؤال «أين إميلي؟».

وهزّ هام رأسه كما لو أنها كانت في الخارج، ثم قال «أتود يا سيد دايڤي أن تخرج معي للحظة لأعرض عليك ما عليّ أن أريك إياه أنا وإميلي؟».

وخرجنا، وفيما كنت أمر أمامه عند الباب، دهشت وجزعت جداً لأني رأيته شاحب الوجه بشكل مخيف، فدفعني إلى الهواء الطلق، وأغلق الباب وراءنا، فقلت له «ما الأمر يا هام؟».

آه، لكم بكى بفعل قلبه المحزون «يا سيد دايڤي... إن حبيبتي ومبعث فخري وأمل قلبي... التي مت غراماً بها، والتي أموت من أجل غرامها الآن، قد مضت!».

«إميلي مضت!» ورأيت الباب ينفتح، وحاولت بالغريزة أن أمسك

بمقبضه الخارجي للحظة، كيما أكسب بعض الوقت، ولكن عبثاً، فقد أطلّ منه السيد بيغوتي برأسه. ولن يسعني أن أنسى التغيُّر الذي طرأ عليه عندما رآنا نحن الاثنين، حتى ولو عشت خمسمائة سنة.

إني أذكر عويلاً ونحيباً فيما كانت المرأتان تحيطان به ونحن جميعاً نقف وسط الغرفة، وأنا أحمل الورقة التي كان أعطانيها هام. وخلال السكون المطبق رحت أقرأ ما جاء في الرسالة المبقعة:

«عندما تقرأ هذه الرسالة، أنت يا من أحبني أكثر بكثير مما كنت أستحق، حتى عندما كان عقلي ساذجاً، فإني سأكون قد مضيت بعيداً!». وراح يردد عبارة «مضيت بعيداً» من بعدي. وكانت الرسالة تحمل تاريخ ليلة البارحة. وأكملت القراءة «وعندما أترك منزلي العزيز، فمعنى ذلك أني لن أعود إليه إلاَّ إذا أعادني هو سيدة، آه! لو تعلم كم هو قلبي ممزق. إني أؤذي نفسي لأني أكتب عنها. وارتح أنت بأن تفكر بأني جد سيئة. آه، من أجل رحمة الله، قل لخالي إني لم أحبه قط بنصف المقدار الذي أحبه به الآن. ولا تتذكر أنت أبداً بأننا كنا على وشك أن نتزوج في يوم من الأيام، وإنما حاول أن تتصوّرني على أني قد مت عندما كنت طفلة، ودفنت في مكان ما. اعْشقْ فتاة غيري طيبة بحيث تحل محلي بالنسبة إلى عمي، وتكون صادقة ومحبة لك وتستأهلك ولا تعرف أي عار مثلي، وليباركـكم الرب جميعاً. وإلى خالي بدموعي وتحياتي الأخيرة». كان هذا كل ما جاء في الرسالة.

وظل السيد بيغوتي، بعد أن فرغت من القراءة، واقفاً يحدق إلي لوقت طويل، ثم سألني بصوت هامس «من هو ذلك الرجل؟ أود أن أعرف اسمه!».

ونظر هام إليّ، وفجأة شعرت بصدمة تنتابني من جديد. وأصرّ السيد بيغوتي على معرفة اسم الشخص، وقال هام بصوت ضعيف: «من أجل الله يا سيد دايفي، ليست الهفوة هفوتك، وإنما اسم الشخص هو ستيرفورث، وهو نذل وخسيس».

وبدا على السيد بيغوتي أنه لم يأتِ حراكاً ولم ينبس بكلمة إلى أن استرد وعيه من جديد، فأخذ معطفه الخشن من فوق الوتد، ثم طلب قبعته، فسأله هام إلى أين يريد، فقال:

«إني ماضٍ للبحث عن ابنة أختي. إني ماضٍ للبحث عن حبيبتي إميلي الصغيرة».

فهتف هام وهو يعترض طريقه عند الباب «ولكن أين؟!».

«في أي مكان! إني ماضٍ للبحث عن ابنة شقيقتي في العالم كله. إني ذاهب للعثور عليها بالرغم مما لحق بها من عار، وسأعود بها. فلا يحاولنَّ أحد أن يردعني! أقول لك إني ماض للبحث عن ابنة شقيقتي!».

وقد اقترح أولاً أن يقابل السيدة ستيرفورث، ولمّا وجدت أني مرغم على مساعدته في محنته، فقد بعثت إليها ذلك المساء برسالة أعلمتها فيها بأن بيغوتي رجل عادي، يعيش حياة عادية للغاية، وإنما هو ذو خُلق سامٍ ونبيل. وتجرأت أن أقول لها إني آمل ألاّ ترفض مقابلته من أجل قضيته الصعبة! وعينت لها الساعة الثانية بعد الظهر، كموعد لوصولنا.

أدركت للتوّ، عندما وصلنا، من خلال وجه السيدة ستيرفورث أنها كانت قد علمت من ابنها شخصياً بما أقدم عليه. فجلست مستقيمة في مقعدها، دون أن يبدو عليها أي تأثير، وراحت تحدق إلى السيد بيغوتي بثبات عميق، عندما جلس أمامها، وبدأت حديثها قائلة:

«إني أعرف، مع الأسف الشديد، الأمر الذي أتى بكما إلى هنا، فما الذي تريدان مني، وماذا تطلبان مني أن أفعل؟».

أعطاها السيد بيغوتي رسالة إميلي بعد أن وضع قبعته تحت إبطه ثم قال «أرجوكِ أن تقرأي هذه، أيتها السيدة، إنها بخط يد ابنة أختي!».

فقرأتها بالطريقة العادية اللامبالية، ودون أن تتأثر بشيء من محتوياتها، كما استطعت أن ألاحظ، ثم أعادتها إليه.

قال السيد بيغوتي وهو يتعقب بأصبعه هذه العبارة «... إلاّ إذا

أعادني هو سيدة..» وقد جئت إلى هنا لأعرف ما إذا كان سيبقى على كلمته أيتها السيدة.

فأجابت «كلاّ!».

فقال السيد پيغوتي «ولِمَ لا؟».

«ذلك مستحيل، سيلحق بنفسه العار. وأنت تعلم تماماً بأنّ مستواها أدنى من مستواه بكثير».

فقال السيد پيغوتي «يمكنكِ أن ترفعيه!».

«إنها غير مثقفة، وأميّة!».

وعاد السيد پيغوتي يقول «قد تكون كما تقولين وقد لا تكون! أنا لا أظن هذا أيتها السيدة، ولكني لا أستطيع أن أميّز جيداً، فعلميها أنت أفضل!».

«بما أنك ترغمني على الكلام بصراحة أكثر، في حين لا أود أنا هذا، فإني أقول إن أقرباءها الوضيعين يجعلون من ذلك مستحيلاً. هذا إن لم يكن ثمة شيء آخر أيضاً!».

فأجاب السيد پيغوتي بهدوء وتؤدة «أصغي إلى ما سأقوله، أيتها السيدة، أنتِ تعرفين ما معنى حبكِ لابنك، وكذلك أنا، ولو أنها كانت هي ابنتي مائة مرة، لما كنت أستطيع أن أحبها أكثر ممّا أحبها الآن. وأنتِ لا تعرفين ما معنى فقدانكِ لابنك، وإنما أنا أعرف. والذي أريده هو أن تحفظيها بعيدة عن ذلك العار!».

قالت له إنّ مثل هذا الزواج مستحيل، إذ إنه سيضر بمصلحة ابنها، وإذا شاء أي تعويض فهي جاهزة... فاتهمها بأنها لا تقل خساسة عن ابنها الذي كان يظهر له وجهاً ودوداً باسماً، في حين أنه كان خسيساً مخادعاً. فتغيّر وجه السيدة ستيرفورث على الفور، وبدا عليها الغضب، فقبضت على ذراعي مقعدها بشدة، واقتربت منها الآنسة دارتل، التي كانت تقف خلفها طوال الوقت، وحاولت أن تهدئ من روعها، فلم تستطع، لكن السيدة ستيرفورث أبعدتها عنها وهي تطلب إليها أن

تقول لابنها «إذا ما عاد عن نزوته الآن فبإمكانه أن يدخل المنزل، وأرحّب به، أما إذا لم يتخل عنها فإنه لن يقترب مني بعد الآن، حياً أو ميتاً، ما دمت أستطيع أن أرفع يداً وأعارض، وإن لم يتخلص من هذه الفتاة إلى الأبد، ويقصد إليّ ليرجوني بتواضع الصفح والغفران».

كنت وأنا أرى غضب الأم، وهي تنطق بهذه الكلمات، أستطيع أن أتصوّر بأني أرى وأسمع ابنها يبدي ازدراءه بها. وقد رأيت فيها روحاً قاسية صلبة، لا تستسلم. ونهض السيد بيغوتي أخيراً وطلب إليها ألاّ تحتد، فإنه سيعود كما أتى، دون أن يكون له أمل. وكان علينا أن نمر بطريقنا إلى الخارج بغرفة مرصوفة بالبلاط، لها بابان زجاجيان يؤديان إلى الحديقة، وكانا مفتوحين. واقتربت مني روزا دارتل بهدوء في تلك الغرفة، وقالت:

«لِمَ جئت بهذا الرجل؟».

أجبت بأنه رجل جُرح جرحاً بليغاً، فقالت وهي تحاول أن تكبت غضبها «أنا أعرف أن لستيرفورث قلباً مزيفاً وفاسداً، وهو غدّار. ولكن ما حاجتي أنا إلى أن أهتم أو أتعرف بهذا الرجل أو بابنة شقيقته الوضيعة؟».

فقلت لها إنها قد عمّقت من جرحه، وإن هذا الجرح بليغ بشكل كاف. واتهمتها بأنها قد أساءت إليه كثيراً.

«إني لم أسئ إليه بشيء، إنهم أناس دنيئون لا قيمة لهم. وإني لأود أن أجلدها بالسوط!».

تابع السيد بيغوتي سيره دون أن ينبس ببنت شفة، ثم اندفع خارج الباب، فيما كنت أقول للآنسة دارتل إن هذا لمن المشين حقاً. إلاّ أنها تابعت تقول بأنها تود أن تقتص الآن من إميلي إذا ما استطاعت، وأنها تحب أن تراها وعليها أسمال بالية، متشردة في الشوارع، جائعة، وتود كذلك أن تنزل عليها كل اللعنات في ساعة موتها.

ولم تكن حميّا كلماتها بالذات لتدل إلاّ على تعبير ضعيف للانفعال

الذي كانت تعانيه. وأخيراً اندفعتُ إلى الخارج، ولحقت بالسيد پيغوتي، الذي كان يهبط التلة بتؤدة، وهو غارق في بحر تفكيره. قال لي حالما سرت إلى جانبه إنه سيمضي للبحث عن ابنة شقيقته في كل مكان، وطلب إلي أن أتذكر إذا ما لحق به أي مكروه بأن كلماته الأخيرة هي «إن حبي الذي لم يتغير هو لطفلتي الحبيبة، وإني أسامحها».

وفي صباح اليوم التالي خرجت أنا وپيغوتي واتجهنا إلى مكتب حجز التذاكر، كي نستقل العربة إلى لندن، وقد كان السيد پيغوتي وهام في وداعنا.

وعندما وصلنا لندن، كان علينا أولاً أن نبحث عن غرفة تسكن فيها پيغوتي، وكنا محظوظين إذ وجدنا مسكناً يبعدني عنه شارعان. وبعد ذلك ابتعت اللحم المقدد، وسرت بها إلى منزلي لتتناول الطعام معي.

*

طوال هذه الفترة، كان حبي لدورا يزداد ويقوى، وقد كانت تسيطر على أفكاري بحيث إني ما كدت أرى پيغوتي إلى جانبي، في مساء يوم، حتى أخبرتها بسري الكبير، وقد أبدت پيغوتي اهتماماً كبيراً، ولم تكن تجد أي مسوّغ لمخاوفي بشأن حب دورا لي، أو بشأن موافقة والدها على زواجي بها.

وأظن أنه مضى شهر تقريباً قبل أن أراها من جديد، إذ حدث أن السيد سبينلو كان يتحدث إليَّ في أحد الأصباح، وقد أخبرني أن عيد مولد دورا يصادف في عطلة نهاية هذا الأسبوع، وأنه سيكون جد مسرور إذا ما جئت وشاركت في رحلة صغيرة يقومون بها في هذه المناسبة.

وأعتقد أني قد ارتكبت كل حماقة ممكنة وأنا أقوم بإعداد نفسي لهذا اليوم الموعود، وكنت أشعر بالحرارة والدفء عندما أتذكر رباط العنق الذي ابتعته، أو الحذاء، إلخ... ولكن في نهاية ذلك اليوم، الذي قمنا فيه بأجمل رحلة في حياتي، مع دورا، كان عليَّ أن أبوح لها

بحبي، بعد أن تضاحكنا ولهونا، وبعد أن أمضينا الليل معاً، نتبادل نظرات الغرام، والحب، وكانت قد سمحت لي بتقبيل يدها مراراً، ولم أدر كيف حصل أن صارحتها بحبي. لقد قمت بذلك خلال لحظة واحدة، وكنت فصيحاً في كلامي، فلم أتوقف أو أتعلثم عند أية كلمة. أخذتها بين ذراعي وأخبرتها بأي قوة كنت أحبها، وبأني أعشقها وأهيم بها، وسأموت بدونها.

وحين أحنت دورا رأسها وانخرطت في البكاء، وهي ترتعش، ازدادت بلاغتي في الكلام، ورحت أقول إنها إذا ما شاءت مني أن أموت من أجلها، لما كان عليها إلاّ أن تطلب إلي ذلك، ولكنت مستعدّاً لتنفيذ طلبها، إذ إن الحياة بدون حبها لم تكن تعني شيئاً، ولما كنت أستطيع أن أتحملها، أو أشاء أن أتحملها. لقد كنت أشعر بحبي لها في كل دقيقة، ليل نهار، منذ أن رأيتها للمرة الأولى. لقد عشق المحبون قبلي، وسيعشق المحبون من بعدي، لكن أحداً لم ولن يعشق بمثل القوة التي أعشق بها دورا.

وما أسرع ما كنا نجلس على الأريكة جنباً إلى جنب، أنا ودورا، يخيم علينا الهدوء، وكنت أنا غارقاً في بحر من السعادة. لقد كانت خطوبتنا قد تمت.

*

وكتبت إلى آغنيس حالما تمت خطوبتي بدورا، كتبت إليها رسالة مطولة أطلعها فيها على مدى سعادتي، وعلى مدى حبي لدورا العزيزة. وكان صديقي ترادلس قد جاء ليراني مرتين أو ثلاث مرات في أثناء غيابي، ولمّا كان يجد بيغوتي هناك، ولمّا سمع أنها كانت مربيتي القديمة، فقد أصبحا صديقين، وجلس معها ذات مرة وراحا يتكلمان عني.

كنت أتوقع مجيء ترادلس بعد ظهر أحد الأيام، وقدْ حان ذلك اليوم، وأتى في الوقت المحدد، فقلت له بعد أن استقبلته بحرارة:

«إني مسرور جداً برؤيتك يا عزيزي ترادلس، وجد متأسف لأنك

جئت من قبل ولم تجدني في المنزل، ولكني كنت جد منهمك...».

فقاطعني ترادلس «أجل! أجل، إني أعلم! طبعاً. أعتقد أن الآنسة دورا موجودة في لندن؟».

«آه، أجل! بالقرب من لندن. كيف حال السيد ميكاوبر؟».

أجاب ترادلس «إنه على خير ما يرام، يا كوپرفيلد، شكراً لك، ولكني لا أعيش معه في الوقت الحاضر».

«لا تعيش معه!؟».

فقال ترادلس بما يشبه الهمس «كلاّ، والحقيقة أنه قد غير اسمه وأصبح الآن يحمل اسم مورتيمار، وذلك نتيجة لكثرة ديونه، وهو لا يحاول أن يخرج من المنزل إلى ما بعد حلول الظلام، كما أنه يضع نظارة على عينيه. لقد فُرِّغ منزلهما، ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش في مسكن مفروش. وآمل ألاّ تعتبر ذلك بدافع من الأنانية إذا ما أخبرتك بأن الدلاَّل أتى وأخذ لي طاولتي المستديرة الصغيرة، ذات الوجه الرخامي، وإناء الزهور العائد لصوفي مع كرسيها».

فهتفت «يا للعار».

أضاف ترادلس يقول «هذا ما حصل، إلاّ أني ظللت أراقب دكان الدلاَّل، وأخيراً، أي اليوم، وجدتهم يعرضون الطاولة وإناء الزهور للبيع، ففكرت، بما أن المال في حوزتي الآن، أنك قد لا تمانع في أن أطلب من مربيتك الطيبة أن تأتي معي لتساومهم بقدر استطاعتها على السعر».

أجبته بأننا نحن الثلاثة سنقصد الدكان، ولكن على شرط واحد، هو أن يعدني وعداً شريفاً بأنه لن يعير اسمه للسيد ميكاوبر ليقوم هذا باستغلاله، ولن يقرضه أي شيء آخر.

ومضينا لنستدعي پيغوتي، وسِرنا بعد ذلك في طريق توتينهام كارت، حيث راحت بيغوتي تساوم على ثمن تلك القطع ثم ابتاعتها بسعر زهيد وعادل.

10

عدت أنا وپيغوتي إلى المنزل مساءً، وفي طريقنا إلى الطابق العلوي، دهشنا كثيراً إذ رأينا باب مسكني الخارجي مفتوحاً، وسمعنا دمدمة أصوات، فدلفنا إلى غرفة الجلوس، ولشد ما كانت دهشتي كبيرة إذ وجدت هناك عمتي والسيد ديك.

صحت «عمتي العزيزة! ما هذه السعادة غير المتوقعة!».

واقتربت منها، وتبادلنا القبل، ثم حيّيت السيد ديك بكثير من الود وقلت لپيغوتي «هل تذكرين عمتي، يا پيغوتي؟».

فهتفت عمتي «من أجل الله، أيها الولد، لا تدعُ هذه المرأة بذلك الاسم. وإذا كانت قد تزوجت، وتخلّصت منه، فلمَ لا تغدق عليها نعمة هذا التبدل؟» وسألت پيغوتي «ما اسمك الآن؟».

فأجابت پيغوتي باحترام «باركيس، أيتها السيدة!».

فقالت عمتي «حقاً! هذا أفضل! كيف حالك يا سيدة باركيس؟».

واقتربت السيدة باركيس، وقد تشجّعت بهذه الكلمات، وبذراع عمتي التي مدتها إليها، اقتربت وحيّتها. وقالت عمتي «إننا أكبر سنّاً مما كنا عليه، لقد تقابلنا مرة، قبل اليوم، أليس كذلك؟».

وكنت أدرك تماماً بأن عمتي حين تتكلم عن الأيام الطيبة يكون ثمة شيء مهم في تفكيرها. وإذ أدركت أنها تود أن تتكلم الآن عن تلك الأوقات السعيدة، ليس إلاّ، فقد جلست بقربها ورحت أنتظر بفارغ الصبر.

كانت عمتي قد جاءت معها بالعصفورين، داخل قفصهما، وببعض الأمتعة، ووضعتها أمامها، فيما كانت هرتها تتكوّر في حجرها. وكان ديك قد جلب معه طائرته الورقية الكبيرة، وهو يستند إليها الآن.

قالت عمتي أخيراً، بعد أن انتهت من احتساء فنجان الشاي

«تروت!... لا حاجة بكِ إلى الخروج يا سيدة باركيس، لمَ تظنني جئت إلى هنا هذا المساء، يا حبيبي تروت؟».

فهززت رأسي وأنا عاجز عن الإجابة. فراحت عمتي تقول «لأنني قد تحطمت يا عزيزي!».

ولو أن المنزل برمّته كان قد سقط بنا جميعاً في النهر، لما كنت قد شعرت بصدمة أشد من هذه.

وردّدت عمتي وهي تلقي بيدها فوق كتفي بلطف «لقد تحطمنا يا عزيزي تروت، وكل ما أملكه من حطام الدنيا موجود الآن في هذه الغرفة، ما عدا المنزل الصغير، وقد تركت فيه جانيت كيما تؤجره، وإني أود منكِ، يا سيدة باركيس، أن تحصلي على سرير للسيد ديك، في هذه الليلة، وربما استطعتِ أن تجهزي لي شيئاً ما هنا. أي شيء قد يصلح، وذلك من أجل قضاء هذه الليلة فقط. وسنتحدث عن هذا الموضوع غداً، وبشكل أفضل».

تنبّهت من دهشتي على انحنائها فوق عنقي للحظة وهي تنتحب وتقول إنها حزينة من أجلي فقط. وعندما استعدت كامل وعيي، وشفيت من صدمة هذه الأفكار، اقترحت على السيد ديك أن نمضي ونحصل على غرفة حيث تسكن پيغوتي، وحاولت أن أستعلم منه عما إذا كانت لديه فكرة عن سبب التبدل الكبير، والمفاجئ، في أوضاع عمتي. وكما توقعت، لم تكن لديه أي فكرة.

كانت عمتي في حالة ذهنية هادئة. وبعد أن غادرتنا پيغوتي، في تلك الليلة، قالت لي عمتي «عموماً، يا تروت، أنا لا أهتم بالوجوه الغريبة، ولكنني أحببت مربيتك السيدة باركيس!».

فقلت «رائع جدّاً أن أسمعك تقولين هذا!».

«إنها متعلقة بك بشكل فظيع يا تروت!».

فقلت «إنها لا تتوانى عن عمل أي شيء لكي تعبر دائماً عن حبها لي!».

قالت عمتي «أجل، لا تتوانى عن عمل أي شيء! لقد كانت هذه المسكينة ترجوني أن آخذ بعضاً من مالها، لأن لديها مبلغاً كبيراً». ورأيت دموع الفرح تتساقط من عيني عمتي وتغسل لها وجهها.

«لقد انخرطنا في بعض الأحاديث أنا وهي، عندما كنت أنت والسيد ديك في الخارج. وقد أخبرتني هي بكل شيء عنها. وهي تظن أنك عاشق، أليس كذلك؟».

«أتصور ذلك يا عمتاه!» هتفت وحمرة الخجل تلوّن وجهي «إني أحبها من كل قلبي!».

فقالت عمتي وهي تهز رأسها وتبتسم بحزم «آه يا دايڤد، إنك جاهل! جاهل! جاهل! مهما يكن من أمر، أنا لا أود أن أحزن إنسانين، ولذا سنكون جديين حول الموضوع، ونأمل أن نصل إلى نتيجة في الأيام المقبلة! ثمة متسع من الوقت».

وكم كنت تعيساً في تلك الليلة عندما أويت إلى فراشي، وكم فكرت وفكرت بمسألة كوني فقيراً، وكوني قد تغيّر حالي ولم أعد كما كنت عندما تقدمت بطلب الزواج من دورا. وفكرت طويلاً كذلك بضرورة مصارحة دورا بما حدث، وطلب فسخ خطوبتنا إذا ما شاءت هي فسخها.

وقد كانت عمتي قلقة، في تلك الليلة أيضاً، لأني كنت أسمعها تذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

وكان يوجد حمام روماني في تلك الأيام، في نهاية أحد الشوارع، على مسافة قريبة من ستراند. وبعد أن ارتديت ثيابي بهدوء وتؤدة عظيمين في صباح اليوم التالي، تركت پيغوتي تهتم بأمر عمتي في المنزل، وقصدت إلى ذاك الحمام، وبعد أن أخذت حمّاماً حارّاً، قصدت هامبستيد، وفي شارع هيث تناولت طعام الفطور، ثم سرت إلى المكتب، وقد قررت أن أول خطوة كان عليّ أن أتخذها هي أن

أجد ما إذا كان من الممكن إلغاء فترة تدريبي، واستعادة القسط المدفوع. ووصلت المكتب بسرعة فائقة، بحيث كان لا يزال عندي نصف ساعة من الوقت، فانتظرت إلى أن دخل السيد سبينلو، وابتدرني قائلاً «كيف حالك يا كوپرفيلد؟ عم صباحاً!».

فأجبت «صباح الخير يا سيدي! هل يسعني أن أقول لك كلمة قبل أن نمضي إلى المحكمة؟».

قال «لا بأس. ادخل إلى غرفتي!».

وتبعته إلى غرفته وقد شرع يرتدي ثوب المحاماة، ويحسن من هندامه أمام مرآة صغيرة مثبتة داخل باب خزانته. قلت «يؤسفني أن أقول إنني سمعت أخباراً محزنة عن عمتي».

فهتف السيد سبينلو «لا، يا إلّهي!آمل ألاّ يكون شللاًَ؟».

فأجبت «الخبر لا يمت إلى صحتها بصلة يا سيدي! لقد واجهتها خسائر مادية فادحة. والحقيقة أنه لم يبق لها إلاّ النزر القليل من المال!».

فقال السيد سبينلو «إنك تذهلني يا كوپرفيلد!».

فهززت رأسي وقلت «بالفعل يا سيدي! لقد تغيرت أحوالها بحيث إنني أود أن أسألك ما إذا كان ممكناً... وطبعاً سنتنازل من ناحيتنا بخصوص القسط.. أن ألغي فترة التدرُّب».

وراح يردد «أن تلغي فترة التدرّب، يا كوپرفيلد؟ أن تلغيها؟».

ورحت أشرح له بشيء من الحزم المعقول والمقبول بأني لم أكن أعرف حقّاً من أين كانت ستتحقّق وسائل بقائي إن لم أستطع أنا تحقيقها بنفسي. وقلت له أن ليس عندي أي خوف من المستقبل... ورحت أؤكد بشدة على هذه العبارة، كما لو أني كنت أشير إلى أني سأبقى، حتماً، لائقاً لأكون صهراً في أحد الأيام! ولكني في الوقت الحاضر يجب أن أنظر إلى أبواب الرزق.

فقال السيد سبينلو «يؤسفني أن أسمع هذا منك يا كوپرفيلد، يؤسفني جدّاً! ولكن ليس من العادة أن نلغي فترات التدرب لمثل هذا السبب، وليست هذه بالسابقة المستحسنة أبداً. مستبعدة جداً. وفي الوقت ذاته...

قلت وأنا أتوقع منه الإذعان «إنك جد طيب يا سيدي!».

فقال «كلاّ، مستحيل! لا تأتِ على ذكر هذا الموضوع! وكنت أقول، وفي الوقت ذاته لو أن الموضوع يتعلق بي وحدي لكي أنهيه... لو أنه لم يكن لي شريك... السيد جاركنز».

وتبددت آمالي في خلال لحظة، ولكنني قمت بمجهود آخر فقلت «هل تعتقد يا سيدي، بأني إذا ما ذكرت الموضوع للسيد جاركنز...

فهزَّ السيد سبينلو رأسه بعدم تشجيع وأجاب «معاذ الله أن أُلحق الإجحاف بأي إنسان. مع أن السيد جاركنز صعب للغاية يا كوپرفيلد! وأنت تعرفه!».

وأدركت بوضوح تام أن إعادة مبلغ فترة التدرُّب إلى عمتي لم يعد موضوع بحث، فتركت المكتب في حالة يأس، وسرت متجهاً نحو المنزل. وكنت أحاول أن أفكر بالإجراءات التي سيكون علينا اتخذاها مستقبلاً عندما جعلتني عربة خيل كانت تسير خلفي وتتوقف بقربي، أنظر إلى أعلى وأرى يد فتاة شقراء تمتد نحوي من نافذة العربة.

فهتفت بفرح كبير «آغنيس، آه يا عزيزتي! يا للسعادة برؤيتك. لم أكن أود أن أرى أحداً سواك».

فقالت آغنيس «ماذا تقول؟».

فقلت وأنا أحمرّ خجلاً «حسناً، ربما دورا أولاً!».

وأكدت آغنيس ضاحكة «طبعاً، دورا أولاً، كما آمل!».

وعدت أقول «ولكن أنت تأتين بعدها مباشرة! إلى أين تقصدين!».

كانت في الواقع تقصد منزلي لترى عمتي، فطلبت من الحوذي أن

يمضي في سبيله، وأمسكت يد آغنيس بيدي، وسرنا معاً. لقد كتبت عمتي إلى آغنيس تخبرها أنها فقدت ثروتها، وأنها تهم بمغادرة دوڤر إلى الأبد، وهي في تمام الصحة وليس ثمة داعٍ يبعث على القلق، ولذلك أتت آغنيس إلى لندن لتراها، إذ إنها كانت تُحبها كثيراً. وقالت إنها لم تكن وحيدة، وإنما جاءت بصحبة والدها... ويوريا هيپ.

فهتفت عندئذ وأنا أحاول إهانة يوريا:

«والآن أصبحا شريكين! تباً ليوريا!».

فقالت «أجل! وإن لديهما بعض الأعمال هنا، فاغتنمت أنا فرصة مجيئهما وقدمت أيضاً، لأني لا أود أن يبقى والدي معه بمفرده!».

«ألا يزال له التأثير ذاته في السيد ويكفيلد، يا آغنيس؟».

هزت آغنيس رأسها ثم قالت «لقد حدثت تبديلات جذرية في منزلنا القديم، بحيث إنك أصبحت بالكاد تتعرف إليه، إنهما يعيشان معنا الآن، يوريا هيپ ووالدته، وقد اتخذ هو غرفتك لينام فيها، وأنا أحتفظ بغرفتي الصغيرة، ولكني لا أستطيع أن أترك السيدة هيپ، ولذلك أشعر أحياناً بأني يجب أن أجلس معها، في حين أود أن أكون وحيدة!».

ونظرت إلى آغنيس عندما نطقت بهذه الكلمات، دون أن أجد أن لديها أي فكرة عن خطة يوريا. واستمرت تقول «إن أسوأ ما في مسألة سكنهما معنا في المنزل، هو أني لم أعد أستطيع الاهتمام بوالدي بقدر ما أريد... لوجود يوريا هيپ بيننا معظم الوقت!». وغابت النظرة المشعة فوق وجهها، وسألتني بنظرة أخرى عما إذا كنت أعرف السبب في تبدل أحوال عمتي. وعندما أجبت بالنفي رأيت آغنيس تغرق في بحر من الأفكار، وأحسست بأن يدها ترتعش في يدي.

وعندما بلغنا المنزل ألفينا عمتي وحيدة، فرحبت بنا أيما ترحيب؛ وعندما وضعت آغنيس قبعتها فوق الطاولة، وجلست بجانب عمتي، تخيلت أن وجودها هناك كان جد طبيعي.

وشرعنا نتحدث عن خسارة عمتي، ورحت أنا أقص عليهما ما قد نويت أن أقوم به هذا الصباح، فقالت عمتي «هذه الفكرة مضحكة يا تروت! ولكنها ذات هدف طيب؛ أنت فتى شهم، ولذا أنا جد فخورة بك يا عزيزي. والآن يا تروت، ويا آغنيس، لنحاول أن نعرف ماذا جرى لبيتسي تروتوود».

ولاحظت أن آغنيس بدت شاحبة الوجه وهي تنظر إلى عمتي. وعادت عمتي تحدق إلينا من جديد وهي تقول:

«لقد كان لبيتسي تروتوود مبلغ محترم من المال يكفيها لتعيش به، وأكثر من ذلك، لأنها كانت قد ادخرت مبلغاً زهيداً وأضافته إلى المبلغ الأول. وعملاً بنصيحة الرجل الذي كان يدير شؤونها المالية، راحت بيتسي توظف مالها في قطعة من الأرض، وكان هذا المشروع ناجحاً، فحصلت على فائدة عالية. ثم بدأت بيتسي تبحث عن مشروع جديد لتوظف فيه مالها؛ وخيل إليها أنها أكثر ذكاء من الرجل الذي يدير لها شؤونها، هذا الرجل الذي لم يعد صالحاً الآن مثله في الماضي - إني أتكلم عن والدك يا آغنيس - وقررت أن توظف مالها بنفسها، لكن النتيجة كانت جد سيئة، وهكذا فقدت بيتسي تروتوود ثروتها وفقدت كل شيء!».

فسألت آغنيس «هل هذا كل شيء، يا عزيزتي الآنسة تروتوود؟».

فأجابت عمتي «آمل أن يكون هذا كافياً. أمّا الآن، يا آغنيس، فإن لك عقلاً راجحاً يميز جميع الأمور، وأنت كذلك يا تروت! فما هو الحل؟ لا يزال لدينا المنزل الصغير الذي يدرّ علينا حوالى السبعين جنيهاً سنوياً. هذا كل ما بقي لنا. وهناك السيد ديك، إن لديه دخلاً سنوياً مقداره مائة جنيه! ولكنَّ هذا المبلغ يجب أن يصرف عليه، طبعاً».

فقالت آغنيس «أنا أعتقد، يا تروتوود، إذا كان لديك الوقت...».

«إن لدي المتسع الكافي من الوقت، يا آغنيس؛ فأنا دائماً لا عمل لي بعد الساعة الخامسة مساء، ولدي كذلك متسع من الوقت في الساعات الأولى من الصباح».

فقالت آغنيس وهي تقترب مني وتتكلم بصوت خفيض «أظن أنك لن ترفض وظيفة سكرتير، لأنّ الدكتور سترونغ تقاعد وجاء ليعيش في لندن، وقد طلب إلى والدي أن يشير عليه بشخص جدير إذا ما أمكنه ذلك!».

فهتفت فرحاً «ماذا يمكنني أن أفعل من دونك، يا عزيزتي آغنيس! أنت دائماً ملاكي الطيّب. لقد أخبرتك بهذا من قبل، وأنا لا أستطيع أن أفكر بك إلاّ من هذه الناحية».

وأجابت آغنيس بضحكتها البهيجة بأن ملاكاً واحداً كان كافياً، وهي تعني بذلك دورا. وجلسنا جنباً إلى جنب، ورحنا نُدبّج رسالة إلى الدكتور سترونغ، عيّنت له فيها موعداً في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

وما إن أنهينا الرسالة حتى سمعنا طرقات على الباب، فقمت أنا لأفتحه، وكان القادم السيد ويكفيلد ويوريا هيپ. لم أكن قد رأيت السيد ويكفيلد منذ مدة طويلة، ولذا فإن رؤيته الآن بعثت فيّ هزة خفيفة. كان شاحب الوجه، وعيناه شبه ملتهبتين؛ أما يداه فقد كانتا ترتعشان.

قالت عمتي وهي تتقدم منه، وتحيّيه «آه! لقد كنا نتباحث في شؤوني المالية، يا سيد ويكفيلد، وقد كنا ماضين فيها على خير ما يرام! إن آغنيس تساوي المؤسسة كلّها في رأيي!».

فقال يوريا وهو يتلوى بجسمه «إني أؤيد الآنسة بيتسي تروتوود كلياً، إذا ما أمكنني قول هذا بكل تواضع، وسأكون سعيداً إذا ما دخلت الآنسة آغنيس شريكة معنا».

فقالت عمتي «أنت نفسك شريك، وآمل أن يكون هذا كافياً بالنسبة

إليك!» ثم سألته عن أحواله وعن صحته فأجاب أنه على خير ما يرام، ويأمل أن تكون هي كذلك. ثم راح يخاطبني:

«وآمل أيضاً أن تكون أنت في تمام الصحة، يا سيد كوپرفيلد. ألا تجد أن السيد ويكفيلد يبدو على خير ما يرام يا سيدي؟ إن أثر السنوات لا يبدو واضحاً في مؤسستنا، إلاّ في قضية النهوض بالوضيعين ـ أنا وأمي ـ وفي نمو الحسناء ـ الآنسة آغنيس».

وتلوّى بجسمه بشكل أفقد عمتي، التي كانت تحدق إليه مباشرة، صبرها، فقالت له بجفاء:

«إذا كنت أنقليساً، أيها السيد، فتصرف تصرف الأنقليس، وإن كنت رجلاً فاضبط أطرافك!».

احمرَّ يوريا هيپ خجلاً؛ إلاّ أنه قال لي، على حدة، وبصوت هامس بعد أن سرت وآغنيس لوداعهما «أنا أعرف تماماً بأن للآنسة تروتوود طبعاً سيئاً، وأنا أكيد أنه من الطبيعي أيضاً أن تزيده الأوضاع الحالية سوءاً. وعندما جئت على ذكر أمي، وذكر نفسي، كأني كنت أقصد أن ويكفيلد وهيپ سيكونان سعيدين بالتعاون معاً بأي طريقة».

فقال السيد ويكفيلد بصوت غريب «إن يوريا هيپ يعرف الكثير عن الأعمال يا تروتوود، وأنا أوافق كلياً على كل ما كان يقوله!».

فقال يوريا وهو يرفع إحدى قدميه «آه، كم هو جميل أن أكون قادراً على أن أسعفه من وضعه السيّئ، يا سيد كوپرفيلد!».

وعاد السيد ويكفيلد يقول بالصوت الغريب الكئيب ذاته: «أن يكون لي مثل هذا الشريك ففي هذا نجدة كبيرة لي!».

وقالت آغنيس بقلق «هل أنت ماضٍ يا أبي؟ ألن تعود معي ومع تروتوود؟».

وأعتقد أنه كان عليه أن ينظر إلى يوريا قبل أن يجيب لو أن هذا الأخير لم يسبقه بالكلام «إنّ عليَّ أن أمضي لإنجاز بعض الأعمال،

وإلاّ لكنت سعيداً للغاية ببقائي مع أصدقائي، ولكني أترك شريكي هنا ليمثل المؤسسة، تحياتي الدائمة لكِ يا آنسة آغنيس! وأتمنى لك يوماً سعيداً يا سيد كوپرفيلد، وأقدم احتراماتي الوضيعة للآنسة بيتسي تروتوود».

وبعد أن غادرنا يوريا ومضى في سبيله، عدنا وجلسنا نتحدث عن أيامنا الخوالي السعيدة في كانترباري. وما أسرع ما عاد السيد ويكفيلد إلى ما كان عليه في تلك الأيام تقريباً، ولكنه كان لا يزال حزيناً نوعاً ما، ولكنه قال إننا بوجودنا معاً، أنا وهو وآغنيس، كنا نستعيد ذكرى الأيام السالفة تماماً؛ وتمنى لو أن تلك الأيام لم تتبدل قط.

*

باشرت صباح اليوم التالي بزيارة ثانية للحمام الروماني، ثم قصدت إلى هاي غيت. ورحت أفكر في طريقي بحظنا السيئ بطريقة مغايرة. والذي كنت أود أن أفعله هو أن أظهر لعمتي أني لم أنسَ إحسانها إليَّ في الماضي.

كان أول ما علي أن أقوم به هو أن أجد منزل الدكتور سترونغ، ولم يكن في تلك الجهة التي تقطن فيها السيدة ستيرفورث في هاي غيت، وإنما كان يقع في الجهة الثانية. وعندما أصبحت قريباً من منزله الصغير، رأيته وهو يتمشّى في الحديقة.

فتحت البوابة وسرت خلفه كيما أواجهه لدى أول استدارة منه. وعندما استدار ورآني طفق يحدق إلي ملياً لعدة ثوان، وأدركت من خلال تعابير وجهه اللطيف أنه كان سعيداً جدّاً برؤيتي، وسرعان ما احتضنني بذراعيه.

قال لي بفرح «آه يا عزيزي كوپرفيلد! لقد أصبحت شاباً. كم أنا مسرور برؤيتك».

قلت له إني آمل أن يكون هو والسيدة سترونغ في تمام الصحة

والعافية. فقال بلهفة «آه! أجل يا عزيزي، أجل! إنّ آني على خير ما يرام، وستفرحها رؤيتك جدًّا. لقد كنت دائماً الفتى المفضل عندها!».

وشرع الدكتور يذرع الحديقة جيئة وذهاباً وهو يقول، بعد أن أخبرته باقتراحي «إن اقتراحك جد مناسب بالنسبة إلي، يا عزيزي كوپرفيلد، ولكن ألا تعتقد أنه في وسعك أن تقوم بما هو أفضل؟».

ولفتُّ نظر الدكتور إلى أني لا أزال أمارس فترة تدرُّبي، ورجوته أن يوظفني عنده في الوقت الحاضر.

فقال لي، ونحن نسير معاً جنباً إلى جنب «حسناً، لقد اتفقنا إذاً!» وعدت أقول له بعد لحظة صمت «أعتقد أن عملي سيتوقّف على القاموس!».

وتوقف الدكتور فجأة وهتف «إنك على صواب، يا صديقي، سيتوقف عملك على القاموس فقط!».

11

بعد لقائي بالدكتور سترونغ بمدة قصيرة مضيت لأزور ترادلس، الذي كان يقطن في هولبورن في هذه الأيام، فألفيته يعمل بكد وأمامه المحبرة وبعض الأوراق، ورأيت إناء الزهور والكرسي والطاولة المستديرة في إحدى زوايا المنزل. وقد استقبلني، كالعادة، بابتسامته المعهودة.

وبعد أن خضنا في أحاديث شتّى، فيها الكثير من الود والتفاهم، سحب فجأة رسالة من جيبه، وكان ذلك في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم، ثم سلمني إياها وهو يقول «إنَّ الحديث المبهج معك جعلني أنسى السيد ميكاوبر!».

وكانت الرسالة تحمل اسمي وعنواني، وقرأت ما يلي:

«عزيزي كوپرفيلد،

قد لا تفاجأ لسماعك بأن شيئاً ما قد حدث في حياتي، ولعلي أكون قد ذكرت لك أني كنت أتوقع مثل هذا الحدث! إني على وشك أن أرحل مع السيدة ميكاوبر وأولادنا إلى إحدى المدن الريفية.

وإذا ما قدمت، أنت وترادلس، في مساء اليوم السابق لرحيلنا، إلى منزلنا الحالي، فسوف تسرنا كثيراً.

المخلص لك دائماً

ويلكنز ميكاوبر

سررت كثيراً بسماعي أن شيئاً ما قد حدث في حياته في النهاية. وقد علمت من ترادلس أن هذه الدعوة كانت موجهة إلينا لهذا المساء بالذات، فكان عليَّ الذهاب معه لنزورهما.

قال السيد ميكاوبر عندما فتح لنا الباب «يا عزيزي كوپرفيلد، ستجدنا أنت والسيد ترادلس على وشك الرحيل، ولسوف تعذرنا على

أي إزعاج عَرَضي بسبب هذا الوضع!».

وإذ هنأت السيدة ميكاوبر على التبدل الحاصل أجابتني قائلة «إني أعلم يا عزيزي كوپرفيلد أنك تهتم اهتماماً ودياً بجميع شؤوننا وقضايانا، وفي وسعك أن تدرك أنه إذا ما كان رحيلنا إلى مدينة الكاتدرائية تضحية بالنسبة إلينا فإنه يعتبر أكثر من تضحية بالنسبة إلى رجل بمثل إمكانيات السيد ميكاوبر».

فقلت مستوضحاً «آه! أنتم ماضون إلى مدينة الكاتدرائية؟».

فأجاب السيد ميكاوبر، الذي كان يصبّ لنا جميعاً بعضاً من شراب البانش «إلى كانترباري. والحقيقة، يا عزيزي كوپرفيلد، لقد اتفقت مع صديقنا يوريا هيپ على أن أساعده، وأن أعمل لديه ككاتب خاص!».

فحدقت إلى السيد ميكاوبر الذي فرح كثيراً لدهشتي، ثم تابع يقول «وينبغي أن أخبرك أن اقتراح السيدة ميكاوبر قد ساعد على إيجاد هذا العمل. ولم يحدّد لي صديقي هيپ راتباً كبيراً، ولكنه ساعد على انتشالي من ضائقتي المادية الحاضرة».

كنت مندهشاً بما قاله السيد ميكاوبر، فجلست أتساءل بحيرة عن معنى كل ما يحصل. ثم بدأنا نتحدث، بشكل عام، عن جميع الأمور، والأحداث، وإذ كان تفكيري محصوراً بالأوضاع المتغيّرة التي لم يعد في وسعي أن أحتفظ بها لنفسي أكثر من ذلك، فقد رحت أوضحها للسيد والسيدة ميكاوبر؛ وقد ابتهجا كثيراً لفكرة انخراط عمتي في المصاعب المادية، وبدا عليهما أنهما أصبحا أكثر مودة.

وعندما فرغنا من احتساء شراب البانش، ذكّرت ترادلس بوجوب ألاّ نغادرهما دون أن نتمنى لهما السلامة والصحة والسعادة والنجاح في عملهما الجديد. وعاد السيد ميكاوبر يترع قدحينا فشربناهما ونهضنا نودعهما، ولمّا أخذت يده بيدي هززتها بكثير من الود، ثم انحنيت فوق المائدة وقبّلت السيدة ميكاوبر.

شكرني السيد ميكاوبر وقال لي بجدية «ثمة شيء آخر عليَّ أن أقوم به. إن صديقي السيد توماس ترادلس قد وقّع في مناسبتين سندين لصالحي؛ وسيقلقني جداً أن أرحل دون أن أسوي أمر ديني، ولذلك فإني أعطي صديقي ترادلس الآن إيصالاً أعترف فيه بأنَّ له في ذمتي مبلغاً معيناً؛ ويسعدني عندئذ أن أعلم أنه غدا في وسعي، مرة أخرى، أن أمشي ورأسي مرفوع بين أصدقائي».

وافترقنا بكثير من الود والمحبة، من كلا الطرفين، وعندما ودّعت ترادلس، أمام باب بيته، سرت وحيداً إلى المنزل، ورحت أفكر، في جملة ما كنت أفكر فيه، أنه ربما بسبب بعض الذكريات، التي كانت للسيد ميكاوبر عني وأنا صبي نزيل عنده، قد امتنع عن استقراض بعض المال مني، وأدرك تماماً أني لم أكن قادراً على الرفض لو فعل، وكنت أكيداً كذلك بأنه هو الآخر كان يدرك هذا تماماً.

*

كنت منهمكاً كثيراً في العمل في هذه الأيام، إذ كنت أستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً، وأخرج لأعود إلى المنزل في الساعة التاسعة أو العاشرة مساء. غير أني مع ذلك كنت أشعر بالفرح العميم بكوني مشغولاً إلى هذه الدرجة؛ وكنت أشعر كذلك بحماسة، لأني كلما كنت أتعب نفسي كلما كنت أصلح لدورا أكثر ممّا كنت عليه في السابق.

رغم ذلك كله فإنّ دورا لم تكن عالمة بتصميمي الحازم هذا بأكثر ما كانت تشير إليه رسائلي إليها بشكل غامض. ولكني سرعان ما جئت بشيء من الحزن ودسسته في صدر مباهجنا، وذلك بسؤالي لها ذات يوم، دون أي سابق توطئة، عمّا إذا كان في وسعها أن تعشق متسوّلاً.

أجابت «كيف أمكنك أن تطرح عليَّ مثل هذا السؤال؟ كيف لي أن أعشق متسوّلاً!؟».

فأجبتها «دورا، حبيبتي! أنا متسوّل!».

قالت دورا وهي تصفع يدي «كيف يمكنك أن تكون أحمق هكذا؟ لماذا تتفوه بمثل هذه القصص؟ سأدعو كلبي ليعضك!».

لقد كانت طريقتها الصبيانية في الكلام أفضل طريقة طيبة ومحبَّبة بالنسبة إلي؛ ولكن كان من الضروري أن أكون صريحاً، فرددت برزانة: «دورا، يا حياتي، إني حبيبك دايڤد المحطم!».

فقالت دورا وهي تهز ضفائر شعرها «لقد صرحت بأني سأجعل كلبي يعضك إذا ما بقيت مضحكاً على هذا النحو!».

ولكني كنت أبدو جدياً للغاية بحيث كفت دورا عن هز ضفائرها، وألقت بيدها النحيلة المرتعشة فوق كتفي. بدت في البدء قلقة ومتخوفة ثم شرعت في البكاء. لقد كان هذا مريعاً. قالت وهي تقترب مني «لا تتكلم عن كونك معوزاً، وعن انهماكك في العمل. آه كلا، لا تتكلم، لا تتكلم...».

قلت «أجل يا حبيبتي، إن رغيف الخبز يستحق...».

فهتفت دورا «آه، أجل، ولكني لا أود أن أسمع أكثر من ذلك عن رغيف الخبز. يجب أن يأكل كلبي جيب شرحة من اللحم كل يوم في الساعة الثانية عشرة، وإلا كان مصيره الموت!».

وسحرت بطريقتها الصبيانية المؤثرة، وبحزن أوضحت لها أني كنت مرغماً، في كفاحي في هذه الأيام، على النهوض في الساعة الخامسة، فأحدث ذلك تأثيراً قوياً فيها، وكان هذا التأثير لا يزال مسيطراً عليها عندما ودعتها، وهي تقول:

«لا تنهض في الساعة الخامسة، أنت أيها الفتى العديم النفع! إن هذا لمن السخافة حقّاً!».

قلت «إن لدي عملاً أؤديه يا حبيبتي!».

«لا، لا تقم به! لِمَ يتوجب عليك أن تقوم به؟».

وكان من المستحيل أن أقول لهذا الوجه البريء المندهش إنه ينبغي

علينا أن نعمل كي نعيش، فهتفت دورا:

«آه! كم هو مضحك هذا!».

فقلت لها «وكيف سنعيش بدونه يا دورا؟!».

فأجابت «كيف؟ سنعيش بأي شكل!».

وبدا عليها الاعتقاد أنها وضعت حلاً ملائماً للقضية؛ ثم منحتني قبلة ظافرة خرجت من قلبها الساذج مباشرة.

*

كنا قد استأجرنا لنا مسكناً في شارع باكينغهام، وكانت عمتي تقوم بتحسينات طفيفة وتهتم جيداً بشؤوننا المنزلية، بحيث كنت أبدو أكثر غنى بدلاً من أن أبدو أكثر فقراً. وكانت بيغوتي قد جاءت للسكنى معنا إلى أن حان الوقت لتعود إلى يارماوث. وحين جاءت تودع عمتي قالت لها هذه الأخيرة «الوداع يا سيدة باركيس. انتبهي إلى نفسك! لم يسبق لي وفكرت قط بأني سأحزن يوماً على فراقك!».

وانطلقت مع بيغوتي إلى مكتب حجز التذاكر، ووقفت أودعها وهي ترحل بعيداً. لقد بكت كثيراً عند الفراق وقبلتني قبلة الوداع.

*

وفي يوم من الأيام، عندما توجهت إلى عملي كالمعتاد، فوجئت، وقد أصبحت على مقربة من باب المكتب، برؤية الموظفين يقفون خارجاً ويتهامسون، وببعض المارّة وهم يحدقون إلى النوافذ التي كانت مقفلة. وحثثت خطاي ودلفت إلى الداخل على عجل بعد أن مررت بهم وتساءلت عن نظراتهم إليّ. كان الكتّاب يجلسون في الداخل، لكن أحداً منهم لم يكن ليأتي عملاً. وهتف أحدهم حالما دخلت «إنها لفاجعة مروّعة، يا سيد كوپرفيلد!».

فهتفت مستوضحاً «ما الأمر؟ ما القضية؟».

أجاب وقد تحلّق الباقون من حولي «ألا تدري؟».

قلت وأنا أنقّل عيني من وجه إلى آخر «كلاّ».

«السيد سبينلو!».

«ما خطبه؟».

«لقد مات!».

ردّدت وأنا مندهش «مات؟».

«لقد تناول طعام العشاء في المدينة ليلة البارحة، ثم ركب عربة مكشوفة تشدها جياد، قادها بنفسه؛ ولكنَّ العربة وصلت إلى المنزل تسحبها الجياد التي توقفت أمام بوابة الإسطبل؛ وخرج السائس من هناك حاملاً فانوسه، ولكنه لم يجد أحداً في العربة!».

«وهل كانت تبدو على الجياد علامات التعب والإجهاد؟».

فقال تيثاي، وهو يضع نظارته فوق عينيه «لم يكن على أجسادها شيء من العرق، ولم تكن مجهدة بأكثر مما يمكن أن تكون لو أنها تخبط في أرض منحدرة وبخطى عادية. لقد كانت أعنتها مقطعة، ومسحوبة فوق الأرض، وفي الحال هب أهل البيت جميعاً، ومضى ثلاثة منهم للبحث عنه في الطريق، فوجدوه على بعد ميل تقريباً؛ ولم يكن أحد ليعلم ما إذا كان قد سقط على إثر نوبة قلبية، أو أنه نزل من العربة وهو يشعر بالإعياء قبل أن تداهمه النوبة فعلاً. وقد جيء بالإسعاف بأقصى سرعة ممكنة، ولكن ذلك لم يجدِ نفعاً!».

والحق أنه لا يسعني هنا أن أصف الحالة العقلية التي أصبحت عليها عندما تلقيت هذا الخبر. كان يكمن في أعماق قلبي شعور بالغيرة حتى من الموت، وشعرت كما لو أن سطوته ستنتزعني من قلب دورا. وأحسست، بطريقة ملؤها الحسد، لا تحضرني الكلمات لأتم وصفها، بأني أغار من حزنها. وهذا ما جعلني قلقاً أمام تفكيري بأنها تبكي للآخرين، أو بأن الآخرين يحاولون مؤاساتها الآن. واجتاحتني رغبة عمياء في أن أغلق عليها دون الآخرين جميعاً، وأن أكون أنا

بمفردي لها كلياً في هذا الوقت العصيب.

بدا لي الأمر مدهشاً ومحيّراً لأن الراحل لم يترك أي وصية، إذ لم يخطر ببال السيد سبينلو قط مثل هذا الأمر، كما أن أوراقه لم تكن تحمل أي دلائل على أنه كان سيوصي. ولم تكن دهشتي بأقل منها عندما وجدت أن أعماله وقضاياه كانت في حالة مشوشة جداً. وسمعت أنه كان من الصعب جداً أن يعرف مبلغ ديونه، أو أمر ما يملك بعد وفاته. وقد ظهر، على الأرجح، أنه مضت عليه سنوات دون أن تكون لديه، هو نفسه، فكرة واضحة حول هذه الأمور. وشيئاً فشيئاً كان يتضح أنه كان ينفق أكثر بكثير من الدخل الصغير الذي كانت تدره عليه مهنته؛ وأنه كان ينقص من معدل مصروفاته الخاصة كثيراً، في حقيقة الأمر!».

ولم يكن لعزيزتي دورا، المحطمة القلب، أقرباء سوى عمتين عانستين كانتا تعيشان في بوتناي، ولم يكن يسكن معهما أي إنسان آخر، كما لم تكن لهما صلات بأحد ما عدا اتصالات عرضية كانت بينهما وبين شقيقهما منذ سنوات.

هاتان السيدتان خرجتا من عزلتهما، واقترحتا على دورا أن تأتي لتعيش معهما في بوتناي. صاحت دورا وهي تتشبث بهما معاً، وتنتحب «آه! أجل! يا عمتيّ! أرجوكما خذاني أنا وكلبي جيب إلى بوتناي!».

وهكذا، رحلت العمتان بدورا بعد الجنازة مباشرة.

*

شعرت عمتي بالقلق الشديد لرؤيتي حزيناً فتظاهرت بأنها كانت جد قلقة على منزلها في دوفر، واقترحت عليّ أن أمضي لأرى ما إذا كان كل شيء يسير على ما يرام، وذلك بعد أن تم تأجيره، لأن هذا كان يعني بالنسبة إليّ أني سأتمكن من قضاء بعض الساعات الهادئة بصحبة آغنيس. وطلبت إذذاك إلى الدكتور سترونغ الطيب أن يأذن لي بثلاثة

أيام، وصممت على الذهاب.

أمّا لناحية مركز «دكتورز كامنس» فإنّ وضعنا لم يعد فيه على ما يرام، وشعرت بالأسف على ضياع مبلغ التدرُّب الذي دفعته عمتي أكثر من ذي قبل.

في دوڤر ألفيت كل شيء على ما يرام في منزل عمتي، وأنهيت العمل الصغير الذي كان عليّ القيام به للتوّ، ثم أمضيت تلك الليلة هناك، وقصدت إلى كانترباري في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. كان الفصل شتاء، وشعرت بأن الريح الباردة والمنعشة، في ذلك اليوم، أحيت فيّ الآمال بعض الشيء.

عندما وصلت كانترباري، رحت أهيم عبر الشوارع في طريقي إلى منزل السيد ويكفيلد، ووجدت السيد ميكاوبر مكباً على الكتابة بتركيز شديد، في تلك الغرفة الصغيرة، حيث اعتاد أن يمكث يوريا هيپ. لقد كان فرحه كبيراً برؤيتي، إلاّ أنه كان خجلاً قليلاً، وهو يرتدي بذلة سوداء، واسعة. وقد أخبرني أنه يعيش في منزل يوريا هيپ القديم، وأن السيدة ميكاوبر ستسر باستقبالي تحت سقف منزلها من جديد.

وقال السيد ميكاوبر مردفاً «إنه من التواضع أن أقتبس عبارة صديقي يوريا هيپ المفضلة! ولكنها قد تكون الطريق إلى شيء ما أفضل!».

وسألته «هل تشاهد السيد ويكفيلد كثيراً؟».

فأجاب «ليس كثيراً، إن السيد ويكفيلد، وأنا واثق مما أقول، رجل رائع جداً، إلاّ أنه... أصبح دون نفع».

فقلت «أخشى أن يكون شريكه هو الذي يعمد إلى أن يجعله كذلك!».

فأجاب السيد ميكاوبر «إن أمر البحث ببعض الأمور يا عزيزي كوپرفيلد يبدو مستحيلاً، حتى مع السيدة ميكاوبر نفسها، وآمل ألاّ أكون قد جرحت مشاعرك بقولي هذا؟».

وإذ رأيت أن تغيُّراً جذريّاً قد طرأ على السيد ميكاوبر، لم يكن لدي

الحق بأن أشعر بأي جرح لمشاعري! ولمّا أخبرته بهذا عادت علامات الارتياح لتبدو على وجهه من جديد؛ وأخذ يدي يحيّيني.

لم يكن ثمة أحد في غرفة الجلوس القديمة، الرائعة، فرحت أنظر داخل الغرفة التي كانت لا تزال لآغنيس، فرأيتها تجلس، بقرب النار، إلى طاولة جميلة ذات طراز قديم، وهي منهمكة في الكتابة.

حين دخلت خفت الضياء قليلاً، ما جعلها ترفع نظرها إليّ. ويا لها من لذة أن أكون السبب في التغيّر المبهج الذي طرأ على وجهها اللطيف، والباعث على تلك النظرة والترحيب الرقيقين، وقد هتفتُ عندما كنا نجلس جنباً إلى جنب «آه، في المرة الأخيرة كنت أشعر بفقدانك، يا آغنيس!».

فقالت «أحقّاً؟ من جديد، وبهذه السرعة؟».

وهززت رأسي وقلت «عندما تكونين بعيدة عني يا آغنيس، بحيث لا يمكنني الحصول على إرشارك ورضاكِ، أبدو وكأنني سأغدو شرساً، متوحشاً، وغارقاً في كل ضيق. وعندما آتي إليك في النهاية ـ كما أفعل دائماً ـ أعود إلى دنيا السلام والسعادة».

وبأسلوبها الرقيق، الأخوي، وبعينيها المتلألئتين، وبصوتها الرخيم، دفعت بي إلى أن أسرد لها كل ما قد حدث منذ لقائنا الأخير.

وعندما أتيت على نهاية حديثي قلت «لم تبق عندي كلمة واحدة لأخبرك بها يا آغنيس، والآن فإن اعتمادي هو عليك أنت».

قالت آغنيس بابتسامة حلوة «ولكن يجب ألاّ يكون اعتمادك عليّ وحدي يا تروتوود، إذ يجب أن يكون على واحدة أخرى!».

قلت «أتعنين على دورا؟».

«دون شك».

وعدت أقول وأنا مرتبك قليلاً «إن دورا، يا عزيزتي، لا يمكن أن يعتمد عليها لأنها لا تزال ساذجة، لا تفقه شيئاً، وهي إلى جانب هذا

خجولة، ذات نفس طاهرة للغاية، وأقل أمر تافه يزعجها ويبعث فيها شعوراً بالخوف. وكنت، قبل وفاة والدها بوقت قصير، قد فكرت بأنه من الضروري أن أطلعها على وضعي... ولكني سأخبرك، إذا ما كنت تصبرين عليَّ، كيف كان الوضع».

وبناء على قبولها كلمتها بخصوص قرار إفصاحي عن فقري لدورا، فاحتجّت وهي تبتسم وقالت «آه يا تروتوود! إنها طريقتك المتهورة القديمة! كان في وسعك أن تستمر في جهادك في الحياة، دون أن تصدم فتاة طيبة خجلى، عديمة الخبرة، مسكينة دورا!».

والواقع أني لم يسبق لي وسمعت قط مثل هذا الكلام اللطيف، الذي أجابت به على ما سردته لها. وعدت أسألها بعد أن حدقت إلى النار لبرهة «ماذا عليّ أن أفعل إذاً، يا آغنيس؟ ما هو العمل الصائب الذي علي أن أقوم به؟».

قالت «أعتقد أن الطريقة المثلى التي ينبغي علينا أن ننهجها هي أن تكتب إلى هاتين السيدتين. ألا تعتقد أن أي نهج سري لا يكون ذا قيمة؟ أخبرهما، بأقصى ما يمكن من صراحة وجرأة، بكل ما حدث، واطلب إليهما أن تأذنا لك بزيارة إلى منزلهما!».

قلت «وإن لم تكن هاتان السيدتان (لأن السيدات من هذا الصنف يكنَّ غريبات أحياناً) ممّن يمكن أن ينهج معهن مثل هذا النهج؟».

أجابت آغنيس وهي ترفع إليَّ عينين ناعستين «لا أعتقد ذلك يا تروتوود! وأنا أقترح عليك هذا الاقتراح».

ولم يعد لدي أي شك حول الموضوع؛ فخصّصت بعد ظهر ذلك اليوم كله ، لأكتب صيغة الرسالة، وقلبي مملوء بالفرح، بالرغم من شعوري العميق بأهمية عملي الكبير. وعند الغسق خرجت من المنزل بمفردي، وأنا أُعمل التفكير بما يتوجب عليّ عمله.

ولم أكن سرت بعيداً، داخل البلدة، في طريق رامزغيت، حيث كان يوجد هناك زقاق جميل، حتى ناداني أحدهم من خلفي، تحت عتمة

الغسق. ولم أكن لأخطئ الشكل الذي يسير بتثاقل، وهو يرتدي معطفاً ضخماً قصيراً، فتوقفت وسار يوريا هيپ مقترباً مني، وهو يقول «كم أنت سريع الخطى! إن قدميَّ طويلتان جدّاً، ولكنك أتعبتهما».

فقلت «إلى أين تريد؟».

وأجاب وهو يلوي جسمه ويخطو خطوة ليصبح إلى جانبي «إني آتٍ معك يا سيد كوپرفيلد، إذا سمحت لي بالمسير مع صديق قديم! والآن اعترف، يا سيد كوپرفيلد، بأنك لم تحبني بقدر ما أحببتك أنا تماماً. ولطالما كنت تفكر فيَّ على أنني وضيع للغاية!».

فأجبت «أنا لا أحب ذوي الاختصاص بالتواضع، أو ذوي الاختصاص بأي شيء آخر!».

قال يوريا وهو يبدو واهناً في ضوء القمر «لم أعرف أنا هذا الاختصاص! لقد ربيت أنا ووالدي في مؤسسة لتعليم الفتيان؛ وكذلك أمي، فقد نشأت في مؤسسة عامة أشبه ما تكون بجمعية للإحسان. لقد علمونا الكثير من التواضع، ولم أكن أتعلّم أي شيء آخر منذ الصباح حتى المساء. كان علينا أن نكون وضيعين ومتواضعين أمام هذا الشخص، وأمام ذاك، وأن نرفع قبعاتنا هنا، وننحني هناك؛ وأن نعرف حدودنا دائماً، ونذل أنفسنا أمام أسيادنا؛ وقد كان عندنا أسياد كُثُر! وكان والدي يقول لي «كن متواضعاً يا يوريا، وستستمر في الحياة. إن هذه العبارة هي التي كانت دائماً تصم أذني ولا تزال تصم أذنيك في المدرسة. إنها العبارة التي تلقى رواجاً كبيراً: كن متواضعاً». وبالفعل لم يكن ذلك سيئاً!».

وللمرة الأولى حدث لي أن أفكر أن التصنُّع الكريه للتواضع الزائف يمكن أن يكون قد نشأ في عائلة هيپ. وكنت قد رأيت الحصاد، ولكني لم أكن قد فكرت قط بالبذور.

وعاد يوريا يقول «وعندما أصبحت شاباً وعيت معنى التواضع، وبقيت عليه! لقد التهمت فطيرة التواضع بشهية كبرى، وإني لا أزال

متواضعاً حتى الوقت الحاضر يا سيد كوپرفيلد، إلا أني حصلت على بعض من القوة والسلطان!».

قال كل ما قاله محاولاً أن يفهمني أنه كان عاقد النية على مكافأة نفسه باستخدامه لهذا السلطان والقوة. ولم أكن لأخطئ خساسته، وخبثه، وضغينته قط. ولكني أدركت الآن، كلياً، وللمرة الأولى، أي روح قميئة دنيئة، وحقود، قد بعثها فيه هذا الكبت المبكِّر والطويل. وكنا خلال حديثنا نسير جنباً إلى جنب، ويدي بيده؛ ولم أكن أستطيع أن أنزعها. وكنت قد ذكرت له أني خاطب، ولا أفكر بالآنسة ويكفيلد إلاّ على اعتبارها شقيقة عزيزة. وعندما أبدى ارتياحه لما قلت، عدت أقول له بعد فترة صمت «قبل أن نترك الموضوع جانباً، أود أن أقول لك إني أعتقد أن الآنسة ويكفيلد بعيدة المنال بالنسبة إليك وإلى آمالك بُعدَ القمر ذاته عن الأرض».

فأجابني للتوّ ببرود «إنها مسالمة جداً، أليست كذلك؟».

*

كان يوريا، خلال طعام العشاء في اليوم الثاني، يسهب من الكلام أكثر من المعتاد؛ وقد سأل أمه عما إذا كان يخطو نحو الكهولة، بالنسبة إلى بقائه عَزَباً. وحاول مرة أن يحدق إلى آغنيس بطريقة جعلتني أتمنى أن أهجم عليه وأضربه. وعندما بقينا وحدنا، نحن الرجال الثلاثة، بعد العشاء، بدا يوريا في حالة نشوة وانتصار.

وكنت قد لاحظت ليلة البارحة أنه حاول أن يشجع السيد ويكفيلد على الإكثار من الشرب؛ وإذ أدركت النظرة التي حدجتني بها آغنيس وهي تهم بالخروج فقد شربت كأساً واحدة فقط ثم اقترحت أن نتبعها. وكان من الممكن أن أفعل الشيء عينه اليوم أيضاً، إلاّ أن يوريا كان أسرع مني؛ فقال وهو يوجه كلامه إلى السيد ويكفيلد، الذي كان يجلس عند رأس المائدة المواجه له «أعتقد أنه علينا أن نرحب بضيفنا، الموجود معنا، بكأس أو كأسين آخرين من الخمر، يا سيدي. نخب

صحتك وسعادتك يا سيد كوبرفيلد!».

وكنت مرغماً على شرب هذا النخب ثم عاد يقول:

«اقترب يا شريكي، سأقدم إليك كأساً آخر، ولتشرب نخب أقدس فتاة في جنسها! إني إنسان وضيع للغاية لأشرب نخبها. ولكني أستحسنها... أعشقها. إن آغنيس... آغنيس ويكفيلد أقدس بنات جنسها. هل يسعني قول ذلك بين الأصدقاء؟ أن يكون المرء والدها فهذه مفخرة، ولكن أن يكون زوجها...».

لا أظن أن أيّ ألم جسدي كان في وسع والدها أن يتحمله، كان من الممكن أن يكون أكثر ألماً بالنسبة إلي من ذلك الألم العقلي الذي رأيته يعانيه. ويا لها من صرخة تلك التي أطلقها، وهب على إثرها من على المائدة وهو يقول «انظر إليه!».

كان يشير إلى يوريا الذي كان يجلس في الزاوية شاحباً بعد أن فشلت جميع تخميناته، وبعد أن سيطرت عليه صدمته المفاجئة.

وأكمل السيد ويكفيلد «انظر إلى معذبي! لقد تخليت له، خطوة فخطوة، عن اسمي، وعن سمعتي، وسلامي، وهدوئي، ومؤسستي، ومنزلي...».

فصاح يوريا وهو يشير إليّ بسبابته «من الأفضل أن توقفه عن الكلام إذا استطعت يا كوبرفيلد! حذارِ، سينطق بشيء الآن وسيندم عليه فيما بعد، وستأسف أنت لاستماعك إليه. أنا وأنت نعرف ما نعرف، أليس كذلك؟ لا توقظ الكلاب النائمة!.. من يريد أن يوقظها؟.. أنا لا أريد ذلك. ألا تلاحظ أني متواضع بقدر ما في وسعي أن أكون؟ وأقول لك إني إذا ما تجاوزت حدودي فإني جد آسف!».

ولففت ذراعي حول السيد ويكفيلد، وأنا أرجوه أن يهدئ من روعه قليلاً. وبدا وكأن مساً من الجنون قد أصابه للحظة... فراح ينتف شعره، ويضرب على رأسه. كان منظره مخيفاً. وتدريجاً راح يحاول جهده أن يهدأ، ثم راح ينظر إلي وهو يقول:

«آه يا تروتوود، آه يا تروتوود! لكم ساءت أحوالي منذ أن رأيتك. لقد كنت أنزلق في طريق منحدرة في ذلك الوقت، ولكني اجتزت هذه الطريق المخيفة، المظلمة، منذ ذلك الوقت حتى اليوم. تساهلٌ بسيط وحسن نيّة أدّيا بي إلى هذا الخراب. إنك ترى حجر الرحى مشدوداً إلى عنقي، وتجده في منزلي وفي عملي. لقد استمعت إليه يتكلم، ولكن منذ برهة! وما حاجتي إلى أن أقول أكثر من هذا!».

وغاص في كرسيه، وراح ينتحب. فقال له يوريا هيپ، وهو شبه مزدرٍ وشبه متملّق «ليست بك حاجة إلى قول الشيء الكثير، أو القليل، أو أي شِيء آخر، ولما كنت لتفكر هذا التفكير لولا الخمرة! غداً ستفكر بالموضوع أفضل من اليوم يا سيدي!».

وفُتح الباب، ودلفت آغنيس إلى الداخل دون أن يكون على وجهها أي أثر لأي انفعال، ووضعت ذراعها حول عنق والدها وقالت بثبات «أنت لست على ما يرام يا أبي! تعالَ معي».

وألقى رأسه على كتفها كما لو أنه كان مثقلاً بالعار، ثم مشى معها إلى الخارج. وفي هذه الأثناء التقت عيناها بعيني للحظة فأدركت للتوّ أنها قد ألمت بكل ما دار هنا. وقال يوريا:

«لم أكن أتوقع أن يتصرّف على هذا النحو، يا سيد كوپرفيلد! ولكن هذا لا يُعتدّ به. فغداً سنعود إلى سابق عهدنا، وذلك من أجل صالحه! إني قلق، بتواضع، من أجل صالحه!».

*

كانت الظلمة لا تزال مخيِّمة، في ذلك الصباح، عندما صعدت إلى المركبة أمام باب النزل، وكان الفجر على وشك الانبلاج عندما كنا نهم بالرحيل، ولكني فيما كنت جالساً أفكر بآغنيس، وبقولها لي، في ساعة متأخرة من ليلة البارحة، ألاّ أقلق عليها، إذا بي ألمح رأس يوريا، مع تباشير الفجر المتداخلة بخيوط الليل، يتقدم من العربة، بحيوية. وفيما كان يتعلق بحديدة السقف، قال لي بهمس يشبه النعيب:

«أعتقد أنك ستفرح كثيراً، يا كوپرفيلد، بأن تسمع أني دخلت غرفته هذا الصباح، وقد أعدنا المياه إلى مجاريها تماماً. إذ بالرغم من أني وضيع فأنا مفيد له كثيراً. وهو يعرف صالحه عندما لا يكون ثملاً! إنه بالرغم من كل شيء رجل طيب!».

وأرغمت نفسي على التصريح له بأني كنت سعيداً لقيامه بهذا الاعتذار. فقال «آه طبعاً، عندما يكون المرء متواضعاً، مثلي، فما قيمة الاعتذار؟ إنه جد سهل! ولكني أعتقد أنك قد قطفت في حياتك إجاصة قبل أن تينع تماماً أليس كذلك، يا سيد كوپرفيلد؟».

فأجبته «أظن أني قد سبق لي وفعلت هذا».

فقال يوريا «هذا ما قمت به أنا ليلة البارحة! ولكن مع ذلك فإن الإجاصة ستينع. إنها في حاجة إلى من ينتظرها فقط».

*

وأخيراً وصلني الجواب من السيدتين الكبيرتين يحمل إليّ تحياتهما، ويعلمني أنهما قد فكرتا برسالتي جيداً، وإذا ما تكرمت وجئت إليهما في يوم ما، (مصحوباً، إذا ما وجدت هذه الفكرة مناسبة، بصديق مخلص) فستكونان سعيدتين للبحث في الموضوع!

وكتبت أحدّد لهما يوم مجيئي، وأشرت إلى أنّ عمتي ستكون فخورة بالتعرّف إليهما. ويجب أن أقول هنا إني لم أكن واثقاً تماماً من أنهن سيتفقن هن الثلاث معاً برضى تام.

ولكني شعرت بالفرح الكبير عندما وجدت أن عمتي وعمتيّ دورا كنّ على وفاق تام، وأنهنّ قرّرن جميع الأمور بهدوء لم أكن أتوقعه.

لكن شيئاً واحداً كان يزعجني كثيراً، بعد أن بلغنا هذه المرحلة المتقدّمة، وهو أن دورا كانت تبدو راضية بكونها تعتبر دمية ظريفة، أو لعبة. وكانت عمتي، التي اعتادت عليها دورا تدريجاً، تدعوها دائماً «البرعم الصغير». وكان يبدو على الثلاث أنهن يعاملن دورا بالنسبة إلى

منزلتها، بقدر ما كانت دورا تعامل كلبها جيب، بالنسبة إلى منزلته.

وقد عقدت النية على أن أكلم دورا بهذا الشأن. وفي أحد الأيام، وحين كنا خارج المنزل، نسير معاً، قلت لها «يجب أن تجعليهن يعاملنك بطريقة مختلفة يا دورا، لأنك لست طفلة يا حبيبتي!».

فقالت «ها أنت تحاول أن تكون مزعجاً الآن!».

«هل أنا مزعج يا حبيبتي؟».

«أنا متأكدة من أنهن جميعاً لطيفات جداً معي. وأنا سعيدة للغاية!».

فقلت لها «حسناً، ولكن يمكنك، يا حياتي الغالية، أن تكوني سعيدة جداً، وفي الوقت ذاته اجعليهنَّ يعاملنك بطريقة منطقية!».

وحدجتني دورا بنظرة لوم - وهي النظرة التي تعتبر عندي أجمل النظرات - ثم شرعت في البكاء وهي تقول إن لم أكن أريدها فلماذا جئت أخطبها بمثل هذا التصميم؟ ولماذا لا أتركها وأمضي في سبيلي الآن، إن لم يكن في وسعي أن أحتملها؟

وماذا كنت أستطيع أن أفعل أمام هذا المشهد سوى أن أُقبّل دموعها وأؤكّد لها أني أكنُّ لها حباً وشغفاً كبيرين.

قالت «أنا متأكدة من أني جد ودودة، فيجب ألاّ تكون قاسياً معي بهذه الطريقة!».

«أنا قاسٍ يا حبيبتي الغالية! هل في وسعي أن أكون قاسياً معك، ولو من أجل العالَم كله!».

فقالت دورا وهي تكوّر فمها ليبدو كبرعم ورد «إذاً حاول ألاّ تجد فيّ أخطاء. وسأكون أنا طيبة وودودة دائماً!».

وسررت بطلبها، من تلقاء نفسها، بأن آتي إليها بكتاب فنّ تعليم الطبخ، الذي كنت تكلمت إليها عنه ذات مرة، وبأن أطلعها على كيفية مسك الحسابات، كما وعدتها أن أعلمها في أحد الأيام. وقد جئت بالكتاب معي في زيارتي التالية. ورحت أجلب لها بعض الأدوات

الصغيرة كيما تبدأ التمرُّن عليها في الشؤون المنزلية.

غير أنَّ كتاب فن تعليم الطبخ أثقل رأس دورا، إذ كانت الأشكال والأصناف تجعلها تبكي، وكانت تقول إن مثل هذه الأصناف تأبى أن تمتزج ببعضها.

وعندما سألتها ذات يوم، بتلميح صغير إلى كتاب فن تعليم الطبخ، عما ستفعله لو أننا تزوجنا، وشئت أنا أن أطلب أكلة إيرلندية شهية، أجابت بأنها ستطلب من الخادمة أن تعدَّها لي. ثم ضربتني على ذراعي، وضحكت بطريقة ساحرة بحيث بدت أكثر سروراً من ذي قبل.

وهكذا عدنا إلى القيثارة، وإلى الأزهار الملوّنة، والترنم بالأغاني مع عدم تركنا للرقص أبداً، تا.. را.. لا.... وكنا سعيدين طوال الأسبوع. وكنت أستفيق في بعض المناسبات، وأُدهش حين أجد نفسي أرتكب تلك الهفوة الساذجة، وأعاملها وكأنها دمية كذلك. ولكن هذا لم يكن يحدث غالباً.

*

لن أكتب هنا عن الجهد المضني الذي كنت أبذله في العمل، أمام شعوري بالمسؤولية تجاه دورا وعمتيها. ولن أعود لأكتب أيضاً عن مدى ما كنت أشعر أني مدين به لآغنيس في مجال حياتي. إلاّ أن روايتي هذه تتوجه منها بالحب والشكر.

وقد حدث أن جاءت مع والدها في زيارة للدكتور سترونغ تستغرق أسبوعين، وسرعان ما اصطحبتها لترى دورا. كانت دورا متخوّفة من آغنيس، وكانت أخبرتني أنها أدركت أن آغنيس ذكية للغاية، إلاّ أنها عندما رأتها وقد بدت على الفور جد فرحة، وجدية، ومفكرة، وطيبة جدّاً، انطلقت من أعماقها صرخة واهنة للدلالة على دهشتها وفرحتها بها، ولفت ذراعيها حول عنق آغنيس، ووضعت خدها فوق وجهها.

ولم أكن لأشعر بمثل هذه السعادة في حياتي، وأنا أرى هاتين

الفتاتين وهما تجلسان جنباً إلى جنب؛ عندما لمحت حبيبتي الصغيرة تحدق إلى تينك العينين الحبيبتين بطريقة طبيعية للغاية، وعندما رأيت تلك النظرة الجميلة والرقيقة التي كانت آغنيس تحدجها بها.

لهونا كثيراً في ذلك المساء القصير، الذي عبر على أجنحة السرعة. ولم يكن ثمة وقت ليتأخر الحوذي بمناداتنا. وكنت أقف بقرب النار، بمفردي، عندما اقتربت مني دورا لتقبّلني تلك القبلة الناعمة، المعتادة، قبل أن أمضي.

قالت لي دورا وعيناها تشعان ببريق متوهّج، ويدها اليمنى الصغيرة منهمكة بالعبث بأحد أزرار معطفي «ألا تعتقد، يا تروت، أنها لو كانت صديقتي منذ وقت طويل، لربما كنت الآن على شيء أكثر من الفطنة؟».

فأجبت «يا له من هراء يا حبيبتي!».

فقالت دون أن تنظر إليّ «هل تعتقد أن هذا هراء؟ هل أنت متأكد من هذا؟».

«طبعاً متأكد!».

وعادت تقول وهي لا تزال تفتل زر معطفي بيدها «لقد نسيت ما مدى قرابة آغنيس بك، أنت يا عزيزي الفاسد!».

فأجبت «ليست ثمة قرابة أسرية بيننا. وإنما نشأنا كلانا معاً كأخ وأخت!».

قالت وهي تنتقل إلى زر آخر من معطفي «إني أتساءل لِمَ كُتب عليك أن تقع في حبي؟».

«ربما لأني لم أستطع إلاّ أن أراك وأن أحبك، يا دورا!».

فقالت وهي تبدأ تعبث بزر آخر «وافرض أنك لم ترني قط!».

فأجبت بفرح «وافرضي أنت أننا لم نولد قط!».

وأخيراً ارتفعت عيناها إلى عينيّ، ووقفت على رؤوس أصابعها لتمنحني، بطريقة أعمق تفكيراً، تلك القبلة الثمينة، مثنى وثلاث ورباع؛ ثم تخرج من الغرفة.

*

تجدر الإشارة هنا إلى موضوع آخر قبل أن أختم هذا الفصل؛ لقد كنت جدّ سعيد أن أستنتج أن السيد ميكاوبر كان يعمل جيداً. وبناء على ذلك فقد كنت دهشاً للغاية حين وصلتني من زَوجته المحبة، في مثل هذا الوقت، الرسالة التالية:

كانترباري. الاثنين مساء.

ستدهش، دون شك، حين تتسلم هذه الرسالة، يا سيد كوپرفيلد؛ ولكنك ستدهش أكثر عندما تقرأ محتواها.

ستتصور بنفسك، يا عزيزي، الحالة التي ينبغي أن تكون عليها مشاعري عندما أخبرك أن السيد ميكاوبر قد تبدّل كلياً. لقد أصبح متحفظاً، غامضاً، وغدت حياته سراً بالنسبة إلى شريكة أفراحه وأتراحه... وأشير هنا إلى زوجته.

ولكن ليس هذا كل شيء. إنه حاد الطبع الآن، صارم، وقد نفر من ابننا الكبير ومن ابنتنا. لم يعد يفخر بالتوأم، وغدا ينظر بعين من البرود، حتى إلى الغريب المسالم، الذي أصبح أخيراً واحداً من أفراد الحلقة. إن هذا صعب، لا يطاق، ويحطم القلب. وإذا كنت ستقدم إلي إحدى نصائحك، مع علمك لإمكاناتي الضعيفة، فكيف تعتقد أنه سيكون من الأفضل أن نعتمدها في ورطة غير اعتيادية، كهذه؟ إنك تضيف بذلك مأثرة عزيزة إلى مآثرك العديدة التي سبق وقدمتها إلينا.

الأولاد جميعهم يهدونك خالص حبهم، وابتسامة من الغريب الغافل، ودمت لعزيزتك،

المحزونة: إيما ميكاوبر

لم أجد من العدل أن أبعث إلى زوجة، بمثل خبرة السيدة ميكاوبر، أي نصيحة أخرى سوى أن تحاول استمالة السيد ميكاوبر باللطف واللين (كما كنت أعلم أنها ستفعل، على أي حال!). على أن الرسالة جعلتني أفكر بالسيد ميكاوبر لساعات طويلة.

12

ولأتوقف الآن مرة أخرى عند مرحلة مشهودة من حياتي، ولأقف جانباً كيما أرى أشباح تلك الأيام تمر بي، مرافقة لظلي في موكب حزين.

كنت أتقنت فنَّ الاختزال الصعب، وغدوت أكسب منه مبلغاً محترماً، كما أصبحت معروفاً تقريباً لإنجازي كل ما يتعلق بهذا الفن. وقد تعاقدت مع جريدة صباحية لأنقل إليها المناقشات البرلمانية، لقاء أحد عشر جنيهاً أخرى.

وكنت على وشك الزواج بدورا، بعد أن وافقت كل من عمتيها الآنسة ليڤينيا والآنسة كلاريسا. وإذ كنا نتجه إلى الكنيسة في يوم زواجنا، في عربة مكشوفة، كان هذا الزواج المبهج من الواقعية بحيث كان يملؤني بشيء من الشفقة بالنسبة إلى الناس غير المحظوظين الذين لم يكن لهم علاقة بهذا الزواج، وإنما كانوا يكنسون أرض المحال، ويمضون إلى أعمالهم اليومية.

كانت عمتي تجلس ويدي بين يديها طوال الطريق؛ وعندما توقفنا على مقربة من الكنيسة، لننزل پيغوتي، شدت عليها، وقبلتني. ثم قالت «ليباركك الله يا تروت. لو أنك كنت ابني الحقيقي لما كان يمكن أن تكون أعز إليّ منك الآن. إني أفكر بأمك المسكينة، العزيزة، في هذا الصباح».

«وأنا أفكر بها أيضاً؛ وبكل ما أنا مدين لك به، يا عمتاه!».

«اسكت أيها الطفل!» قالت عمتي وهي تمد يدها بمودة زائدة لترادلس الذي مدّ يده للسيد ديك كذلك، ثم أعطاني السيد ديك يده بدوره، وأعطيت أنا يدي لترادلس أخيراً، وهكذا نزلنا من العربة جميعاً وسرنا متقدمين من باب الكنيسة.

وكنت متأكداً تماماً من أن الكنيسة كانت هادئة وأنَّ بقية الأحداث كلها كانت أشبه ما تكون بالحلم بالنسبة إلي.

وعدنا جميعاً، وصحوت أنا من الحلم الذي كنت فيه، وقد أصبح حقيقة واقعة أخيراً إذ إنَّ التي كانت تجلس بجانبي هي زوجتي العزيزة، التي أكن لها كل حب.

قالت لي دورا «هل أنت سعيد الآن، أنت أيها الفتى الغبي؟ وهل أنت متأكد من أنك لست نادماً؟».

*

كان من المدهش المستغرب حقاً أن ينتهي شهر العسل، وأن يعود الإشبينان إلى منزلهما، وذلك عندما وجدت نفسي أجلس أنا ودورا وحيدين في منزلنا الصغير. وكنت أشك فيما إذا كان عصفوران صغيران لا يعرفان من شؤون المنزل أكثر مما كنا نعرف أنا ودورا الحبيبة.

قلت لها مرة «يجب أن نكون جدّيين في بعض الأحيان، يا حبيبتي. تعالي، اجلسي على هذا المقعد بقربي! والآن لنتكلم بطريقة منطقية. تعرفين يا حبيبتي...» يا لها من يد صغيرة تلك التي أمسكت بها، ويا له من خاتم زواج صغير ذلك الذي رأيته في أصبعها! وأردفت «أتعرفين يا حبيبتي؟ ليس من المستحب أن أضطر إلى الخروج دون أن أتناول فطوري، أليس كذلك؟».

فأجابت دورا بخجل «كـ... كـ... كلا!».

«كم أنكِ ترتعشين، يا حبيبتي!».

فهتفت دورا بصوت حزين «لأنك على وشك أن تعنِّفني!».

«إني أباحثك في الموضوع فقط، يا حبيبتي!».

فقالت دورا بيأس «آه؛ لكن المباحثة أسوأ من التعنيف؛ وأنا لم أتزوج كيما أخوض في المباحثات. إذا ما كنت تقصد أن تناقش فتاة صغيرة مثلي، فيجب عليك أن تخبرني بهذا، أنت أيها الفتى القاسي!».

وحاولت أن أهدئ من روعها قليلاً، إلاّ أنها أشاحت عني بوجهها، وحرّكت ضفائرها من جانب إلى آخر، وعادت تقول «أنت قاسٍ»

وظلت تردد هذه العبارة مراراً، بحيث إني لم أعد أعرف ماذا أقول حقاً. وهكذا شرعت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً وأنا في حيرتي، ثم عدت إلى مجلسي من جديد.

«دورا، يا حبيبتي!».

وكان جوابها «كلا، أنا لست حبيبتك، لأنك يجب أن تشعر بالندم لزواجك بي، وإلاّ فلا تحاول أن تجادلني أو تتباحث معي!».

وشعرت أن طبيعة هذا «الهجوم» البسيط قد جرحت مشاعري، بحيث إنها منحتني بعض الشجاعة كيما أكون حازماً، فقلت لها:

«والآن يا عزيزتي دورا، أنت طفلة صغيرة، وكلامك كله هراء. يجب أن تتذكري، وأنا أكيد من هذا، أني كنت مرغماً يوم أمس على الخروج قبل أن ينتهي الغداء؛ وأول البارحة كنت مستاء تماماً لأني كنت مرغماً على تناول اللحم بسرعة قبل أن يتم طبخه تماماً. واليوم، لن أتناول طعام الغداء مطلقاً. وأخشى أن أصرح كم انتظرنا من الوقت حتى تناولنا طعام الفطور... ثم إن الماء لم يكن قد سخن بعد. لا أقصد أن أعنّفك يا عزيزتي، ولكن هذا غير مُرضٍ».

فهتفت دورا «آه! إنك قاس، قاس بقولك إني زوجة غير مرضية!».

«يجب أن تعلمي، يا عزيزتي دورا، أني لم أقل هذا قط!».

فقالت «لقد قلت إني لم أكن مُرضية».

«قلت إن إدارة شؤون المنزل لم تكن مريحة!».

فهتفت «لا فرق في ذلك».

لقد كانت تعتقد ذلك بوضوح، لأنها سرعان ما راحت تنتحب بشكل مفجع.

وعدت أجول في الغرفة وأنا أشعر بالحب نحو زوجتي العزيزة، وبالحيرة إلى درجة أني كنت سأصدم رأسي بالباب. وجلست، وقلت من جديد:

«أنا لا ألومك يا دورا؛ فكلانا لديه الكثير ليتعلّمه في هذه الحياة».

فقالت وهي تنتحب «وإني لأدهش حقاً أن أسمعك تتفوه بعبارات كلها تعنيف، وأنت تعلم أني، في ذلك اليوم الذي قلت فيه إنك تود لو أنك تأكل السمك، خرجت بنفسي وسرت أميالاً وأميالاً وابتعته لك لكي أفاجئك!».

قلت «ما فعلته كان لطفاً زائداً منك يا حبيبتي. وقد شعرت بالإحراج كيف أني لم أقل، بأي حال، إنك قد ابتعت سمكاً... أكثر مما نحتاج إليه نحن معاً، أو إنه كلّف مبلغاً أكبر مما في وسعنا أن نتحمل!».

قالت وهي لا تزال تنتحب «لقد سررت بتلك الأكلة كثيراً، وقلت إني كنت فأرة» فأجبت بأنني على استعداد لأن أقول هذا ألف مرة من جديد. غير أني كنت قد حطمت قلب دورا الصغير الطيّب، ولم تكن لتهدأ. لقد كانت عاطفية للغاية في بكائها ونحيبها، بحيث شعرت كما لو أني لا أعرف ما الذي يبعث فيها على الألم. وكان علي أن أسرع بالخروج، إذ كنت قد تأخرت كثيراً عن عملي. وطوال الليل كنت أشعر بنوبات من التأنيب النفسي ظللت معها تعيساً. وقد انتابني إحساس بأني قاس، كما كان يداهمني شعور بالأذى الجسمي.

وجاءت دورا، وهي تتسلل بخفيها، لتقابلني، وراحت تنتحب فوق كتفي وتقول إني كنت قاسي القلب، في حين كانت هي عديمة النفع. ورددت أنا الكلام عينه الذي كنت في الحقيقة أعتبره صحيحاً. ورأبنا الصدع، واتفقنا على أن خلافنا الصغير هذا سيكون الأول والأخير، ولن يكون ثمة خلاف بيننا بعد الآن، حتى ولو عشنا مائة عام. فقالت لي على الفور «إني جد آسفة، ولكن هل ستحاول أن تعلمني يا حبيبي؟».

فقلت «يجب أن أعلِّم نفسي أولاً، يا دورا، فأنا أحمق مثلك يا حبيبتي!».

وأجابت «ولكن في وسعك أن تتعلم. أنت رجل مثقف، ذكي!».

أجبت «هذا هراء، أيتها الفأرة!».

واستطردت زوجتي بعد صمت طويل «أتمنى لو أني استطعت أن أمضي إلى البلدة لمدة سنة كاملة لأعيش خلالها مع آغنيس!».

وتشابكت يداها فوق كتفي، واستراحت ذقنها عليهما، وراحت عيناها الزرقاوان تحدقان داخل عينيّ بهدوء، فسألتها:

«لِمَ هذا التمنّي؟».

فأجابت «أعتقد أنها كانت ستزيد في معلوماتي، ولكنت تعلمت منها الشيء الكثير».

قلت «لقد كانت آغنيس، ولا تزال، تهتم بوالدها طوال هذه السنوات؛ حتى عندما كانت طفلة صغيرة كانت آغنيس نفسها التي نعرفها اليوم!».

وسألت دورا دون أن تتحرك «هل تود أن تدعوني باسم أريدك أن تدعوني به؟».

فسألتها بابتسامة «ما هو؟».

قالت وهي تحرّك ضفائرها للحظة «إنه اسم سخيف! الزوجة الطفلة!».

وسألت زوجتي الطفلة، وأنا أضحك، عما كان هدفها من رغبتها هذه! فأجابت دون حراك، مع أن ذراعي التي لففتها من حولها قد تكون قربت عينيها الزرقاوين إلي «أنا لا أعني، أيها الفتى الأحمق، أنه يجب أن تستعمل هذا الاسم عوضاً عن اسمي الأصلي، دورا؛ وإنما أعني أنه يجب أن تفكر بي من هذه الناحية فقط. فعندما تشعر أنك على وشك أن تغضب مني قل لنفسك: «إنها زوجتي الطفلة فقط». وقل عندما أكون مخيبة لأملك «إني أعرف منذ وقت طويل أنها لن تكون سوى زوجة طفلة». وعندما تجد أنك افتقدت فيَّ ما ينبغي أن أكون، وأعتقد أنا بأني لن أستطيع أن أكون أبداً ما تريد، فقل ساعتئذٍ «إن زوجتي الطفلة، الغبية، لا تزال تحبني!» لأنني فعلاً سأظل أحبك!».

كان لمرافعة دورا هذه التأثير العميق والقوي في نفسي، إذ إني اليوم أنظر إلى الوراء، إلى تلك الفترة التي أكتب عنها، وأستحضر ذلك الشكل الساذج الذي أحببته بإخلاص، من خلال ضباب الماضي وظلاله، وأدير له رأسه اللطيف نحوي من جديد؛ ولا يزال في وسعي أن

أصرح بأن مرافعتها هذه كانت ولا تزال دائماً كامنة في ذاكرتي. لعلي لم أكن قد تصرفت التصرف المثالي في ذلك الوقت، إذ كنت فتى غرًّا، وعديم الخبرة، إلاّ أني لم أصم أذني قط عما كانت تتضمّنه هذه المرافعة من رجاء ساذج.

كانت لدي مشاغل ومهام كثيرة في تلك الأيام، ولكن الاعتبار ذاته هو الذي جعلني أحتفظ بها لنفسي. واستمررنا نعيش لفترة طويلة كما عهدنا، من ناحية إدارة المنزل الفوضوية، ولكني اعتدت عليها، وكنت سعيداً للغاية بأن أرى أنّ دورا قلما تكون مكدرة. لقد كانت تبدو فرحة ومبتهجة على طريقتها الطفولية القديمة، وقد أحبتني من صميم قلبها، وكانت تشعر بالسعادة في عبثها ولهوها المعهودين.

*

لا شك في أنه كان قد مضى على زواجي حوالى العام، هذا إذا ما أمكنني الاعتماد على ذاكرتي الضعيفة في حفظ التواريخ، وأنا أعود من نزهة فردية، وأفكر بالكتاب الذي كنت أضعه آنذاك ـ لأن نجاحي كان قد انتشر بشكل ثابت، إلى جانب وضعي الثابت، وقد كنت عاكفاً في تلك الفترة على أول عمل روائي لي ـ عندما مررت بمنزل السيدة ستيرفورث، وسمعت صوتاً إلى جانبي يناديني بحيث أجفلني.

كان صوت امرأة، ولم يطل بي الوقت حتى تعرفت إلى خادمة السيدة ستيرفورث، التي طلبت إليّ بلطف أن أتكرم وأدخل لأتكلم إلى الآنسة دارتل. عندما بلغنا المنزل، صحبتني الخادمة إلى الآنسة دارتل التي كانت في الحديقة، ثم تركتني لأتقدّم أنا نفسي منها. كانت تجلس على مقعد في طرف شيء أشبه بمصطبة تشرف على المدينة العظيمة، وكان المساء مظلماً، وفي السماء نور أصفر باهت. وقد رأيت هيئة عبوس على بعد مني، وتصورت أن أراها أكثر شحوباً ونحولاً مما رأيتها عليه في المرة الأخيرة؛ وأن أرى عينيها أكثر بريقاً وأثر الندب أكثر وضوحاً.

لم يكن لقاؤنا ودياً، إذ كنا قد افترقنا في المرة الأخيرة ونحن على خصام. وكان يبدو عليها شيء من الازدراء لم تجهد نفسها لإخفائه.

«لقد قيل لي إنك تودين أن تتحدّثي إليَّ، يا آنسة دارتل!» قلت وأنا أقف إلى جانبها، ويدي تستريح على ظهر مقعدها، رافضاً قبول إشارتها بدعوتي إلى الجلوس.

فقالت «أرجوك أن تخبرني، من فضلك، هل وجدت تلك الفتاة؟».

وعندما أجبت بالنفي قالت «ومع ذلك فقد هربت!».

ورأيت شفتيها النحيلتين تتحركان فيما كانت تحدق إليّ، وكأنهما كانتا متشوقتين إلى إمدادها بعبارات التَّعنيف!

قلت «هربت!؟».

فأجابت بضحكة «أجل! هربت منه. وإن هو لم يعثر عليها بعد فربما لن يعثر عليها أبداً. قد تكون ميتة!».

ولم أرَ في حياتي، في تلك اللحظة، مثل تلك القساوة التي رأيتها على وجهها عندما واجهت عيناها عيني. وعادت تقول:

«أتود أن تطّلع على الأخبار الواردة عنها؟».

قلت «أجل» وعندئذ هبت واقفة وعلى وجهها بسمة ذات طابع لئيم، وفيما كانت تخطو نحو جدار قريب، كان يفصل الحديقة عن المطبخ، هتفت بصوت عال، وكأنها كانت تنادي حيواناً قذراً «تعال إلى هنا!» وعادت نحوي متبوعة بالسيد ليتيمار المحترم، الذي انحنى يحيّيني باحترام تام، ثم اتخذ مكانه وراءها. قالت له بلهجة آمرة، دون أن تنظر إليه، وهي تلمس أثر الندب القديم المرتعش «والآن، أخبر السيد كوپرفيلد بشأن الفرار!».

قال «لقد سافرنا أنا والسيد جيمس ومعنا الفتاة الشابة، وهي تحت رعايته منذ أن تركت يارماوث.وقد زرنا أمكنة شتى وشاهدنا بلداناً أجنبية كثيرة، وزرنا فرنسا، وسويسرا، وإيطاليا... وفي الحقيقة كل الأمكنة تقريباً».

«وقد شغف السيد جيمس بتلك الفتاة، بشكل غير طبيعي تماماً. وكان لفترة طويلة أكثر استقراراً مما كان عليه منذ أن عرفته وانخرطت في خدمته، إلى أن بدأت هي، كما أعتقد، تقلقه بإفساحها في المجال لتصرفاتها الوضيعة وسجاياها التي على مثل هذا النمط. ولم تعد الأمور مذذاك لتبعث على الراحة. وعاد السيد جيمس إلى تبرمه وقلقه من جديد؛ وكلما كان تبرمه يزداد كلما كانت حالتها هي تزداد سوءاً. ويجب أن أقول، بالنسبة إليَّ طبعاً، إني قد أمضيت بينهما وقتاً عصيباً للغاية. وأخيراً، وفي صباح يوم رحل السيد جيمس من المنطقة المجاورة لنابلز، حيث كانت لنا «ڤيلة» هناك (لأن الفتاة كانت مغرمة كثيراً بالبحر). وإذ رحل، وهو يتظاهر بأنه سيعود بعد يوم تقريباً، فقد تركني لأعلن بأنه، من أجل السعادة العامة...» وهنا قوطع عن الكلام بسعال قصير «قد رحل! ويجب أن أقول إن السيد جيمس قد تصرف تصرفاً شريفاً للغاية حقاً، لأنه اقترح أن تتزوج تلك الفتاة رجلاً جد محترم، يكون طيباً بقدر طيبة أي شخص كانت الفتاة تتوق إليه بطريقة طبيعية، لأن أقرباءها كانوا جد وضيعين».

وغيّر من وضعيّة وقفته من جديد، ورطّب شفتيه. وكنت مقتنعاً بأن السافل يقصد نفسه بذلك الشخص المحترم جدّاً، ولاحظت صورة اقتناعي مرسومة على وجه الآنسة دارتل. ثم أردف بعد قليل «وكان العنف الذي بلغته الفتاة، بعد أن أعلمتها بحقيقة رحيله، عنفاً لا يمكن أن يتوقعه أي إنسان. لقد غدت مجنونة تماماً، وكان من الضروري أن يُحجر عليها؛ وإلاّ لكانت، إن لم تستطع أن تصل إلى سكين، أو إلى البحر، دقّت رأسها بالأرض المرصوفة بالبلاط. وكان من الضروري، بالاختصار، أن تُحبس في الغرفة لفترة من الوقت؛ ومع ذلك فقد خرجت في أثناء الليل، بعد أن خلعت النافذة التي كنت قد أقفلتها عليها بنفسي، وهبطت على دالية كانت تقوم تحت النافذة ولم نعد، حسب معلوماتي، نراها أو نسمع عنها شيئاً منذ ذلك الوقت. وعندما تأكد لنا

أن العثور عليها لم يعد ممكناً مضيت إلى السيد جيمس وأعلمته بما حدث. وقد تبادلنا بعض العبارات، وشعرت أخيراً بأنه قد حان لي أن أتركه. كان في وسعي أن أتحمّل، وقد تحملت الكثير من السيد جيمس، إلاّ أنه قد أهانني إلى أقصى حد. وإذ كنت أعرف الخلاف الشديد القائم بينه وبين والدته، وما قد يكون عليه جزعها... فقد أخذت الإذن في أن أعود إلى المنزل في إنكلترا، وأروي...».

فقاطعته الآنسة دارتل وهي تخاطبني «بفعل تأثير المال الذي دفعته له».

«وذلك صحيح تماماً، أيتها السيدة... وأروي كل ما أعرفه!».

وقالت الآنسة دارتل تستوضحني «هل هذا كل شيء؟».

أجبت بأن ليس عندي ما أقول، وأضفت، وقد رأيت السيد ليتيمار يسير مبتعداً «سوى أني أدركت دور هذا الإنسان في القصة المحزنة، وبما أني سأطلع عليها ذلك الرجل الصادق، الطيب، الذي حضنها منذ الطفولة، وكان لها بمثابة أب، فسوف أوعز إليه بألاّ يمضي بعيداً في التفاصيل».

وأخيراً خرجت من ذلك المنزل وأنا أفكر بما سمعته، وأدركت أنه من الصواب أن أحمل هذه الأخبار إلى السيد بيغوتي. وفي مساء اليوم التالي قصدت إلى لندن في طلبه؛ إذ إنه دائماً ما كان يتنقل من مكان إلى آخر وهو شبه تائه، يسيطر عليه شعور وحيد هو أن يجد ابنة شقيقته أمامه. ولكنه في أغلب الأوقات يكون في لندن. وكثيراً ما كنت أراه عند الأصائل وهو يجوب الشوارع بحثاً عنها.

كان يسكن في غرفة تقوم فوق متجر للشموع، في هانغرفورد ماركت، وكان يجلس ليقرأ بقرب النافذة التي يضع عليها بعض الأصُص. كانت الغرفة نظيفة ومرتبة للغاية، وقد لاحظت أنها كانت تبقى دائماً في حالة استعداد لاستقبالها، وأنه لم يكن يخرج منها مرة إلاّ وكله أمل بأنه قد يجدها ويعود بها إلى هذه الغرفة. لم يسمع طرقاتي على الباب، فرفع عينيه فقط عندما ألقيت بيدي فوق كتفه، وهتف:

«السيد دايفي! شكراً لك يا سيدي! شكراً جزيلاً لزيارتك هذه! اجلس! أهلاً وسهلاً بك يا سيدي!».

قلت وأنا أتناول منه المقعد الذي كان يقدمه إلي: «لا تتوقع الكثير يا سيد بيغوتي، لقد سمعت بعض الأخبار!».

«عن إميلي!؟».

«لا تعطينا هذه الأخبار أية إشارة إلى مكان وجودها، غير أنها ليست معه!».

وجلس ينظر إلي بإنعام، ويستمع بصمت عميق إلى كل ما كان علي أن أخبره به. قلت أخيراً «وإذا كان عليها أن تتجه إلى لندن! وهذا محتمل... لأنها لا يمكن أن تفقد نفسها هكذا، كما تستطيع في هذه المدينة الكبيرة؟... إذا كان عليها أن تأتي إلى لندن، فإني أعتقد أن ثمة إنساناً واحداً، هنا، من المحتمل أن يجدها أكثر من أي إنسان آخر في العالم. هل تتذكر مارتا؟».

ومارتا هذه فتاة وضيعة، كانت تطوف متشردة في يارماوث، وقد أحسنت إليها إميلي ذات مرة إذ أعطتها بعض النقود لتأتي بها إلى لندن، لعلها تحسّن من وضعها، وكانت كذلك معروفة لدى أهالي يارماوث جميعاً. فسأل السيد بيغوتي:

«فتاة بلدتنا؟».

«هل تدري أنها في لندن؟».

فأجاب بارتعاشة «لقد رأيتها في الشوارع!».

قلت «ولكنك لا تعلم أن إميلي قد أحسنت إليها، بمساعدة هام، قبل أن تبتعد عن المنزل بوقت طويل. إنها الشخص الذي أتكلم عنه. وقد قلت إنك رأيتها، فهل تعتقد أنك تستطيع أن تجدها؟ وبما أنني هنا هيا بنا نمضي معاً الآن، ونحاول أن نجدها هذه الليلة».

وقبل اقتراحي، وجهز نفسه للمضيّ معي.

وصلنا إلى المدينة عبر تانبل بار، وإذ لم يكن يتكلم إلي الآن، فيما كان يسير إلى جانبي، فقد استسلم للتفكير بالغاية الوحيدة التي أوقف حياته من أجلها. ولم نكن بعيديْن عن جسر بلاكفريارز عندما أدار رأسه وأشار إلى شكل امرأة وحيدة، تسير في الجهة المقابلة من الشارع. وفي الحال عرفت صاحبة هذا الشكل. لقد كانت تلك الفتاة التي نبحث عنها، فتبعناها عن بعد، ولكن دون أن تغيب عن أنظارنا أبداً، ودون أن نحاول الاقتراب منها كثيراً عندما كانت تكثر من التلفُّت حولها. وأخيراً دخلت شارعاً موحشاً، مظلماً، حيث لا ناس ولا جلبة. وأسرعنا الخطى وسرنا في إثرها. وكنا قد دخلنا شارعاً ضيقاً بالقرب من ميليانك عندما بلغناها. كانت المنطقة موحشة في ذلك الوقت، تبعث ليلاً على الكآبة والوحدة والضجر، كأي منطقة أخرى حول مدينة لندن. ولم يكن ثمة مرافئ، أو منازل في تلك الطريق المهجورة، الكئيبة، بالقرب من النهر والسجن الكبير الخالي. وكما لو أن هذه الفتاة، التي نسير في إثرها، كانت كومة من النفايات المرمية هناك، والتي كانت مياه النهر قد لفظتها لتتعفن على الضفة، جلست على حافة النهر وراحت ترنو إلى المياه الجارية بكل هدوء.

كانت هناك مراكب غائصة في وحول الشاطئ، الأمر الذي مكّنا من الاقتراب منها بحيث أصبحنا على بعد عدة ياردات فقط، دون أن ترانا.

«مارتا!».

وخرجت منها صرخة رعب،وراحت تقاومني بقوة هائلة جعلتني أشك في قدرتي على الإمساك بها بمفردي، ولكن يداً أقوى من يدي أمسكت بها، وعندما رفعت عينيها المذعورتين ورأتنا، قامت بمحاولة أخيرة، ثم هدأت بين أيدينا. وأبعدناها عن الماء، إلى حيث تنتشر بعض الحصى الجافة، وتركناها هناك تبكي وتئن. وفي مدى برهة قصيرة، كانت تجلس بين تلك الحصى، واضعة رأسها بين ذراعيها.

وصرخت بانفعال «آه أيها النهر! آه أيها النهر!».

فقلت «صه! صه! هدِّئي من روعك».

ولكنها راحت تردد الكلمات ذاتها «آه أيها النهر! أنا أعرف أنه مثلي، وأعرف أني أخصه، وأعرف أن صداقتنا هي الصداقة الطبيعية الوحيدة. إنه يأتي من مناطق الريف، حيث لا يكون فيه أي تلوث، ويزحف عبر الشوارع المكربة، مدنساً وبائساً... ويمضي في طريقه، مثل حياتي، إلى بحر هائل، دائم الاضطراب... وأشعر أني يجب أن أمضي معه».

ولم أكن أدري ما هو اليأس إلاّ في هذه الكلمات.

«لا يسعني أن أبقى بعيدة عنه، لا يسعني أن أنساه، إنه يلازمني ليل نهار. إنه الشيء الوحيد في العالم الذي أناسبه ويناسبني. آه أيها النهر المريع».

ودهمتها موجة أخرى من البكاء، بحيث عادت تخبئ رأسها من جديد بين يديها، وتتمدد أمامنا وكأنها صورة جليّة للذل والفقر. وإذ أدركنا أن حالتها هذه ينبغي أن تتبدّل قبل أن نتمكن من التحدّث إليها، فقد وقفنا صامتين إلى جانبها، إلى أن غدت أكثر هدوءاً.

قلت عندئذٍ وأنا أنحني وأساعدها على النهوض، وبدت كما لو أنها كانت تود أن تنهض وهي مصممة على الهروب، إلاّ أنها كانت واهنة القوى، فاتكأت على حافة أحد المراكب.

«مارتا، هل تعرفين هذا الشخص الذي يرافقني؟».

فأجابت بصوت واهن «أجل!» ثم تابعت، وهي تبتعد عنه «قل له يا سيدي، إن لم تشعر بالنفور مني لأداء هذا، إني لم أكن قط، ولا بأي طريقة، السبب في مصيبته. لقد كانت طيبة معي دائماً! ولم تخاطبني بكلمة واحدة لم تكن مفرحة، ومشجّعة. فهل من الممكن أن أحاول أن أجعلها مثلي أنا، في حين أني أعرف من أنا تماماً؟».

فقال السيد پيغوتي «مارتا! أنا لا أريد محاكمتك، وليس هذا

قصدي من بين جميع الرجال، يا فتاتي. ولكن نظراً إلى ظننا، فإننا نعرف أنها كانت تود، ذات يوم، أن تقوم برحلتها الفردية البائسة إلى لندن. ونحن نصدق... أنا والسيد دايڤي، أنكِ بريئة من كل شيء ألمَّ بها، كبراءة أي طفل لم يولد بعد. ولقد تكلمتِ عن كونها كانت لطيفة ورقيقة معك، يا لها من طيبة، وأنا أعرف أنها كذلك! أعرف أنها كانت دائماً هكذا، مع الجميع. وأنت تعترفين بجميلها، وتحبينها، فساعدينا بقدر استطاعتك على إيجادها. فلعل السماء تجزيك خيراً!».

وسألت بصوت خفيض ملؤه الدهشة «وهل ستثق بي؟» ثم أردفت على عجل «سأكلّمها، إذا وجدتها يوماً، ثم أؤويها، وآتي إليك دون معرفتها لتأخذها!».

فأجبنا أنا والسيد پيغوتي معاً «أجل!».

ورفعت عينيها، وأوضحت لنا، بشيء من الوقار، أنها ستوقف نفسها من أجل هذا الغرض. ووجدنا من الملائم أن نخبرها الآن بكل ما نعرف! وقد فعلت ذلك في النهاية، فتحت نور مصباح شاحب، على قارعة الطريق، كتبت لها عنوانينا على قطعة ورق انتزعتها من دفتري الصغير، فأخذتها ودستها في صدرها، وسألتها بدوري عن مكان سكنها، فأجابت بعد فترة صمت بأنها لا تسكن في أي مكان لفترة طويلة، ومن الأفضل ألاّ أعرف. ثم أخرجت حافظة نقودي، غير أني لم أفلح في إقناعها بقبول أي مبلغ من المال، إذ إنها قالت:

«لا يسعني أن أقوم بما وعدت لقاء أي مبلغ من المال. لا يسعني أن آخذه ولو كنت جائعة. وإن أنت أعطيتني مالاً، فمعنى ذلك أنك تسحب ثقتك مني، إنك تأخذ مني الشيء الذي أعطيتني إياه، تأخذ مني الشيء الوحيد الذي يحفظني من ميتة النهر!».

ومن جديد مسحت دموعها التي كانت قد بدأت تنحدر على وجنتيها، ومدت يدها المرتعشة ولمست السيد پيغوتي كما لو أن فيها تأثيراً مطهّراً، ثم اندفعت في الطريق المعتمة.

13

ظللت أعمل على كتابي بجهد حتى فرغت منه أخيراً، وخرج إلى حيِّز الوجود، فلقي نجاحاً منقطع النظير. وكنت أكتب في الصحف، وفي أمكنة أخرى بنجاح عظيم بحيث اعتبرت نفسي، عندما نلت هذا النجاح الجديد، مخوّلاً بشكل معقول ومقبول أن أتخلى عن الكتابة حول المناقشات البرلمانية المملّة. وبناء على ذلك، فقد سجلت، في مساء يوم مقمر، موسيقى المزامير البرلمانية للمرة الأخيرة، ولم أعد أستمع إليها منذ ذلك الوقت.

والآن، ها أنا أكتب عن الفترة التي كنت فيها متزوجاً، وأعتقد أنها دامت حوالى عام ونصف، وكنت عقدت النية فيها على أن أكيِّف عقل دورا. فعندما كانت دورا طفلة في تفكيرها، كنت أود، بشكل مطلق، أن أكون جدياً فأربكها وأربك نفسي أيضاً. كنت أتكلم إليها عن المواضيع التي تشغل أفكاري، وكنت أقرأ شكسبير، وأرهقها إلى آخر درجة. وكنت قد عودت نفسي على أن ألقي عليها، وقد كان ذلك بصورة عَرَضية تماماً، بعض النصائح أو الآراء الثابتة... وكانت هذه تجفلها وكأنها كانت مفرقعات.

وكنت أقحم ترادلس في خدمتي، دون أن يكون هو عارفاً بشيء، فعندما كان يأتي لزيارتنا، كنت أفجر «مفرقعاتي» عليه من أجل تثقيف دورا، بطريقة غير مباشرة. وقد كانت الحِكم العملية التي كنت أغدقها على ترادلس، بهذه الطريقة، واسعة، ومن الصفة الفضلى ذاتها، ولكن لم يكن لها أي تأثير في دورا سوى أن تحزنها، وتضغط على معنوياتها، وتجعلها دائماً في حالة عصبية بالنسبة إلى الخوف الذي أصبح فيما بعد يفاجئها على شكل نوبات. وكنت أجد نفسي، وأنا في وضع معلم المدرسة، وكأني مصيدة أو شرك، بحيث كنت آخذ دور الرتيلاء أمام تحليق دورا، وأقفز دائماً خارج الثقب كيما أسبب لها القلق المطلق.

وبقيت أشهراً أتطلع، عبر تلك الفترة القلقة، إلى الوقت الذي كان يجب أن يكون فيه تبادل عاطفي مشترك بيني وبين دورا، والذي كان ينبغي لي فيه أن أكون قد كيّفت عقلها حسب اقتناعي الكلي، إلا أنني وجدت أخيراً أني لم أحدث فيها أي تأثير، بعد أن خُيِّل إليَّ أنه ربما تمت عملية تكييف عقلها حتى تلك الفترة.

وبعد تفكير أعمق، بدت لي هذه الفكرة جد محتملة، بحيث أقلعت عن خطتي، وقد عقدت النية، منذ ذلك الوقت، على أن أكون راضياً مع زوجتي الطفلة، وألاّ أحاول أن أبدل فيها شيئاً، بأي طريقة. وهكذا فقد ابتعت لها، ذات يوم، قرطيْن، وطوقاً لكلبها جيب، وسرت إلى المنزل كيما أبدو لها مرضياً.

سُرَّت دورا بهاتين الهديتين الصغيرتين، وقبّلتني بفرح بالغ. وجلست بالقرب منها، على الأريكة، ووضعت القرطين في أذنيها، ثم أخبرتها بأني أخشى أننا لم نكن في المدة الأخيرة على ما يرام في صداقتنا، كما ألفنا أن نكون، وبأن تلك كانت هفوتي أنا، هذه الهفوة التي كنت أشعر بها بصدق والتي كانت مقيتة بالفعل. قلت لها:

«إن الحقيقة، يا عزيزتي دورا، هي أني كنت أحاول أن أكون ذكياً!».

وقالت دورا بخجل «وأن تجعلني ذكية أيضاً، أليس كذلك يا «دادي»؟».

فهززت رأسي موافقاً أمام سؤالها، وهي ترفع حاجبيها، ثم قبّلت شفتيها المنفرجتين. وعادت تقول وهي تهز رأسها حتى بدأ القرطان يهتزان أيضاً «ليس ثمة فائدة، أنت تعرف أية امرأة ضئيلة هي أنا، وأي اسم أردتك أن تطلقه عليّ منذ البداية. وإن لم يسعك أن تقوم بذلك، فإني أخشى أنك لن تحبني أبداً. هل أنت متأكد من أنك لا تعتقد، أحياناً، أنه لكان من الأفضل ألاّ تفعل...».

سألتها مستفهماً، لأنها لم تبدِ أي جهد للاستطراد «ألاّ أفعل ماذا يا عزيزتي؟».

قالت «لا شيء!».

وردّدت «لا شيء؟».

لفّت ذراعيها حول عنقي وضحكت، ونادت نفسها بذلك الاسم المحبب إليها، وأخفت وجهها بحيث كان من الواضح أنها أرادت أن أرى كل شيء. فقلت ضاحكاً «لا أعتقد أنه لكان من الأفضل ألاّ أفعل أي شيء سوى أن أحاول تكييف عقل زوجتي الصغيرة، هل هذا هو السؤال؟ أجل، لقد حاولت بالفعل!».

فهتفت دورا «هل هذا ما كنت تحاول القيام به؟ آه! يا لك من فتى مريع!».

قلت «ولكني لن أحاول أن أفعل هذا مرة أخرى، لأني أحب زوجتي حباً عميقاً، كما هي عليه الآن تماماً!».

والتصقت بي، فيما كنت أقول «ولماذا أحاول أن أُبدِّل مَنْ كانت بالنسبة إليَّ حبيبة غالية لمدة طويلة؟ ليس في وسعك أن تكوني في حالة سوى حالتك الطبيعية ذاتها، يا عزيزتي دورا، ولن نحاول أن نبتدع تجارب وهمية، وإنما سنعود إلى ما كنا عليه قديماً لنصبح سعيدين».

ورددت دورا «لنصبح سعيدين! أجل، طوال النهار، ولن تبالي أنت بالأمور إذا ساءت إدارتها قليلاً، في بعض الأحيان؟».

فقلت «كلاّ، كلاّ! يجب أن ننهج أفضل طريقة نستطيعها».

وقالت دورا «من الأفضل لي أن أكون غبية من أن أكون قلقة! أليس كذلك؟».

«من الأفضل أن تكوني دورا الطبيعية من أن تكوني أي شيء آخر في العالم!».

«في العالم! آه يا «دادي»! إنه لمكان وسيع جدّاً!».

وهزت رأسها، ورفعت عينيها المتلألئتين، السعيدتين، إلى عيني، وقبّلتني، ثم انخرطت في ضحكة طويلة، واستدارت لتمضي إلى كلبها جيب لتلبسه طوقه الجديد.

على هذا الوجه انتهت محاولتي الأخيرة دون أن أغيّر أي شيء في دورا، ولم أكن سعيداً في هذه المحاولة، كما لم يكن في وسعي أن أقارن هذه النهاية بتلك النهاية التي التمست إليَّ فيها أن أدعوها بالزوجة الطفلة. لقد أحببت زوجتي حباً عميقاً، وكنت سعيداً معها؛ ولكن السعادة التي كنت أتوقعها، بشكل غير واضح، لم تكن هي عينها السعادة التي كنت أعيشها، وقد ظل هناك دائماً ثمة شيء مفقود. وأما العام الثاني من زواجنا فقد كان أسعد من العام الأول، والشيء الذي سرني هو أنه قد جعل حياة دورا مليئة بالبهجة والسعادة.

على أنَّ دورا لم تكن قوية البنية، خلال ذلك العام؛ وظننت أن يدين أصغر من يديّ قد تساعدان على الانصهار في شخصيتها، وبأن ابتسامة طفل على صدرها قد تبدِّل زوجتي الطفلة وتجعل منها امرأة. ولكن هذا لم يكن ليصبح حقيقة، لأن الروح رفرفت للحظة فوق عتبة سجنها الصغير، ولكنها طارت دون أن تدري بشيء اسمه العبودية.

قالت دورا لعمتي «عندما يصير في وسعي أن أركض من جديد، كما اعتدت أن أفعل يا عمتاه، فإني سأقوم بسباق عدو مع جيب، إذ إنه يزداد كسلاً وبطئاً».

قالت عمتي بهدوء وهي تعمل إلى جانبها «إني أشك يا عزيزتي في أنَّ هناك سبباً آخر لاعتلاله، إنه العمر يا دورا!».

فسألت دورا دَهِشة «هل تعتقدين أنه أصبح كبير السنّ؟ كم يبدو من المستغرب أن يكون جيب مسنّاً!».

فقالت عمتي بابتسام «إنها علة معرضون لها كلنا يا صغيرتي، مع تقدّمنا في السن! وأؤكد لك أني لا أشعر بتحرري منها أكثر مما اعتدت أن أكون!».

قالت دورا وهي تنظر إلى كلبها بشيء من التأثير «ولكن جيب! حتى جيب الصغير! آه أيها الكلب المسكين. لقد كان إلى جانبي في كل ما حدث لي! أليس كذلك يا جيب؟».

وازداد جيب التصاقاً بسيدته، وراح يلعق يدها بتكاسل. وعادت دورا تخاطبه «أنت لست مسنّاً يا جيب، هل أنت مسنّ بحيث إنك ستتخلى عن سيدتك؟ سنحتفظ بصداقتنا لفترة أطول قليلاً».

يا لعزيزتي دورا الجميلة، لقد ظننا، عندما نزلت لتتناول طعام الغداء معنا، في يوم الأحد التالي، وكانت جد سعيدة برؤية ترادلس الذي اعتاد دائماً أن يتناول غداءه معنا كل يوم أحد، أنه سيكون في وسعها أن تركض في أنحاء المنزل، كما اعتادت أن تفعل، وذلك في خلال أيام معدودة. ولكنهم كانوا يقولون: انتظر بضعة أيام أخرى، ثم، انتظر بضعة أيام أخرى أيضاً، مع أنها ما برحت عاجزة عن الركض وعن المشي كذلك! كانت تبدو جميلة وسعيدة للغاية؛ ولكن القدمين الصغيرتين، اللتين اعتادتا أن تكونا جد رشيقتين عندما كانت ترقص حول جيب، بدتا ثقيلتين واهنتين، لا حراك فيهما.

وبدأت أحملها بنفسي إلى الطابق الأرضي، كل صباح، ثم أعود وأصعد بها إلى الطابق العلوي، كل مساء. وأحياناً، عندماكنت أحملها لأصعد بها، وأشعر أنها كانت تبدو أخف ثقلاً بين يدي، كان يداهمني شعور أليم، مميت، كما لو أني كنت أصل إلى صقع متجمد دون أن يكون مرئيّاً، فيخدِّر حياتي. وكنت أتجاهل كذلك وقعه على نفسي، إلى أن جاءت ليلة، وكان هذا الشعور يسيطر عليّ كليّاً، فتركتها عمتي وهي تهتف لها «طبت مساء أيتها البرعم الصغير!»، فجلست أنا إلى مكتبي وحيداً، ورحت أبكي وأنا أفكر، آه كيف أن البرعم قد ذبُل قبل تفتُّحه على الغصن!

*

في صباح اليوم التالي، تسلمت رسالة بريدية، كانت مُرسلة من

كانترباري، وقرأت فيها ما يلي:

«سيدي العزيز،

إني أكتب إليك لأخبرك أن راحتي قد ولّت، وأن قلبي لم يعد في مكانه الطبيعي، وأني لم أعد أسير مرفوع الرأس.

وإذ أجد نفسي في هذا الوضع الأليم، الذي هو أقوى من أن تساعدني عليه السيدة ميكاوبر، فقد قررت أن أُخصص ثماني وأربعين ساعة من الوقت، لأعود وأزور فيها بعض الأمكنة التي كانت تشهد على سروري الماضي، ومن بين عدة أمكنة ستتجه قدماي، بشكل طبيعي، إلى ناحية سجن المحكمة الملكية. سأكون بعد غد واقفاً خارج ذلك السجن، في الساعة السابعة مساء. وآمل بأن تكون قادراً على المجيء وعلى اصطحاب صديقي السيد توماس ترادلس معك، فلعلنا نجدد علاقاتنا القديمة، التي كانت لنا في الزمن الغابر.

المخلص لك دائماً

ويلكنز ميكاوبر

حاشية: قد يكون من المناسب أن أضيف إلى ما جاء أعلاه أن السيدة ميكاوبر ليست موضع ثقة بالنسبة إلى نواياي».

أعدت قراءة هذه الرسالة مراراً، محاولاً أن أجد المسوّغ اللائق لأسلوب السيد ميكاوبر السامي في الكتابة، ولذته الخارقة التي كان يجلس ويكتب بها الرسائل في مناسبات معقولة أو غير معقولة. وأنا لا أزال أعتقد أن ثمة شيئاً مهماً يكمن وراء هذه الرسالة التي تعتمد اللف والدوران. ثم إني وضعتها جانباً، لأفكر بهذا الشيء المهم. وعدت فتناولتها لأقرأها من جديد، وكنت لا أزال أتصفحها عندما جاء ترادلس ووجدني في قمة حيرتي.

قلت له «لا أجدني مسروراً برؤيتك مرة مثلي الآن يا صديقي! جئت لتقدم إليَّ فائدة حكمك الرزين في أنسب الأوقات! لقد تسلمت يا

ترادلس رسالة في منتهى الغرابة من السيد ميكاوبر!».

وكانت لنا جلسة طويلة طرحنا فيها عدداً من التكهنات التي لست في حاجة إلى ذكرها هنا. وفي بعد ظهر ذلك اليوم أشركنا عمتي في مباحثتنا، وكان الرأي الذي اعتمدناه أخيراً هو أن نكون دقيقين بشأن الموعد الذي ضربه لنا السيد ميكاوبر.

ومع أننا بلغنا المكان المعين قبل ربع ساعة من الوقت المضروب، فقد وجدنا السيد ميكاوبر هناك بانتظارنا. كان يقف ويداه مشبوكتان فوق الجدار، ينظر إلى الأسنَّة في أعلاه بتعبير عاطفي على وجهه.

وعندما اقتربنا منه كانت صورته مشوشة نوعاً ما، إذ كان يبدو أقل أناقة وظرفاً ممّا كان عليه في السابق، وكانت نظارته الزجاجية ذاتها تبدو معلقة بطريقة مهملة، وياقته كذلك بدت مسترخية. وبعد تبادل التحيات، قال السيد ميكاوبر «أنتما، أيها السيدان، صديقان في وقت الحاجة، وصديقان عن حق وصدق».

وسألته عن حال السيدة ميكاوبر، وذلك بعد أن كان يقول لي إنَّ حبه لي كان يتغلب عليه، فأجاب «شكراً، إنها بيْن بيْن».

وإذ ابتعد السيد ميكاوبر عن الجدار، أخذ ذراعي وذراع ترادلس، وسار بيننا. وسألته بعد فترة صمت «كيف حال صديقنا هيپ، يا سيد ميكاوبر؟».

أجاب السيد ميكاوبر بهيئة غاضبة وشاحبة «إذا كنت تسأل عن رب عملي كصديق لك يا سيد كوپرفيلد، فإنني أبدي أسفي لهذه الصداقة. وإن كنت تسأل عنه، على اعتباره صديقاً لي، فإني أضحك من هذا، إذ مهما تكن هيئته وحالته، فإن باطنه خبيث!».

وشعرت بالأسف لأني سقته إلى موضوع أثّر فيه كثيراً. فعدت أقول «هل يسعني أن أسأل عن حال صديقيّ، القديمين، السيد والآنسة ويكفيلد؟».

فأجاب السيد ميكاوبر ولون الدماء يعود إلى وجهه «إن الآنسة

ويكفيلد، كالعادة، مثال حي! احتراماتي لتلك الفتاة السيدة، وولائي لها من أجل حبها، وطيبتها... خذاني إلى زقاق هادئ، لأني لا أستطيع أن أتمالك نفسي، وأنا في مثل هذه الحالة النفسية».

وأخذناه إلى شارع ضيق، حيث أخرج منديله ووقف وظهره إلى الجدار، يجهش بالبكاء.

قال له ترادلس «آه، إنك في حالة يرثى لها يا سيد ميكاوبر!».

«أجل، إني في حالة يرثى لها».

قلت له عندئذ إنه من دواعي سروري أن أعرّفه إلى عمتي إذا شاء أن يأتي إلى هاي غيت، حيث يكون ثمة سرير تحت تصرفه. وأردفت قائلاً: «وستغلي لنا كأساً من البانش، مشروبك الخاص، يا سيد ميكاوبر، وتنسى ما يدور في رأسك من أفكار».

وقال ترادلس بحكمة «سيد ميكاوبر، إذا كنت سترتاح أكثر بإفضائك بعض الأسرار إلى الأصدقاء، فيجب أن تطلعنا عليها».

فأجاب السيد ميكاوبر «تصرفا معي كما تشاءان، أيها السيدان، فإني ككومة من القش فوق سطح الهاوية، والفيلة تتقاذفني الآن في كل الاتجاهات، عفواً، كان يجب أن أقول إن المبادئ هي التي تتقاذفني في كل الاتجاهات!»(*).

وعدنا نمشي من جديد، ويد كل منا بيد الآخر، وألفينا العربة على وشك الانطلاق، فركبناها ووصلنا هاي غيت دون أن تواجهنا أية صعوبات في الطريق. وكنت قلقاً ومشوش العقل بشأن ما كان يجب أن أقول أو أفعل حتى يجيء تصرفي مناسباً. ومن الواضح أن ترادلس كان يعاني ما كنت أعانيه تماماً، في وقت كان السيد ميكاوبر غارقاً في حالة كئيبة، وأحياناً كان يقدم على محاولة لتنشيط نفسه، ويدندن

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن الفرق بسيط بين كلمة مبدإ وكلمة فيل في اللغة الإنكليزية، أي: Elephant فيل و Element مبدأ. وكأنما أراد أن يقول Element فأخطأ وقال Elephant.

بنهاية لحن ممل.

اتجهنا إلى منزل عمتي، بدلاً من منزلي، لأن دورا لم تكن في حالة جيدة من الصحة.

كنا جميعنا نشعر بالضغط على صدورنا، وعقولنا، وبالقلق الشديد. وكنت أراقب السيد ميكاوبر بكثير من الشوق في تردّده بين استعداده الواضح للإفصاح عن شيء ما، أو عدم استعداده للإفصاح عنه في الوقت ذاته، بحيث أصبحت في حالة سيئة من الاضطراب التام. أما ترادلس، الجالس على حافة كرسيه، وعيناه مفتوحتان على وسعهما، وشعره منتصب فوق رأسه بشيء من الصلابة غير المعتادة، فقد كان يحدق إلى الأرض تارة وإلى السيد ميكاوبر تارة دون أن يبدو عليه أي جهد لقول أي كلمة. ولكن عمتي، بالرغم من انتباهها العميق المركز على هذا الزائر الجديد، فقد كانت متملكة بفطنتها أكثر مني ومن ترادلس، إذ إنها كانت تتحدث إليه، بشكل متواصل، بحيث أشعرته أن من الضروري عليه أن يفضي بأسراره، قالت له:

«آمل أن تكون السيدة ميكاوبر وأطفالك في تمام الصحة أيها السيد».

فأجاب السيد ميكاوبر «إن كيان عائلتي يقف متأرجحاً، أيتها السيدة، فإن رب عملي...».

وهنا توقف السيد ميكاوبر عن الكلام بعصبية، وشرع يقشر البرتقال الذي كان قد وضع أمامه بناء على طلبي، بالإضافة إلى كل المواد الأخرى التي يحتاج إليها لصنع شراب البانش. وكان يمكن أن أطلب إليه الاستمرار بالكلام لو أني لم أجده منهمكاً بالإجراءات الغريبة لصنع هذا المشروب؛ بحيث إني لاحظت، وهو يقوم بهذه الأعمال، أن ثمة انفجاراً على وشك الحدوث. وما إن انتهى من مزج جميع المواد، حتى هب واقفاً وانتشل منديله من جيبه وهو ينفجر في موجة عارمة من البكاء. ثم قال يخاطبني «إن هذا المشروب، يا عزيزي

كوپرفيلد، من بين جميع المشروبات يحتاج صنعه إلى عقل هادئ! إذ لا يسعني أن أنجزه. هذا أمر مفروغ منه».

قلت له «ما الأمر يا سيد ميكاوبر؟ أرجوك تكلم. إنك بين أصدقاء مخلصين».

هتف السيد ميكاوبر وقد اندفع من فيه كل الذي حاول أن يحتفظ به لنفسه «إنني بين أصدقاء مخلصين يا سيدي. آه أيتها السموات الرحيمة، لأني أجلس بين أصدقاء مخلصين، لذلك أجدني في مثل هذه الحالة العقلية. ما هي القضية أيها الأصدقاء؟ وما الشيء الذي ليس هو القضية؟ السفالة هي القضية. الخسة هي القضية. الخداع والاحتيال والمؤامرة، كل هذه هي القضية. واسم هذه الأشياء القبيحة كلها هو هيپ».

أجفلنا جميعاً وكأن مساً من الجنون قد ألم بنا.

وعاد السيد ميكاوبر يقول وهو يؤشر بمنديله بعنف، ويضرب بيديه بين الحين والآخر، كما لو أنه كان يسبح تحت تأثير المصاعب البشرية التي لا تُحتمل «لقد انتهت مرحلة الكفاح، ولسوف أتوقف عن خوض غمار الحياة بعد الآن. إني مخلوق ضعيف، منقطع عن كل شيء يجعل الحياة مقبولة. لن أتعرف بعد اليوم إلى أي إنسان... ولن أقول أي شيء... ولن أحيا في أي مكان... إلى أن أسحق... يوريا هيپ.... المنافق والمخادع والوغد.... وأحيله إلى ذرات لا يمكن رؤيتها. في نهاية هذا الأسبوع... في وقت الفطور... كل واحد موجود هنا... يجب أن يكون حاضراً في الفندق في كانترباري... حيث سأكون أنا وزوجتي السيدة ميكاوبر.... وسنفضح ذلك المخادع... هيپ».

وعند تكراره لهذه الكلمة السحرية، اندفع السيد ميكاوبر إلى خارج المنزل ونحن في حالة من الهياج، والأمل، والحيرة، بحيث لم نعد أفضل منه حالاً تقريباً. ولكن رغم ذلك، فإنّ لذته في كتابة الرسائل كانت أقوى من أن تقاوم. لأنني، ونحن لا نزال في قمة الهياج والأمل

والحيرة، تسلمت منه الرسالة التالية من نادل حانة قريبة:

سرية جداً.

عزيزي كوپرفيلد

أرجو أن أعبّر، من خلالك، عن اعتذاري وأسفي لعمتك المحترمة، بخصوص هياجي الأخير، وانفجار البركان الذي كنت أكتم حممه في صدري منذ مدة طويلة، كان الأمر نتيجة نزاع داخلي أسهل على الإنسان أن يتصوره من أن يكشفه.

وإني أكرر هنا موعدي لكم في نهاية هذا الأسبوع صباحاً، بقاعة الاحتفالات العامة في فندق كانترباري، حيث سيكون لنا الشرف أنا والسيدة ميكاوبر بأن نضم صوتينا إلى أصواتكم.

المخلص

ويلكنز ميكاوبر

*

والآن، كان قد مرَّ على لقائنا بمارتا، عند حافة النهر، عدة أشهر، ولم أكن قد رأيتها منذ ذلك الوقت؛ إلاّ أنها كانت قد اتصلت بالسيد پيغوتي في عدة مناسبات. ولم يكن صبر السيد پيغوتي لينفد أبداً.

كان طوال حياته رجلاً يقوم بالأعمال الصعبة والمستحيلة. وكان بعد سماعه رواية الآنسة دارتل، التي نقلتها إليه بنفسي، قصد إلى نابلز ثم عاد، قاطعاً بذلك حوالى ستين أو ثمانين ميلاً في البحر. وطوال هذه المدة التي ظل يطوف بها بحثاً عن إميلي، لم أسمعه قط يقول إنه تعب، أو إنه خائر العزيمة.

وفي أحد الأصائل كنت أتنزه في الحديقة بمفردي، وكان للحديقة حول منزلنا سور أخضر من العريش والعوسج، ومن حيث كنت أسير في الحديقة، كان في وسعي أن أرى من خلال هذا السور الطريق التي تمتد أمام منزلنا. وحدث أن كنت أوجّه نظري إلى تلك الطريق وأنا

غارق بالتفكير في أشياء كثيرة، حين رأيت طيف فتاة تسير هناك وهي ترتدي ثوباً رثاً، وكان هذا الطيف ينحني إلى جهتي ويومئ إليّ.

فهتفت وأنا أتجه نحو هذا الطيف «مارتا!».

قالت لي بهمس «هل في وسعك أن تأتي معي؟ لقد قصدت إليه ولم أجده في المنزل؛ فكتبت ورقة ووضعتها على طاولته، بعد أن قيل لي إنه لن يطيل غيبته. فهل في وسعك أن تأتي في الحال؟».

أجبت بأن عبرت البوابة على الفور، وأوقفت عربة خالية كانت تمر بنا، وصعدنا إليها. وعندما سألتها عن المكان الذي على الحوذي أن يقصده أجابت «أي مكان قرب ميدان غولدن! وبسرعة!».

ثم إنها جلست في إحدى الزوايا، شبه متكوّرة، وقد وضعت يداً مرتعشة على وجهها. وإذ لاحظت رغبتها القوية في أن تظل صامتة، وشعرت بأن هذا هو ميلي الطبيعي أيضاً، في مثل هذا الوقت، فإنني لم أحاول أن أخرق هذا الجدار من الصمت.

ولم نلبث أن ترجلنا عند أحد مداخل الساحة، فوضعت يدها على ذراعي وقادتني مسرعة إلى أحد الشوارع الفقيرة، حيث أدخلتني إلى إحدى تلك العمارات المتلاصقة، وأومأت إليّ أن أتبعها فوق أحد السلالم المشتركة بعد أن تركت ذراعي.

كانت العمارة تعج بالنزلاء، وفيما كنا نصعد السلم، فُتحت جميع النوافذ وأطلت منها الرؤوس. وقد عبرنا بعض الأشخاص في أثناء صعودنا، وهم يهبطون. وكانت العفونة والرطوبة وعوامل الزمن قد أفسدت أرضية العمارة، بحيث لم تكن في بعض الأماكن سالمة أو مأمونة. وكانت بعض النوافذ الخلفية عبر السلم مقفلة تماماً، وقلما كان يوجد أي زجاج في تلك النوافذ السليمة المتبقية. وعبر إطارات النوافذ المحطمة تلك، التي كان يبدو أن الهواء الفاسد يدخل من خلالها إلى الغرف دون أن يخرج، وعبر نوافذ أخرى لا زجاج لها،

كنت أرى بيوتاً مماثلة، وفي الوضع ذاته، ونظرت من أعلى إلى الفناء في الأسفل، وأنا شبه دائخ، فكان عبارة عن أكداس من قذارة العمارة.

وإذ استدرنا لنرتقي درجات الردهة الأخيرة المؤدية إلى السطح، رأينا سيدة تقف عند الباب، ثم تدفعه وتدلف إلى الداخل؛ فهتفت مارتا فيما يشبه الهمس: «مَن هذه! لقد دخلت غرفتي وأنا لا أعرفها!».

«عرفتها، إنها هي الآنسة دارتل نفسها» قلت ذلك بشيء من الدهشة والحيرة. «إنها سيدة سبق لي ورأيتها». واقتادتني مارتا برفق، وعلى وجهها نظرة حائرة، إلى نهاية السلم، ثم إلى غرفة السطح الصغيرة الخالية، ذات السقف المنحدر المنخفض، والتي كانت أفضل قليلاً من خزانة. ولكن بين غرفة السطح هذه وبين غرفتها كان ثمة باب منفرج قليلاً؛ حيث توقفنا مقطوعي الأنفاس من جراء الصعود، وسرعان ما وضعت مارتا كفها على وجهي، فلم أستطع رؤية الآنسة دارتل أو تلك التي كانت تتكلم إليها.

وسمعنا روزا دارتل تقول بكبرياء «لا يهمني كثيراً عدم وجودها هي في المنزل، فأنا لا أعرفها؛ وإنما أنت التي جئت لأراها!».

فأجاب صوت ناعم «أنا؟!».

عند سماعي الصوت أحسست بقشعريرة تسري في أنحاء جسمي، لأنه كان صوت إميلي!

وأجابت الآنسة دارتل «أجل! لقد جئت لأراك أنت. ماذا؟ ألستِ خجلى من كل الذي ارتكبته؟

وكأنَّ الحقد القوي، الكامن في صوتها، وحدته الجافة الباردة ولهجته الغاضبة، جسّمتها أمامي، وكأني أراها بوضوح تام.

وسمعتها تقول «لقد جئت لأرى نزوة جيمس ستيرفورث، الفتاة التي هربت معه، والتي هي حديث البلد بين الناس الوضيعين من أبناء قريتها. جئت لأرى كيف تبدو هذه الفتاة!».

وكانت ثمة جلبة، كما لو أن الفتاة التعيسة، التي كانت تنصب عليها نيران الآنسة دارتل المليئة بالتعنيف والتوبيخ، قد هرعت نحو الباب، وكما لو أن المتكلمة قد حشرت نفسها بينها وبينه بمنتهى الرشاقة، ثم قالت:

«ابقي هناك، وإلاّ نشرت خبرك في العمارة كلها، وفي الشارع كله!».

وجلست الآنسة دارتل على أحد المقاعد، وكانت تبدو من خلال الباب، وراحت تنظر إلى أسفل، كما لو أن إميلي كانت تجلس القرفصاء على الأرض أمامها؛ واستطعت أن أرى شفتها ذات الندب، وعينيها القاسيتين المركزتين بتصميم قوي على مكان واحد، بشيء من الانتصار، وعادت تقول «أصغي إلى ما سأقوله، وكفّي عن حيلك المكشوفة، هل تأملين أن تؤثري فيّ بدموعك هذه؟ هل تعرفين ما قد فعلتِ؟ هل سبق لكِ وفكرت بالمنزل الذي جلبت إليه الخراب؟».

صاحت إميلي «هل مضى عليّ يوم أو ليلة دون أن أفكر به؟ وهل مضت ثمة لحظة واحدة سواء أكنت صاحية فيها أم نائمة، لم يكن فيها مجسماً أمامي مثلما ألفته دائماً في الأيام الخوالي، عندما أدرت له ظهري للأبد وللأبد!».

كانت روزا دارتل تجلس محدّقة إليها بجمود كأنه جمود النحاس. قالت:

«يا لخيلاء ديدان الأرض البائسة! منزلك! هل تتصورين أني قد وجهت أي تفكير من ناحيتي إليه؟ أوتظنين أنه في وسعك أن تسببي أي ضرر لذلك المنزل؟ منزلك! هه! إني أتكلم عن منزله هو، حيث أعيش أنا». واستمرت تقول وهي تمد يدها، وتظلل وجهها ضحكة ازدراء، وتحدق إلى الفتاة المقعية أمامها «لقد سببت الفرقة بين أم سيدة، وفتى طيب، وجلبت الحزن إلى منزل لا تصلحين أن تكوني فيه خادمة مطبخ».

«إذا كنت تعيشين في منزله، وتعرفينه جيداً، فربما أنت تعرفين ما قد يكون مقدار قوته وسلطته بالنسبة إلى فتاة ضعيفة وعاجزة مثلي. أنا لا

أدافع عن نفسي، ولكني أعرف تماماً، وهو يعرف تماماً، أنه قد استعمل كل قوته وسلطانه كيما يخدعني، وأني صدقته، ووثقت به، وأحببته!».

وهبت روزا دارتل من على مقعدها، ورفستها بقدمها، ووجهها ينفث الغضب والخبث، بحيث بدا أسود متغيّر الشكل؛ فرميت بنفسي بينهما على عجل.

وهتفت، وقبضتها المكوَّرة ترتعش، كما لو أنها كانت تريد سلاحاً تطعن به الشيء الذي هو مبعث غضبها «أنت تحبينه؟ أنت؟» وذلك لشعورها بالغيرة، إذ إنها كانت تشعر بالميل نحو جيمس ستيرفورث.

وإذ رأتني إميلي، لم تحِر جواباً، وأضافت روزا دارتل «أتطلعينني على ذلك، بشفتيك المخجلتين؟ لِمَ لا تُضرب مثل هذه المخلوقات؟ من الأفضل لك أن تقصدي إلى منزلك بأقصى سرعة ممكنة، وتخبئي رأسك بين أولئك الناس الطيبين، الذين يتوقعون مجيئك، والذين سيشعرون بالعزاء لك. وإذا انتهى كل شيء، ففي وسعك أن تصدقي وتثقي وتحبي من جديد». ورددت «خبئي نفسك، إن لم يكن ذلك في المنزل، فليكن في أي مكان آخر. وليكن في مكان لا يصل إليه أحد. ليكن في حياة غامضة.. أو من الأفضل أيضاً... في ميتة غامضة. وإن ظللتِ هنا حتى الغد فلسوف أذيع قصتك وأعرّف بشخصيتك على سلم البناية المشترك. وقد قيل لي إن ثمة نساء شريفات في هذه العمارة، وسيكون من المؤسف والمحزن حقاً أن تكوني أنتِ الضئيلة التافهة بينهن وتخفي نفسك!».

وسمعتُ وقع خطوات فوق السلم. وقد عرفتها للتو، بل كنت متأكداً منها! لقد كان هو! شكراً لك يا رب!

وأضافت روزا ببطء، وبحدة، وهي تفتح باباً آخر لتخرج منه «ولكن احذري، إني عاقدة النية لعدة أسباب لدي، وبدافع من مشاعر الحقد التي تجتاحني، على أن أطرحك خارجاً إن استطعت أن أمسك بك! هذا ما عليّ أن أقوله، وما أقوله أصمم على تنفيذه!».

واقتربت الخطوات أكثر فأكثر...

«خالي!».

وتبعت هذه الكلمة صرخة رعب. وتوقفتُ للحظة، ثم رأيته، وأنا أحدق إلى الداخل، يسند جسمها المغمى عليه بكلتا يديه. وراح يحدق إلى وجهها لبضع ثوان، ثم جلس القرفصاء ليقبّله.

قال لي بصوت متهدج خفيض «إني أشكر أبانا السماوي يا سيد دايفي، لأن حلمي قد أصبح حقيقة! أشكره لأنه أرشدني إلى عزيزتي بطرقه الخاصة!».

ومع هذه الكلمات رفع ابنة شقيقته بين يديه، وهبط بها السلم وهي دون وعي ولا حراك.

*

كان لا يزال الوقت مبكراً، في صباح اليوم التالي، عندما قيل لي، وأنا أمشي في الحديقة مع عمتي، التي كانت تتريّض قليلاً، لملازمتها وخدمتها الطويلتين لعزيزتي دورا، بأن السيد بيغوتي يود محادثتي.

وعندما دخل وحيّانا ابتدرته بالقول «هل صممت تصميماً نهائياً بالنسبة إلى المستقبل، يا صديقي العزيز؟ إذ أجدني في حاجة إلى أن أطرح عليك مثل هذا السؤال».

أجاب «نهائياً يا سيد دايفي! وقد أخبرت إميلي به. فثمة بلاد كثيرة بعيدة من هنا! وحياتنا في المستقبل تنبسط فوق البحر!».

فقلت لعمتي «إنهما يودان أن يهاجرا معاً، يا عمتاه!».

وقال السيد بيغوتي بابتسامة كلها أمل «أجل! ليس في وسع أي مخلوق أن يعيّر عزيزتي في أستراليا. سنبدأ حياة جديدة هناك!».

وسألته عما إذا كان قد عيّن وقتاً للسفر فأجاب «لقد قصدت إلى المرفإ في ساعة مبكرة من هذا الصباح يا سيدي، كيما أستعلم عن مواعيد إبحار السفن التي ستقلع بعد ستة أسابيع أو شهرين. وقد

شاهدت تلك السفينة هذا الصباح، وصعدت إليها، ولسوف نحجز لنا مكانين فيها. على أني لم أكن متأكداً، عندما خرجت هذا الصباح من المنزل، ما إذا كان في وسعي أن أمضي لأخبر هام بما حدث. وهكذا، فقد كتبت إليه رسالة، بعد خروجي، ووضعتها في مكتب البريد، أخبره فيها بكل ما حدث، بأني سأقصد إلى البلدة غداً كيما أفرغ رأسي من بعض الأعمال التي علي أن أقوم بها، وخصوصاً كيما أودع يارماوث الوداع الأخير».

قلت له وقد لاحظت أنه لم يفه بكل شيء «وهل تود مني أن آتي معك؟».

أجاب «إذا ما استطعت أن تقدم إلي مثل هذا المعروف فافعل، إذ إني أعرف أن رؤيتك ستفرحهم قليلاً».

ونزولاً عند رغبته كنا في صباح اليوم التالي نعبر الأرض القديمة من جديد على متن مركبة يارماوث. وفيما كنت أعبر الشارع المألوف ليلاً، أرسلت نظري إلى داخل مؤسسة «أومر وجورام» فرأيت صديقي القديم السيد أومر جالساً يدخن بغليونه. فقلت له وقد دخلت مكتبه «كيف حال السيد أومر بعد هذا الوقت الطويل؟».

أشاح بيديه الدخان الذي كان يتكاثف أمام عينيه من غليونه، ليتمكن من رؤيتي بشكل أوضح؛ وسرعان ما عرفني فكان فرحاً للغاية، وهتف: «يجب أن أنهض يا سيدي كيما أحتفل بشرف زيارتك لنا. إن قدميّ فقط هما العاجزتان. وأنا أسير على مقعد مدولب. ويسعدني أن أقول إني، باستثناء قدميّ، لا أزال ودوداً كما في وسع أي رجل أن يكون. ويمكنني أن أؤكد لك أني، وأنا على هذا المقعد، أرى من العالم أكثر مما كنت أرى منه وأنا على رجلي! ستدهش لو ذكرت لك عدد الأشخاص الذين يدخلون في النهار ليتحدثوا إليّ».

وقصّ علي السيد أومر كيف أن شغفه بالقراءة قد تضاعف؛ وعبّر لي عن استحسانه لكتابي. ثم أردف «صدقني، يا سيدي، أني أشعر بالفخر كلما وضعت كتابك على الطاولة وفكرت أنه كان لي الشرف بمعرفة والديك. يا

سلام! لقد مضى وقت طويل حتى الآن أليس كذلك؟ هناك في بلندرستون وقد وضع طرف صغير جميل إلى جانب الطرف الآخر! وكنت أنت لا تزال طرفاً صغيراً في ذلك الوقت. آه يا عزيزي، يا عزيزي!».

وغيّرت مجرى الحديث بالإشارة إلى إميلي؛ وقدمت إليه شرحاً كاملاً عن عودتها إلى عمها بمساعدة مارتا، وكنت على ثقة أن هذا سيسر الرجل المسنّ. فاستمع إليّ بإصغاء كلي؛ وقال بتأثُّر عندما انتهيت «إني جد مبتهج لهذه القصة، يا سيدي! إنه أفضل خبر سمعته اليوم. آه يا عزيزي، يا عزيزي، يا عزيزي! ولكن ماذا سيجري الآن بشأن تلك الفتاة التعيسة مارتا؟ لأني، كما تعرف، أود أن يكون لي يد في كل ما يجري بشأنها، إذ لا يسعني أن أفكر بأن الفتاة سيئة كلياً، وإني سعيد لأنها ليست سيئة حقاً! فهل ستتكرم وتطلعني على كل ما تحسبه نافعاً لي؟ ضع لي خطاً أسير عليه. والطريقة التي أنظر بها إلى الحياة هي أننا جميعاً نسير هابطين إلى أسفل الهضبة، مهما كانت أعمارنا، بسبب الوقت الذي لا يتوقف للحظة واحدة. ولذلك فلنعمل الحسنات دائماً، ولنبتهج بها!».

وبعد جولة قصيرة في البلدة، قصدت منزل هام؛ وبعد أن قابلته، وسرّ برؤيتي، رحنا نتكلم بشيء من الفرح عن السيد بيغوتي الذي سيصبح غنياً في بلد جديد، وعن العجائب التي سيكتب لنا عنها في رسائله. ولم نأتِ على ذكر اسم إميلي قط، إلاَّ أننا أشرنا إليها أكثر من مرة، ولكن باختصار وقد كان هام أكثر صفاءً من جميع الذين قابلتهم في تلك الليلة.

على أن بيغوتي أخبرتني، عندما قادتني إلى غرفة صغيرة، حيث كان كتاب التماسيح يرقد بانتظاري، بأن هام كان يبدو هكذا دائماً. وقالت لي وهي تبكي إنها تعتقد أنه محطم القلب. ومع هذا فإنه مفعم بالشجاعة، بقدر ما هو مفعم باللطف والرقة، وهو يعمل بكد أكثر، وبطريقة أفضل من أي صانع سفن في أي مكان في المنطقة كلها.

وقصت علي أيضاً أنه في بعض الأمسيات كان يجلس ويتكلم عن حياتهم القديمة في المركب ـ المنزل. وكان من ثَمَّ يأتي على ذكر إميلي وهي طفلة، ولكنه لم يأت قط على ذكرها وهي فتاة راشدة.

وقد خيّل إليّ أني قرأت على وجهه أنه كان يود أن يتكلم معي على انفراد، فتوجهت إلى موضع عند الشاطئ كنت أعرف أنه سيمر به؛ وبدأت أتجول معه بحيث أفسح له في المجال ليتمكن من الحديث إذا ما كان يبغي ذلك حقاً. ولم أكن مخطئاً بخصوص التعبير الذي كسا وجهه. وكنا قد سرنا مسافة قصيرة معاً، عندما قال لي دون أن ينظر إليّ:

«هل تظن أنك ستقابلها، يا سيد دايفي؟».

قلت «ربما كان وقع هذا اللقاء مؤلماً للغاية بالنسبة إليها!».

وعاد يقول «لقد فكرت بذلك! هذا ما سيكون يا سيدي! هذا ما سيكون!».

فقلت بلطف «ولكن، إذا كان ثمة أمر يخصك يا هام، بإمكاني أن أكتب إليها عنه، في حال أني لا أستطيع أن أقوله...».

وسرنا مسافة أخرى صامتيْن ثم ابتدرني قائلاً «إني أسامحها، وأرجوها أن تسامحني لأني أزعجتها بمشاعري ومحبتي. وإن كنت تستطيع، يا سيد دايفي، بما أنك مثقف، أن تفكر بأي كلام تقوله لها يجعلها تصدق أني لم أُجرح عميقاً؛ وأني لا أزال أحبها، وأحزن لأجلها... فإني أطلب إليك أن تقوم بهذا العمل... بالإضافة إلى صلواتي من أجلها، لأنها كانت عزيزة للغاية!».

فشددت على يده، وأخبرته أني سأقوم بهذا العمل بأفضل طريقة أستطيعها، فقال «إني شاكر لك صنيعك يا سيدي! كان لطفاً منك أن تأتي لمقابلتي، كما كان لطفاً منك أن تأتي مع السيد بيغوتي إلى هنا، لتبقى في صحبته! وعندما تراه للمرة الأخيرة... هل تتكرم وتنقل إليه شكر اليتيم الذي كان له دائماً أكثر من والد؟».

ووعدته مخلصاً أن أقوم بهذا أيضاً.

14

انطلقنا أنا والسيد ديك وعمتي وترادلس إلى كانترباري في عربة دوڤر، وهناك وجدت في النزل، حيث طلب إلينا السيد ميكاوبر أن ننتظره، رسالة منه تشير إلى أنه سيجيء في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً. وعندما جلسنا نتناول طعام الفطور كنا جميعاً قلقين ونافدي الصبر، وكلما كان الوقت يقترب كلما كان قلقنا يزداد لتوقع مجيء السيد ميكاوبر.

وأخيراً لم يعد يبدو علينا أننا نتظاهر بانشغالنا بوجبة الطعام، التي لولا السيد ديك لكانت مجرد صورة مأدبة منذ البداية. ولكن عمتي بدأت تذرع القاعة جيئة وذهاباً، بينما جلس ترادلس على الكرسي متظاهراً بأنه يقرأ في إحدى الصحف وعيناه مثبتتان في السقف؛ ورحت أنا أحدق إلى خارج النافذة كيما أعلن مجيء السيد ميكاوبر حال ظهوره. على أنه لم تطل بي المراقبة، لأنه سرعان ما ظهر في الشارع عند أول لحظة من منتصف الساعة.

هتفت «ها هو قادم؛ ولكنه لا يرتدي زيه القانوني!».

وحالما دخل السيد ميكاوبر قال «صباح الخير أيها السادة، وأيتها السيدة. أعتقد أنك ستعذرني، يا سيد ترادلس، حين أذكر هنا أننا قد كنا على اتصال؟».

فقال ترادلس الذي نظرت إليه بتعجُّب: «لا شك في أنها الحقيقة يا كوپرفيلد. لقد استشارني السيد ميكاوبر بشأن ما كان يفكر فيه، وقد قدمت إليه نصيحتي بأفضل ما أمكنني!».

وقال السيد ميكاوبر «أرجو أن يُسمح لي بخمس دقائق فقط، ثم تمضون لأستقبلكم في مكتب ويكفيلد وهيپ، الذي أعمل فيه، بينما أنتم تسألون عن الآنسة ويكفيلد».

ونظرت أنا وعمتي إلى ترادلس الذي هز رأسه علامة الموافقة.

وعقّب السيد ميكاوبر «ليس لدي شيء آخر لأقوله، في الوقت الحاضر».

بهذه الكلمات، وكانت دهشتي كبيرة حينها، انتهى السيد ميكاوبر بأن انحنى أمامنا جميعاً انحناءة احترام وإجلال، ثم اختفى عن الأنظار؛ بحيث كانت طريقته غامضة، ووجهه شاحباً للغاية. وعندما حان الوقت، أمسك ترادلس يد عمتي، وسرنا جميعنا إلى المنزل القديم دون أن يتفوه أحدنا بكلمة واحدة طوال الطريق.

وجدنا السيد ميكاوبر يجلس إلى طاولته في المكتب، في الطابق الأرضي، يكتب أو يتظاهر بانهماكه في الكتابة بجهد. وقد كانت المسطرة بارزة من صداره، إذ لم تكن مخفية بطريقة كافية، وإنما كانت تظهر بمقدار قدم واحدة خارج صداره، وكأنها نوع جديد من كشاكش القمصان. وحين سار بنا إلى غرفة الطعام... الغرفة الأولى التي كنت قد دخلت إليها في هذا المنزل... قال بصوت جهير وهو يفتح باب مكتب السيد ويكفيلد:

«الآنسة تروتوود، السيد دايڤد كوپرفيلد، السيد توماس ترادلس، والسيد ديك».

أدهشت زيارتنا غير المتوقعة هذه يوريا بشكل واضح، إذ إنه لم يعقد حاجبيه، لأن لم يكن له من الحاجبين شيء يذكر، ولكنه تجهّم إلى درجة أنه توصل إلى إغلاق عينيه الصغيرتين تقريباً؛ فيما كانت يده المغضرفة، والمرتفعة إلى ذقنه، تنم عن ارتعاشة أو ارتجاف. كل هذا حدث عندما كنا لا نزال ندخل الغرفة، وقد ألقيت عليه نظرة من وراء كتف عمتي، وبعد ذلك بلحظة عاد يبدي تملقه وتواضعه. كعادته دائماً.

رحب بنا، وبي بشكل خاص، وشعر بالخجل حين مددت له يدي، إلاّ أني لم أكن أعرف ماذا أفعل غير ذلك في مثل هذا الموقف.

قال يوريا بابتسامة جد مصطنعة «لقد تبدلت الأمور في هذا المكتب يا آنسة تروتوود، منذ أن كنت كاتباً متواضعاً، ويوم أمسكت لك بعنان الجواد، أليس كذلك؟ ولكني شخصياً لم أتغير، يا آنسة تروتوود!».

فأجابت عمتي «حسناً، فلأقل لك الحقيقة، أعتقد أنك جد وفيّ لوعدك حين كنت فتى. هذا إذا كان في قولي ما يرضيك».

فقال يوريا وهو يهز جسمه وأطرافه على طريقته السمجة «شكراً لك، يا آنسة تروتوود، على رأيك الحسن فيَّ.. قل لهم يا ميكاوبر أن يعلموا الآنسة آغنيس... وأمي» وعاد يقول وهو يقدم لنا المقاعد «إن أمي ستكون سعيدة عندما ترى الأصدقاء الحاضرين. وأظن، يا سيد ترادلس، أنك لم تُعرَّف بالسيد ويكفيلد رسمياً، أليس كذلك؟ أعتقد أني أنا شخصياً لم يحصل لي الشرف برؤيتك سوى مرة واحدة؟».

فأجاب ترادلس «أجل، لم أعرّف بالسيد ويكفيلد رسمياً، وإلاّ لربما كنت أقوم على خدمتك منذ وقت طويل، يا سيد هيپ».

كان ثمة شيء مستغرب في هذه الإجابة، بحيث جعلت يوريا ينظر إلى ترادلس مرة ثانية، بطابع شرير مريب، ولكنه حين رأى ترادلس بوجهه البشوش، البسيط، الذي طرّ شعر لحيته، طرد هذا الطابع فيما كان يجيب بهزة من جسمه كله، وبشكل خاص رأسه:

«إني آسف لأنك لم تعرفه، يا سيد ترادلس، لكنت أحببته كثيراً، بقدر ما نحبه نحن، ولكانت مثالبه البسيطة قد حببته إليك أكثر. ولكن إذا أحببت أن تسمع مَنْ يتكلم عن شريكي ببلاغة، فإني أحيلك إلى كوپرفيلد، فإن المسائل العائلية موضوع يتقنه ويبرع في تفاصيله كثيراً إذا لم يسبق لك أن سمعته».

منعني عن تنصلي من هذا المديح دخول آغنيس يصحبها السيد ميكاوبر. وقد رأيت يوريا يراقبها فيما كانت تحيينا وترحّب بنا. وقد ذكرني آنذاك بجنيّ قبيح متمرد وهو يراقب روحاً طيبة. وفي هذه

الأثناء، تبودلت بين السيد ميكاوبر وترادلس بعض الإشارات الخفية، خرج ترادلس على إثرها دون أن يلاحظه أحد سواي.

قال يوريا «لا تنتظر هنا، يا ميكاوبر».

وقف السيد ميكاوبر منتصباً أمام الباب ويده فوق المسطرة التي في صداره، وهو يتأمل يوريا هيپ.

وعاد يوريا يقول «ماذا تنتظر؟ يا ميكاوبر! هل سمعتني أقول لك لا تنتظر هنا؟».

وأجاب السيد ميكاوبر الجامد في وقفته «أجل» فقال يوريا «إذاً، لِمَ تنتظر؟».

فهتف السيد ميكاوبر بانفجار «لأني... باختصار... أحاول أن أختار!».

وفقدت وجنتا يوريا لونهما، وحلّ مكانه شحوب ولغوب، وراح يحدق إلى السيد ميكاوبر بتيقظ، وهو يتنفس تنفساً قصيراً. ثم قال له وهو يحاول أن يبتسم بجهد:

«إنك رجل سافل، كما يعرف العالم كله! وإني أخشى أن ترغمني على التخلص منك. امضِ من هنا! سأتكلم إليك في الحال!».

وعاد السيد ميكاوبر يقول وهو ينفجر بحماسة مطلقة «إذا كان ثمة سافل فوق هذه الأرض، وقد تكلمت أنا معه كثيراً، فإنّ اسم هذا السافل هيپ!».

تراجع هيپ إلى الوراء، وكأنه ضُرب أو لُسع، وقال بصوت خفيض وهو يحدق إلينا بذعر وعلى وجهه علامات الخبث والمكر:

«أوه! إن هذه مؤامرة! لقد التقيتم هنا بعد اتفاق فيما بينكم! والآن انتبهوا! لن تحصلوا على نتيجة من موقفكم هذا. إنكم جماعة خسيسة من الناس، ألستم كذلك؟ تشترون موظفي الذي هو من حثالة المجتمع - كما كنت أنت نفسك يا كوپرفيلد، قبل أن تستفيد من إحسان شخص إليك، كما تعلم - لكي تتهموني كذباً؟ إذا كنت تكنين أي حب لوالدك، يا آنسة ويكفيلد، فمن الأفضل لك ألاّ تنضمي إلى هذه العصابة، وإلاّ

فسوف أحطمه إذا ما فعلتِ. والآن كفى! في وسعي أن أسحقكم. فكروا جيداً قبل أن تقع عاقبة مؤامرتكم على رؤوسكم! وأنت يا ميكاوبر، فكر جيداً إذا لم تكن تود أن تسحق أيضاً. ولكن أين أمي؟» هتف فجأة وقد بدا عليه أنه لاحظ غياب ترادلس فيما كان يشد حبل الجرس «إنها إجراءات رائعة في منزلي الخاص!».

صاح السيد ترادلس قائلاً، وهو يعود مع تلك الأم الفاضلة «إن السيدة هيپ موجودة هنا، يا سيدي! لقد أعطيت لنفسي حق التعرف إليها».

قال يوريا «مَن تكون أنت حتى تسمح لنفسك بالتعرّف إليها؟ وماذا تريد من وجودك هنا؟».

فقال ترادلس بطريقة جدّية «إني صديق السيد ويكفيلد ووكيله، يا سيدي! وإن لدي وثيقة التوكيل، وهي في جيبي، تخولني حق الخوض في جميع أعماله وقضاياه!».

فقال يوريا وقد ازداد وجهه قبحاً «لقد بدأ الحمار المسن يخرّف! لقد أُخذت منه بطريقة احتيالية!».

فأجاب ترادلس بهدوء، ورباطة جأش «بل لقد أُخذت منه بعض الأشياء بطريقة احتيالية؛ أنا أعرف هذا، وأنت تعرفه كذلك يا سيد هيپ. وسنحيل هذا الأمر إلى السيد ميكاوبر، بعد إذنك!».

وهتفت السيدة هيپ بإشارة قلقة «يوريا...».

قال «أنتِ أمسكي لسانك يا أمي! كلما قل الكلام كلما سهل إصلاح الأمر بطريقة أسرع!».

«ولكن يا ولدي يوري...».

«هل ستمسكين لسانك، يا أماه، وتتركين الأمر لي؟».

ومع أني كنت، منذ أمد طويل، أدرك أن تواضعه كان زائفاً، ومظهره ماكراً وباطلاً، لم يكن لدي أية فكرة عن مدى ريائه حتى الساعة، وقد رأيته الآن دون أي قناع. أما الحركة الفجائية التي أشاح بها هذا

القناع، عندما أدرك عدم نفعه، والخبث والكراهية وسلاطة اللسان التي أفصح عنها، والنظرة الخبيثة التي ابتهج بها، حتى في هذه اللحظة، وبالسوء الذي قام به، كل هذه أدهشتني في البدء، أنا الذي أعرفه منذ أمد بعيد، وكنت أكرهه من صميم قلبي.

واندفع السيد ميكاوبر، الذي كنت قد كبحت جماح غضبه وقتاً طويلاً بكثير من الصعوبة، والذي كان قد قوطع عن إتمام كلامه مرات متتالية منذ أن تلفظ بكلمة... السافل... إلى الأمام دون أن يعقب عليها، وقد انتشل المسطرة من صداره، وكأنها سلاح دفاعي، وأخرج من جيبه إحدى الوثائق المطوية على ذاتها وكأنها رسالة مطولة. وفيما كان يفتح هذه الوثيقة بتبجّحه القديم، وينظر إلى مضمونها، وكأنه يظهر إعجاباً فنياً بصياغتها، شرع يقرأ ما يلي:

«عزيزتي الآنسة تروتوود، أعزائي السادة... إذ أقف أمامكم الآن لأفضح أحقر سافل وجد على وجه البسيطة حتى الآن!» واستمر السيد ميكاوبر دون أن يرفع نظره عن الوثيقة، وهو يشير بالمسطرة إلى يوريا هيپ وكأنها هراوة طيفية «فإني لا أطلب أي تعويض لنفسي. لقد دخلت، بدافع من الحاجة واليأس والجنون، إلى مكتب المؤسسة التي، اسماً، تدار بإشراف ويكفيلد... وهيپ، وإنما بالفعل تُدار بإشراف... يوريا فقط. هيپ، وهيپ وحده هو لولب هذه المؤسسة الأساسي. هيپ، وهيپ هو وحده الغشاش والزائف».

انتفض يوريا، وقد غدا لونه بفعل هذه الكلمات أزرق مكفهرًا، وأسرع نحو الوثيقة كيما يتمكن من اختطافها وتمزيقها، إلاّ أن السيد ميكاوبر أمسك بالمسطرة بشيء من المهارة، أو الحظ، وضربه على يده اليمنى فأبعدها، وقد جاءت الضربة على المفصل فبدا وكأنه قد كسر؛ وأما الصوت الذي نتج عن تلك الضربة، فكان أشبه ما يكون بالصوت الذي ينتج عن وقوع الضربة فوق الخشب.

وهتف يوريا وهو يهز أطرافه بطريقة عجيبة يصحبها الألم:

«ليأخذك الشيطان! وسأكون معك كذلك!».

فقال السيد ميكاوبر وهو يلهث «اقترب مني مرة أخرى أنت.... أنت... أنت هيپ الفاسق، وإن كان رأسك رأس إنسان فإنني سأحطمه. هيا.. هيا..!».

وأعتقد أني لم أر أي مشهد يبعث على السخرية أكثر من مشهد السيد ميكاوبر وهو يصرخ فيما يشهر المسطرة وكأنه يتخذ منها سيفاً «هيا... هيا...» وقد كنت أنا وترادلس نحاول أن ندفع به إلى إحدى الزوايا، من حيث أصر على الخروج منها حالما تركناه هناك.

ثم عاد فتقدَّم عندما هدأ بشكل كاف، وراح يتابع قراءة الوثيقة: «وعندما دخلت في خدمة هيپ، لم يحدّد لي أي راتب ما عدا المبلغ الصغير الذي كان يدفعه لي في الأسبوع وهو ٢٢ شلناً و٦ بنسات، وأما المبلغ المتبقي فقد كان يتوقف على قيمة عملي. وسرعان ما أصبح من الضروري أن أستدين من هيپ ـ هذه الضرورة التي كان قد ذكرها هيپ مقدماً ـ ولدى كل مبلغ كنت أستدينه منه كنت أعطيه إيصالاً أعترف به بما له عليَّ من دين. وهكذا فقد وقعت في الأحبولة التي كان قد حاكها لي».

«ثم بدأ هيپ يطلب مني، بقدر ما كان ذلك ضرورياً، أن أنفذ له عمله غير الشريف. ووجدت أني غالباً ما أُستدعى للقيام بأشياء من أجل التزوير في العمل وتضليل شخص، سأدعوه الآن بالسيد «و». كل هذا والوغد... هيپ... لا يزال يتظاهر بأنه صديق حميم لذلك الرجل المخدوع. إن هذا جد سيئ، ولكن الأسوأ كان لا يزال يكمن وراء هذا كله».

وتوقف لحظة ثم استطرد «لم يكن هدفي أن أعرض قائمة بالأخطاء التي ارتُكبت بحق السيد «و»، وانما غرضي هو أن أستغل الفرصة المناسبة كي أكشف وأظهر التصرفات الخاطئة، المرعبة، التي ارتكبها هيپ. وبناء على ذلك سجلت تجربة صعبة لبحث دام حوالى اثني عشر شهراً!».

وتوقف للحظة أخرى، ثم استطرد وهو يحدق إلى هيپ:

«إن الاتهامات التي أوجهها ضد... هيپ... هي ما يلي: أولاً، عندما ضعفت ذاكرة السيد «و»، من ناحية العمل، شرع هيپ يعقد له المسائل المالية الرسمية. وعندما أصبح السيد «و» شبه عاجز عن الخوض في العمل كان هو جاهزاً دائماً لإرغامه على الخوض فيه. فكان يجعل السيد «و» يوقّع على أوراق مهمة، في حين يتظاهر بأنها أوراق لا قيمة لها، وقد جعل السيدِ «و» يعتقد أنه قد ارتكب عملاً فيه غش، وقد بدأ يستعمل هذا الاعتقاد منذ ذلك الوقت ليعذبه به».

فهتف يوريا بغضب «يجب أن تثبت ذلك، أنت يا كوپرفيلد».

وقوَّم السيد ميكاوبر ذقنه بحيث حطّت فوق رباط عنقه تماماً، واستأنف القراءة «ثانياً، لقد كان هيپ يزوّر توقيع السيد «و» في مناسبات عدة، على معاملات حسابية ودفاتر وأوراق مختلفة، وقد كان يقوم بكل هذا في حالة واحدة، وذلك بدافع الغريزة، ويمكنني أن أثبت هذه الحالة، ويمكنني أن أقول، نظراً لكون السيد «و» مريضاً، ونظراً لإمكانية زوال سلطان هيپ على عائلة السيد «و»، وذلك بموته الذي قد يؤدي إلى كشف التزوير، إلاّ إذا استخدم حب الفتاة لإيقاف أي كشف عن الأعمال المشتركة التي كانت قائمة بينهما، فإني أقول إن هيپ افترض أنه من الضروري أن تكون لديه رسالة من السيد «و»، تفيد أنه قد استدان من هيپ مبلغاً من المال... كيما يتمكن السيد «و» من تغطية عملية الغش التي ارتكبها، مع أنه في الواقع لم يكن قد استدان مثل هذا المبلغ قط. وتواقيع هذه الرسالة كانت مزورة؛ وقد كان المزور هيپ، وفي حوزتي عدة تواقيع مزيفة لتوقيع السيد «و» وهي مشوهة هنا وهناك بفعل الحرارة، ويمكن لأي إنسان أن يراها جلية واضحة. وهذه الرسالة نفسها موجودة في حوزتي».

وأخرج يوريا هيپ، وقد أجفل، حزمة من المفاتيح من جيبه، ثم فتح أحد الأدراج؛ وفجأة أدرك ما كان يعمله، فتحول إلينا من جديد.

وهتفت أمه «يوري... يوري! كن متواضعاً ووافق!».

فهتف يوريا بنفاد صبر «من الأفضل لك أن تأخذي مسدساً وتطلقي الرصاص علي!».

فقالت السيدة هيپ، ولم يكن عندي شك بصدق كلامها «ولكني أحبك يا يوري! ولا أتحمّل أن أسمعك تعرض نفسك للخطر أكثر من ذلك. آه، انظروا كم أنا متواضعة أيها السادة، ولا تلقوا إليه بالاً!».

وظل يوريا لفترة ينظر فيما حوله سادراً ثم قال «ماذا بقي لديك أكثر من هذا لتقوله ضدي؟ إذا كان ثمة شيء بعد، فهيا قله!».

وعلى الفور استمر السيد ميكاوبر يقرأ:

«ثالثاً، وأخيراً، إني الآن في وضع يمكن أن أُظهر فيه، بفعل دفاتر هيپ الزائفة أن السيد «و» قد خُدع ولا يزال يُخدع، بكل طريقة ممكنة، منذ بضع سنوات، وذلك لمصلحة هيپ المزوّر، وأن غاية هيپ التالية من وراء هذا كله كانت في أن يُخضع السيد والآنسة «و» كلياً لسلطانه، بعد أن فرض نفسه شريكاً منذ بضعة أشهر، وأن هذه المكائد كانت تزداد تدريجاً، بحيث لم يعد السيد «و» التعس ليرى أي عالم بعدها. لقد تعهدت بأن أظهر كل هذا.. وربما أكثر من ذلك بكثير..».

وهمست ببضع كلمات في أُذن آغنيس، التي بدت مسرورة مع شيء من الحزن، فيما كانت تقف إلى جانبي. وقد ندّت عنا إشارة كما لو أن السيد ميكاوبر قد فرغ من القراءة. إلاّ أنه عاد يقول من جديد:

«لقد انتهيت الآن. ولكن عليكم أنتم أن تتثبتوا مما قلته؛ ثم سأتوارى أنا وعائلتي عن الأنظار».

الدائم أبداً

ويلكنز ميكاوبر

وطوى السيد ميكاوبر وثيقته وسلمها إلى عمتي بانحناءة، كما لو

أنها شيء نفيس تود أن تحتفظ به.

وكانت ثمة خزانة حديدية في الغرفة، كما كنت لاحظت أول مرة جئت فيها إلى هذا المنزل، وكان مفتاحها في بابها. وبدا أن شكاً مفاجئاً قد طرأ على يوريا، فمضى إليها، وهو ينظر إلى السيد ميكاوبر، وفتح الباب. لقد كانت فارغة، فهتف بوجه مذعور:

«أين هي الدفاتر؟ إن لصاً قد سرق الدفاتر!».

فضرب السيد ميكاوبر على صدره بيده وقال «أنا فعلت ذلك عندما فتحت المكتب هذا الصباح».

فقال ترادلس «لا تجزع، لقد أصبحت في حوزتي».

فهتف يوريا «إنك تحوز أشياء مسروقة. أليس كذلك؟».

أجاب ترادلس «في مثل هذه الحالات، أجل».

وخلال اللحظات الأخيرة كانت السيدة هيپ ترجو ابنها أن يكون متواضعاً، وكانت تجثو على ركبتيها وتكثر لنا جميعاً الوعود والعهود. فأنهضها ابنها، وقال لي بنظرة شريرة، وهو يمسك ذراعها بيده: «ماذا تود أن تعمل؟».

فأجاب ترادلس «سأقول لك ماذا يجب أن نعمل، سنعمل على الوجه التالي: أولاً، يجب أن تقدم إليّ الآن جميع الأوراق المتبقية... هنا، ثم عليك أن تعيد كل المال الذي أخذته حتى آخر بنس، وجميع دفاتر وأوراق الشركة التي ينبغي أن تبقى في حوزتنا».

فقال يوريا بقسم «لن أفعل هذا!».

فردّ ترادلس «إذاً، سجن مادستون سيكون المكان الأكثر أمناً لك. ومع أن القانون قد ينصفنا أكثر ممّا تنصفنا أنت، أو قد لا ينصفنا بشكل تام كما في وسعك أنت أن تفعل، فليس ثمة من شك في أنه سيُنزل بك القصاص. هل تود، يا كوپرفيلد، أن تمضي وتأتي لنا بشرطيين؟».

فأرغى يوريا وأزبد وهو يهتف بي «اصمت! أماه أخرسي هذه

الجلبة! حسناً، ليأخذوا تلك الأوراق. امضي واجلبيها!».

ولم تعد أمه إلينا بالأوراق فقط، وإنما بالصندوق الذي كان يحويها كذلك، حيث وجدنا فيه «دفتراً صيرفياً» وبعض الأوراق الأخرى، وقد كان لها نفع عميم فيما بعد.

اجتاز يوريا الغرفة بعد ذلك دون أن يرفع نظره عن الأرض، ويده فوق ذقنه، وقال وهو يتوقف عند الباب: «لقد كنت أكرهك دائماً يا كوپرفيلد، وكنت أنت دائماً حقيراً، حديث نعمة، وكنت ضدي طوال الوقت».

أجبت «لقد أخبرتك، مرة، كما أعتقد، أنك أنت ضد العالم كله بشرهك وخبثك، وقد يكون من المفيد لك أن تفكر، في المستقبل، أنه لم يكن حتى الآن ثمة شره وخبث، في العالم، داما طويلاً، وإن ذلك لأمر مؤكد مثل قضية الموت».

بعد خروج يوريا هيپ من الغرفة، تقدّم السيد ميكاوبر مني وطلب أن أمضي لأشاهد استئناف الثقة المتبادلة بينه وبين السيدة ميكاوبر، وذلك بعد أن كان قد دعانا جميعاً إلى التفكير بذلك المشهد المؤثر، الذي سنشاهده، وقال:

«لقد رفع الحجاب الذي لطالما كان بيني وبين السيدة ميكاوبر، وسيصبح في وسع أولادي، وفي وسع علة وجودهم، أن يصبحوا، من جديد، على اتصال وتبادلٍ متساويين».

وبما أننا كنا جميعاً شاكرين فضله، وبما أننا كنا نرغب في أن نظهر له امتناننا، فقد مضينا أنا والسيد ديك وعمتي معه إلى منزله. وكان يجب أن أقول جميعاً، إلاّ أنه كان من الضروري على آغنيس أن تعود إلى أبيها؛ كما كان لا بُدّ من أن يبقى شخص ما مع يوريا ليراقبه، وهكذا فقد بقي ترادلس معه.

لم يكن منزل السيد ميكاوبر ليبعد كثيراً بحيث وصلنا بسرعة، فوجدنا أنفسنا وسط أفراد العائلة. وما إن هتف السيد ميكاوبر «إيما! زوجتي!» حتى اندفع بين ذراعيها، فاحتضنت زوجها، ثم أغمي عليها،

وهي في قمة انفعالاتها، وكان أول شيء علينا أن نقوم به هو أن نعيدها إلى وعيها. ثم تعرّفت إليها عمتي، وبدا أن السيدة ميكاوبر عرفتني للتو.

وقالت هذه السيدة المسكينة وهي تمدّ إليّ يدها «اعذرني يا عزيزي كوپرفيلد، لست قوية البنية، وقد كان هذا الجفاء الذي كان بيني وبين السيد ميكاوبر مؤخراً جد محزن بالنسبة إليّ في البداية».

فقالت عمتي «هل هؤلاء هم أفراد عائلتك.. أيتها السيدة؟».

فأجابت السيدة ميكاوبر «ليس ثمة أكثر منهم في الوقت الحاضر».

فقالت عمتي «لم أقصد هذا أيتها السيدة وإنما قصدت بقولي هل هؤلاء جميعهم أبناؤك؟».

أجابت السيدة ميكاوبر «إنها قائمة صحيحة أيتها السيدة».

وعادت عمتي تقول «وهذا الفتى الشاب، علامَ نشأ؟».

فأجاب السيد ميكاوبر «لقد كان أملي، عندما جئت إلى هنا، أن أُدخل ويلكنز إلى الكنيسة، وقد أُعبّر عن مقصدي بشكل أدق إذا ما قلت في جوقة المرتلين، ولكن لم يكن ثمة مكان شاغر لمرتّل في الفرقة المحترمة التي تبرز بفضلها هذه البلدة. إلا أنه، باختصار، قد ألِفَ الغناء في المجالس العامة أكثر منه في الصروح المقدسة».

فقالت السيدة ميكاوبر بحنان «ولكنه يتجه في حياته اتجاهاً حسناً!».

وفكرت عمتي للحظة قصيرة ثم قالت:

«إني أتساءل، يا سيد ميكاوبر، لِمَ لم تفكر بالهجرة قط!».

فأجاب السيد ميكاوبر «لقد كانت هذه الفكرة حلماً من أحلام شبابي، ومطمح سنيّ نضوجي، وكنت، على فكرة، أود أن أعلن هنا أني مقتنع كلياً بأنّ ابني لم يفكر بهذا الموضوع في حياته قط».

فقالت عمتي وهي تنظر إليّ «حقاً!؟ يا له من عمل جيد بالنسبة إليكما لو هاجرتما في هذه الأيام مع أفراد أسرتكما!».

فهتف السيد ميكاوبر بحزن «رأس المال أيتها السيدة، رأس المال!».

وأكدت زوجته على كلامه «هذا هو الأساس، ويمكنني أن أقول إن مسألة توفّر المال تُعتبر العائق الوحيد، يا سيد كوپرفيلد!».

قالت عمتي «رأس المال! ولكنك أسديت إلينا خدمة جليلة، فماذا في وسعنا أن نفعل من أجلك مما يمكنك من إيجاد ولو نصف رأس المال؟».

قال السيد ميكاوبر وهو مفعم بالحرارة والحياة «لا يسعني أن أقبله كهبة، ولكن إذا تمكنت من أن أستقرض مبلغاً كافياً من المال، ولنفرض بفائدة خمسة في المائة، فهذه فائدة سنوية أستطيع أن أتحملها... ولنفرض أني أعطي بها إيصالات لمدة اثني عشر شهراً، وثمانية عشر شهراً، وأربعة وعشرين شهراً، وذلك بالطريقة النسبية كيما يكون لدي الوقت الكافي لعلّ شيئاً ما يحدث في حياتي...».

فأجابت عمتي «تقول إذا تمكنت!؟ ستتمكن، وستتمكن بحسب شروطك الخاصة إن أنت طلبت ذلك، ففكرا بهذا الموضوع الآن أنتما معاً. ودايفد يعرف اثنين يقصدان إلى أستراليا بعد وقت قصير؛ وإذا ما قررتما الذهاب فلم لا تسافرون جميعاً في الباخرة عينها؟ قد تساعدون بعضكم بعضاً».

قالت السيدة ميكاوبر «ولكن ثمة سؤال واحد فقط أيتها السيدة، أقصد هل الطقس صحي هناك؟».

فأجابت عمتي «أفضل طقس في العالم أجمع!».

قالت السيدة ميكاوبر «هكذا إذاً؛ والآن يأتي سؤالي التالي؛ هل فرص العمل متكافئة بحيث يكون في وسع رجل، بمثل إمكانيات السيد ميكاوبر، أن يرتقي السلم الاجتماعي؟ وأنا لا أقول إنه، في الوقت الحالي، يطمح إلى أن يصبح نائباً أو محافظاً، أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن هل سيكون ثمة مجال معقول لمواهبه يتمكّن معها من تنمية ذاته... بحيث تكون كافية بشكل وافر... وتستطيع أن تجد مجالها الرحب؟».

فقالت عمتي «ليس ثمة مجال في العالم أفضل من هذا للرجل الذي يتدبر نفسه جيداً. في حين يكون رجلاً صناعياً».

ورددت السيدة ميكاوبر بطريقتها العملية الواضحة «للرجل الذي يتدبَّر نفسه جيداً، في حين يكون رجلاً صناعياً! تماماً. من الواضح بالنسبة إلي أن أستراليا هي المكان الصحيح للعمل بالنسبة إلى الظروف الراهنة، هي الأرض الوحيدة التي تناسبني أنا وعائلتي، ولسوف يحدث لي شيء ما على ذلك الشاطئ، شيء ذو طبيعة غريبة، يرفع من مستوى حياتي».

فهل سأنسى في يوم من الأيام كيف أنه، خلال لحظة، أصبح السيد ميكاوبر أكثر الرجال نشاطاً وحماسة، يحدق إلى الأمام، إلى الحظ، أو كيف أن السيدة ميكاوبر راحت، على الفور، تتحدث عن عادات حيوان الكنغورو؟ وهل سأتذكر في يوم من الأيام شارع كانترباري في يوم السوق دون أن أتذكره وهو يعود معنا محدّقاً إلى الأبقار التي تمر بنا بعين المزارع الأسترالي؟

*

يُفترض بي أيضاً، أن أتوقف هنا مرة أخرى. آه، يا لزوجتي الطفلة دورا! إن ثمة خيالاً بين الحشد المتحرك أمام ذاكرتي، ساكناً هادئاً، يقول لي، بطريقته الصبيانية الجميلة، وحبه الساذج: كفَّ عن التفكير بي، عد وانظر إلى البرعم الصغير وهو يهوي إلى الأرض.

وأفعل وأكفّ، وكل شيء من حولي يغدو كئيباً، متلاشياً. وأعود لأتكلم عن الفترة التي كنت فيها مع دورا، في منزلنا الصغير، وليست لدي فكرة عن المدة التي مضت على دورا وهي لا تزال مريضة، والحقيقة أنها ليست بالمدة الطويلة، بالأسابيع أو الأشهر، وإنما في عرفي وخبرتي كانت فترة قلقة وقلقة جداً.

كانوا قد كفّوا عن القول «انتظر بضعة أيام أخرى». وكنت قد بدأت أخشى، ولو قليلاً، أن اليوم الذي سأرى فيه زوجتي الطفلة تجري مع صديقها القديم جيب، تحت الشمس، قد لا يأتي أبداً.

لقد أسنَّ بسرعة، وكأنَّ ذلك حدث بصورة فجائية، ربما لأنه فقد في سيدته شيئاً كان يمده بالحيوية، ويجعله أكثر نشاطاً. كان يبدو مكتئباً، وقد ضعف نظره، وعجزت أطرافه.

وتضطجع دورا وهي تبتسم لنا، وتبدو جميلة جدّاً، دون أن تتفوه بأي كلمة فيها تذمر أو تأفف. وكم يبدو غريباً ذلك الهدوء، أو السكون، في حياتي عندما كنت أجلس في تلك الغرفة المرتبة، الهادئة والظليلة، وعينا زوجتي الطفلة الزرقاوان متحولتان نحوي، وأصابعها الصغيرة تلتف حول يدي. أجلس وأنا على هذه الحالة الساعات الطوال، ولكن من بين جميع تلك المرات تحضرني مرات ثلاث فقط، تبدو واضحة أكثر من سواها في مخيّلتي.

*

الوقت صباحاً؛ ودورا تريني، وقد أشرفت عمتي على هندامها، كيف أن شعرها الجميل لا يزال ينسدل فوق الوسادة.

كانت تقول عندما تراني أبتسم «لا أقول هذا لأني فخورة به الآن، أيها الفتى الساحر، ولكن لأنك اعتدت أن تقول إنه جميل للغاية، ولأني أول ما بدأت أفكر بك، اعتدت أن أقف أمام المرآة وأسترق النظر إليه، وأتساءل عما إذا كنت ترغب، إلى درجة كبيرة، في أن تأخذ منه خصلة، آه، كم كنت غبية يا «دادي» عندما أعطيتك واحدة».

«كان ذلك في اليوم الذي كنت ترسمين فيه الأزهار التي كنت قد قدمتها إليك يا دورا؛ وعندما أخبرتك بمدى حبي العميق لك».

وتقول دورا «آه، ولكني لم أشأ أنا أن أخبرك، في ذلك اليوم، كم بكيت فوق هذه الأزهار لأني قد صدقت بأنك تحبني فعلاً، وعندما يغدو في وسعي أن أركض من جديد، كما اعتدت أن أفعل يا «دادي»، دعنا نذهب ونرى تلك الأمكنة، حيث كنا نُعتبر فيها اثنين ساذجين، ونقوم ببعض النزهات الحلوة، هل توافق؟ ودعنا لا ننسى والدي المسكين».

«أجل، سنقوم بكل ذلك، وسنقضي بضعة أيام سعيدة، لذا يجب عليكِ أن تشفي سريعاً يا عزيزتي».

*

الوقت مساءً؛ وأنا أجلس على الكرسي ذاته، بقرب السرير عينه، والوجه ذاته ناظر نحوي. لقد كنا هادئين، وعلى وجهها ابتسامة وديعة. وكنت في تلك الفترة قد توقفت عن الهبوط والصعود بحملي الخفيف، إذ كانت تبقى مضطجعة في فراشها طوال النهار.

«دادي!».

«نعم يا عزيزتي دورا».

«ألن تعتبر ما أقوله لك أمراً مستحيلاً؟ أود أن أرى آغنيس».

«سأكتب إليها يا عزيزتي».

«هل ستكتب إليها حقاً؟ يا لك من فتى طيب، في الحقيقة، إني أرغب في رؤيتها رغبة شديدة».

«إن عليّ أن أخبرها برغبتك فقط، ولا شك أنها ستأتي».

وتهتف دورا وذراعها حول عنقي «إنك تشعر بالوحدة الموحشة عندما تهبط إلى الطابق السفلي الآن، أليس كذلك؟».

«وكيف يمكنني ألاّ أكون كذلك عندما أرى مقعدك شاغراً، يا حبيبتي؟».

وتتشبث بعنقي لفترة قصيرة وهي صامتة، ثم تقول «مقعدي الشاغر! وهل تشعر أنت بفقداني حقاً يا «دادي»؟» وتضيف وهي ترفع نظرها إليّ وتبتسم «حتى بفقداني أنا الطائشة البلهاء؟».

«ومن يوجد على وجه البسيطة يمكنني أن أشعر بفقدانه على هذا الشكل؟».

وتقول «آه، إني مسرورة جدّاً، وآسفة جدّاً يا حبيبي» بينما هي تسحب نفسها على السرير مقتربة مني أكثر فأكثر، وتضمني بكلتا يديها، وتضحك وتبكي، ثم تهدأ لتبدو سعيدة للغاية.

*

الوقت ليلاً؛ وأنا أجلس إلى جانبها ساكناً، وقد وصلت آغنيس، وأمضت بيننا النهار بطوله وشطراً من المساء. لكن عمتي ظلت معي إلى جانب دورا منذ الصباح دون أن نتكلم كثيراً، أما دورا فقد كانت راضية وسعيدة تماماً. والآن أراني أجلس ودورا وحيدين.

قالت لي بنظرة رقيقة «أودّ أن أتحدث إليك يا دادي. أود أن أبوح لك بسر لطالما فكرت بالبوح به في المدة الأخيرة. ألن تبالي بقولي؟».

«وكيف لا أبالي يا عزيزتي؟».

«لأني لا أدري ماذا ستظن بي، أو ما قد تكون فكرت به أحياناً، وربما أنت قد فكرت بالشيء ذاته. إني أخشى من أنني كنت صغيرة جداً، يا عزيزي دادي».

وتنظر إلى عينيّ، وتتكلم بنعومة زائدة. وفيما هي تستمر في كلامها، أشعر تدريجاً، وبقلب محطّم، أنها تتكلم عن نفسها كما كانت تتكلم في الماضي.

«أخشى، يا عزيزي، أني كنت جد صغيرة، ولا أعني هنا سنيّ عمري وحسب، وإنما أعني الخبرة، والأفكار، وكل شيء. لقد كنت مخلوقة قميئة وتافهة للغاية. وأخشى أنه لكان من الأفضل لو أننا أحببنا بعضنا كفتى وفتاة، ليس إلاّ. لقد بدأت أعتقد أني لم أكن جاهزة كي أكون زوجة».

وأحاول أن أمنع دموعي، وأجيب «آه يا دورا، يا حبيبتي، لقد كنت جاهزة بقدر ما كنت أنا جاهزاً كي أكون زوجاً».

قالت وهي تحرّك ضفائرها كما كانت تفعل دائماً «لا أدري، ربما! ولكن لو كنت أصلح للزواج أكثر، مما أنا عليه، فربما كنت جعلتك أكثر سعادة وهناء، أضف إلى ذلك أنك ذكي للغاية، في حين لم يكن عندي أنا شيء من الذكاء قط».

«لقد كنا سعيدين جدّاً يا حبيبتي دورا!».

«وأنا كنت جد سعيدة، جد سعيدة. ولكن كان يمكن لفتاي،

والأعوام تمضي سِراعاً، أن يغدو قلقاً من زوجته الطفلة، ولكانت صداقتها له تقل وتقل أكثر فأكثر، إذ لما كانت قد تحسنت هي. إن الوضع كما هو أفضل بكثير!».

«آه يا أغلى دورا عندي، آه يا عزيزتي، لا تتكلمي معي هكذا. إن كل كلمة تبدو بالنسبة إلي تعنيفاً!».

وتجيب وهي تقبّلني «كلا، ولا حرف واحد. آه يا عزيزي، أنت لم تستحق ذلك قط، وقد أحببتك كثيراً، ولا يمكن أن أقول لك كلمة تعنيف بطريقة جدية ـ لقد كان ذلك كل ما لدي من جدارة، باستثناء أني كنت جميلة! ـ أو أنت الذي كنت تعتقد ذلك. هل المكان موحش في الطابق السفلي، يا دادي؟».

«جد موحش، جد موحش».

«وهل مقعدي موجود هناك؟».

«في مكانه المعهود».

«والآن أريد منك وعداً واحداً! أريدك أن تتحدث إلى آغنيس، فعندما تهبط أخبر آغنيس بذلك، وأرسلها إليّ، ولا تدع أحداً يدخل علينا فيما أكون أتحدث إليها ـ ولا عمتنا حتى ـ أريد أن أتحدث إليها على انفراد تماماً!».

وفي الحال وعدتها بذلك، إلاّ أنه لم يسعني أن أتركها لشدة حزني. لكنها قالت فيما هي تمسكني بكلتا يديها: «قلت إن الوضع أفضل بكثير كما هو الآن، آه يا دادي، بعد بضع سنوات لما كان في وسعك أن تحب زوجتك الطفلة أكثر مما تحبها الآن. وقد لا يكون في وسعك أن تحبها بنصف القدر الذي تحبها به، أنا أعرف أني كنت طفلة صغيرة، وغبية. إن الوضع أفضل كما هو الآن».

*

عندما دخلت غرفة الجلوس، كانت آغنيس تجلس هناك، فأفضيت

إليها برغبة دورا؛ وسرعان ما توارت عن الأنظار بعد أن تركتني وحيداً مع جيب.

كان جيب يضطجع على فراشه الصغير المصنوع من الصوف، محاولاً أن ينام بشيء من التذمر. وجلست بقرب المدفأة أفكر، بشيء من الندم، بجميع تلك المشاعر التي كنت أحسّها منذ زواجي. كان يبرز دائماً في بحر ذاكرتي طيف طفلتي العزيزة كما عرفتها في البداية، ويزيِّن هذا الطيف حبي وحبها الفتيّان، بكل ما هناك من سحر، بحيث إن مثل هذا الحب كان يبدو عظيماً. ولكن، هل حقاً لكان من الأفضل لو أننا أحببنا بعضنا كفتى وفتاة ثم نسينا هذا الحب؟».

كيف مر الوقت، لا أدري، إذ ظللت جالساً في مكاني إلى أن استفقت على صديق زوجتي الطفلة القديم، وهو يزحف خارج وجاره بقلق كبير وينظر إليّ، ثم يهرول نحو الباب ويشرع في النباح من أجل أن يصعد إلى الطابق العلوي.

«ليس في هذه الليلة يا جيب، ليس في هذه الليلة».

وعاد إليّ متثاقلاً، وبدأ يلحس يدي، وهو يرفع عينيه الكئيبتين إلى وجهي. فعدت أقول له «آه يا جيب، قد لا يكون لك ذلك أبداً بعد الآن».

وأقعى عند قدميَّ، ثم مدّد جسمه كلياً، كما لو أنه يود أن ينام، وبتنهيدة محزنة خمدت فيه جمرة الحياة.

«آه يا آغنيس، انظري، انظري هنا».

... ذلك الوجه المليء بالحسرة والحزن، ذلك النهر من الدموع، وتلك الاستغاثة الخرساء، وتلك الذراع الجميلة المرفوعة نحو السماء، وصرخت مذعوراً:

«آغنيس!».

لقد انتهى كل شيء، وخيم الظلام على عينيَّ، ولفترة من الزمن انمحت جميع الأشياء والأحداث من ذاكرتي.

15

كيف تمّ الاتفاق فيما بيننا على أن أستعيد مرحي وراحتي بعد وفاة زوجتي الحبيبة وأن أسافر وأهيم على وجهي، فهذا ما ليس لي به علم، وقد كانت روح آغنيس تخيم على كل ما كنّا نفكر به، ونفعله، في ذلك الوقت العصيب، الذي كنّا نعاني فيه من الحزن، بحيث يمكنني أن أنسب هذا كله إلى تأثيرها هي.

كان عليّ أن أسافر إلى الخارج؛ وهذا ما بدا أننا اتفقنا عليه منذ البداية، ولكنني رحت أنتظر ما قد أسماه السيد ميكاوبر «سحق هيپ النهائي!» كما كنت أنتظر رحيل الذين سيهاجرون.

وبناء على رجاء ترادلس، أكثر الأصدقاء حباً ومؤاساة لي في حزني، عدنا إلى كانترباري؛ أعني أنا وآغنيس وعمتي، وتوجهنا إلى منزل السيد ميكاوبر، وذلك على أثر موعد مسبق، حيث كان صديقي هذا يعمل هناك في منزل السيد ويكفيلد، منذ اجتماعنا الأخير المدوّي.

قال ترادلس وهو ينظر إلى الأوراق فوق الطاولة «بعد أن حسبنا جميع سنداتنا المالية، ونظمنا الفوضى الكبيرة غير المتعمّدة، أولاً، والتزوير المتعمّد، ثانياً، فقد غدا من الواضح أنّ في وسع السيد ويكفيلد الآن أن يصفي أعماله، بحيث لا يظهر أي عجز أيّاً يكن».

فهتفت آغنيس بحرارة «آه، شكراً لله!».

وعقب ترادلس «ولكن كل الزوائد التي ستبقى كوسائل معيشية - وأعتقد أن المنزل يجب أن يباع، مع ذلك - ستكون بمثابة مبلغ صغير لا يتعدى بضع مئات من الجنيهات في جميع الأحوال بحيث إنه ربما...».

«يا عزيزي السيد ترادلس، ويا عزيزي تروتوود، عندما يتحرر والدي ويستعيد كرامته وشرفه، فماذا يسعني أن أبغي أكثر من هذا؟!

وأن آخذ على عاتقي تأمين مستقبل حياتنا ففي ذلك سعادتي الكبرى القادمة، التي يمكنني أن أتبيّنها!».

«وهل فكرت بالطريقة التي ستتبعينها يا آغنيس؟».

«غالباً ما كنت أفكر بها، وأنا لست قلقة يا عزيزي تروتوود! إني متأكدة من النجاح، إذ إنَّ الذين يعرفونني هنا كثيرون، وهم يحبونني؛ وأنا أكيدة من ذلك. واحتياجاتنا ليست كثيرة، فإذا ما أجّرت منزلنا القديم هذا، وأنشأت فيه مدرسة، فلسوف أكون مفيدة وسعيدة!».

وأعادت إليَّ الحماسة الهادئة في صوتها المفرح، أولاً صورة المنزل القديم العزيز نفسه، بطريقة حيّة، ثم منزلي الموحش. وتظاهر ترادلس لفترة من الوقت بأنه منهمك في البحث بين الأوراق، ثم قال:

«والقضية التالية يا آنسة تروتوود، هي قضية عقارك!».

فتنهّدت عمتي وقالت «كل الذي يسعني أن أقول بشأنه هو أنه إذا ما انتهى أمره فإن في إمكاني أن أتحمل هذا، أما إذا لم ينتهِ أمره فسأكون سعيدة باسترجاعه!».

فقال ترادلس «أعتقد أن ثمنه الأصلي كان حوالى ثمانية آلاف جنيه».

فأجابت عمتي «أجل، تماماً!».

فقال ترادلس بشيء من الارتباك «لا يسعني أن أقدّره اليوم بأكثر من خمسة..».

فاستوضحت عمتي برباطة جأش «تعني خمسة آلاف أو خمسمائة...».

أجاب ترادلس «خمسة آلاف!».

فقالت عمتي «لقد بعته بثلاثة آلاف أنا بنفسي، دفعت ألفاً واحداً من هذه الآلاف الثلاثة لفترة تدريبك يا عزيزي تروت، ولكن الألفين الباقيين لا يزالان في حوزتي. وعندما فقدت ثروتي، فكرت أنه من

الحكمة ألاّ أقول شيئاً عن ذلك المبلغ، وإنما كان يجب أن أحتفظ به سراً للوقت العصيب. وقد شئت أن أرى كيف سيكون في وسعك أن تخرج من هذه المحنة يا تروت، وقد خرجت منها بشهامة وشرف، خرجت وأنت رجل مثابر، معتمد على نفسك، ومتنكر لذاتك. وهذا ما فعله السيد ديك!».

فهتف ترادلس وهو يشع بالفرح «إذاً، يمكنني أن أقول الآن إننا قد استرددنا كل المال!».

وصمت قليلاً ثم عاد يقول «لقد ظننت أن السيد ويكفيلد قد اختلسه، أليس كذلك؟».

فأجابت عمتي «فعلاً، هذا ما ظننته! ولذلك ظللت صامتة».

وقال ترادلس «في الحقيقة لقد بيع هذا العقار، ولكن لا حاجة إلى ذكر اسم الذي باعه. وبعد بيعه أظهر المحتال هيپ للسيد ويكفيلد أنه هو الذي قبض ثمنه واحتفظ بالمال لنفسه، كيما يبقي عجزه وتقصيره في قضاياه طيّ الكتمان. وقد أثبتُّ له ذلك ببعض البراهين، أما السيد ويكفيلد فقد اعتبر نفسه جزءاً من هذا الاحتيال».

فقالت عمتي «حسناً يا عزيزي، وقد أرغمته أنت على إعادة المبلغ أليس كذلك؟».

أجاب ترادلس «الحقيقة هي أن السيد ميكاوبر قد طوّقه من كل جانب، وكان دائماً مستعدّاً له بعدة خطط جديدة إذا ما فشلت أي خطة من خططه، بحيث إنه لا يستطيع الفرار منا أبداً».

«وماذا حدث لهيپ بعد ذلك؟».

فقال ترادلس «لا أدري! لقد ترك هذا المكان مع أمه، وركبا عربة من عربات لندن الليلية، ولم أعد أعرف أي شيء آخر عنهما!».

فسألت «هل تعتقد أنه قد أخذ معه مالاً، يا ترادلس؟».

«آه، أجل يا عزيزي! أعتقد ذلك! لا شك في أنه قد حمل معه مبلغاً

كبيراً بإحدى الطرق. ولكني أعتقد، يا كوپرفيلد، أن المال لن يردعه أو يمنعه عن افتعال الأذى، فهو تجسيد للكذب والاحتيال، بحيث إنه سيتبع في أي عمل يتسلمه طرقاً ملتوية».

فقالت عمتي «والآن ماذا بخصوص السيد ميكاوبر؟!».

فقال ترادلس «يجب وللمرة الثانية أن أبدي ثنائي للسيد ميكاوبر، أما بالنسبة إلى بقائه مثابراً وصامتاً كل هذه المدة الطويلة، فلا يمكننا أن نأمل أبداً أن نتكلم عنه بشكل وافٍ. وأعتقد أنه ينبغي أن نعتبر أن السيد ميكاوبر قد تصرف بحكمة، من أجل الحكمة ذاتها، عندما نفكر بنوع الشروط التي كان فرضها مع يوريا هيپ لقاء صمته!».

فقلت «وأنا أعتقد هذا أيضاً».

«وتلك الاعترافات الخطية، وما شابه، التي أعطاها ليوريا مقابل قروضه..؟».

فقالت عمتي «حسناً، وهذه يجب أن تُسدّد!».

فرد ترادلس «أجل، إلاّ أني لا أعرف متى ستقدم أو أين هي موجودة. وإني أتوقع أن يُلقى القبض على السيد ميكاوبر بصورة رسمية في غضون هذه الفترة التي سيتحضر فيها للسفر!».

فقالت عمتي «إذاً، ينبغي أن يُسدّد عنه كل الدين بصورة دائمة كذلك! ما هو المبلغ المطلوب؟».

فأجاب ترادلس وهو يبتسم «إن السيد ميكاوبر قد سجل هذه المعاملات المالية ـ وقد أطلق عليها اسم معاملات مالية بشكل عظيم ـ في أحد الدفاتر، وقد قدّرها بمبلغ إجمالي مقداره مائة وثلاثة جنيهات وخمسة شلنات».

فقالت عمتي «والآن ماذا سنقدّم إليه بالإضافة إلى هذا المبلغ؟ ويمكنني، يا عزيزتي آغنيس، أن أتكلم معك عن القسمة فيما بعد. فكم سيكون مقداره؟ خمسمائة جنيه؟».

وهنا شعرت أنا وترادلس بصدمة مفاجئة، وأوصينا أن يكون مبلغاً صغيراً، وليكن تسديد ديون يوريا من ضمنه؛ واقترحنا أن تدفع أجرة السفر عن العائلة، بالإضافة إلى الحوائج واللوازم، وأن نعطيهم مائة جنيه نقداً. ويجب أن يدخل ضمن هذا كله تدبيرات السيد ميكاوبر الرزينة لتسديد هذه القروض، إذ إن ذلك قد يكون مجدياً بالنسبة إلى السيد ميكاوبر كيما يتحمل تلك المسؤولية».

وسوّت عمتي من ثوبها، وجلست بقامتها المستقيمة وهي تحدق إلى الباب وتقول «أشكرك مرات ومرات يا عزيزي تروت. وليدخل الآن كل من السيدة والسيد ميكاوبر».

حين دخلا قالت عمتي «لقد كنا نتباحث في قضية هجرتكما، بالإضافة إلى مسألة الاعتذار إليكما لأنكما مكثتما خارج الغرفة طوال هذا الوقت. وسأخبركما بالتدابير التي سنتخذها!».

وقامت عمتي بشرح التدابير المتفق عليها، وقد كان رضى العائلة بها كبيراً جداً، كانت كلها موجودة آنذاك، حتى الأولاد، ولمّا كان سرور السيد ميكاوبر شديداً لا يحد، فقد اندفع إلى الخارج بأقصى سرعة ممكنة كيما يبتاع الطوابع لإلصاقها فوق السندات التي سيوقعها بالمبلغ. ولكن فرحه هذا واجه صدمة مفاجئة، إذ إنه عاد إلينا في خلال خمس دقائق وهو تحت حراسة رجل الشرطة، ليعلمنا، والدموع تنهمر من عينيه، أن كل شيء قد ضاع. وإذ كنا مستعدّين لمثل هذه الحادثة التي سببها يوريا هيب، فقد سددنا المبلغ المستحق. وبعد خمس دقائق أخرى كان السيد ميكاوبر يجلس إلى الطاولة يوقع فوق الطوابع وعلى وجهه تعابير الفرح والراحة.

وبهذا أتينا على نهاية إجراءات ذلك المساء، وقد كنا منهكين من الحزن والتعب. وكان علي أنا وعمتي أن نعود إلى لندن في صباح اليوم التالي، واتفقنا على أن يلحق بنا السيد ميكاوبر وعائلته بعد أن يتدبر بيع جميع أثاث منزله، وأن يشرف ترادلس على إنجاز جميع أعمال السيد

ويكفيلد، وأن تأتي آغنيس أيضاً إلى لندن فيما بعد.

وأمضينا تلك الليلة في ذلك المنزل القديم الذي كان خِلْواً من وجود هيپ ووالدته، وقد بدا من جديد كما كان عليه في السابق. وعندما عدنا إلى منزل عمتي الصغير، في هاي غيت، وجدنا رسالة من السيد ميكاوبر في انتظارنا يعلمنا فيها أن حكماً آخر قد صدر بحقه لاعتقاله من أجل ديون مستحقة عليه لأمر يوريا هيپ، لكن السيد ترادلس دفع المبلغ والمصاريف تحت اسم الآنسة تروتوود السامي.

*

ها أنا قد غدوت الآن في حالة رهيبة لا يمكن لها أن تغيب عن مخيلتي؛ وقد كنت مع بدء روايتي هذه أراها تكبر وتكبر فيما كنت أتقدم في السنّ، مثل برج ينتصب في أحد السهول؛ بحيث ترمي بظلالها المرئية حتى على أيام طفولتي.

كنت متردّداً الآن بشأن الفكرة الغريبة التي خطرت لي في أن أترك رسالة لإميلي، عندما أودع خالها على متن الباخرة. وفكرت أنه من الأفضل أن أكتبها إليها الآن، إذ، كما اعتقدت، لربما كانت ترغب هي أيضاً في أن تبعث إلى حبيبها التعس بكلمة فراق، بوساطتي! لذا رأيت أنه ينبغي عليّ أن أهيئ لها الفرصة.

وبناء على ما عزمت عليه، جلست في غرفتي أكتب إليها هذه الرسالة قبل أن أمضي إلى النوم، ثم بعثت بها إليها بعد أن عنونتها باسم السيد پيغوتي، رجوته فيها أن يسلمها إلى إميلي، ومضيت إلى سريري.

استيقظت على إثر شخوص عمتي في غرفتي بشكل صامت، ووقوفها إلى جانب سريري. ظننت أني أراها في نومي، كما نرى جميعنا الأحلام في نومنا، لكنها قالت لي وقد فتحت عينيّ:

«لم أُرد إزعاجك يا عزيزي تروت، ولكن السيد پيغوتي هنا. هل أطلب إليه أن يصعد إليك؟».

«نعم، نعم» وفي الحال كان يدخل غرفتي. وبعد أن حيّاني قال لي:

«لقد سلمت رسالتك إلى إميلي يا سيد دايڤي. وقد كتبت هي إليك هذه والتمست مني أن أسألك الاحتفاظ بها».

قلت «أعتقد أني سأقصد يارماوث مرة ثانية؛ إذ إن ثمة متسعاً من الوقت سأستغلّه في أن أمضي ثم أعود قبل أن تقلع الباخرة، وسيكون في ذلك خدمة مني لكليهما معاً. ولا تعتبر الرحلة بالطبع أمراً مهماً بالنسبة إليّ، ولا سيما أنني قلق، فلربّما ستتحسن حالي قليلاً بالتنقل، وسأقصد إلى هناك هذه الليلة!».

*

سألت الحوذي عند بلوغنا المحطة الأولى خارج لندن «ألا تعتقد أن السماء ملبّدة ومكفهّرة بشكل عجيب؟ لا أذكر أني رأيتها على مثل هذه الحال في حياتي!».

أجاب «وأنا أراها كذلك.. كما أنني لم أر مثيلاً لهذه الريح، يا سيدي، وأعتقد أن كارثة ستحل في البحر في وقت قصير».

كان الطقس غائماً، مظلماً - كان يبدو هنا وهناك أنه مبقع بلون مثل لون دخان الوقود الرطبة - من جراء السحب التي كانت تتراكم فوق بعضها بشكل أكداس رهيبة، بحيث لم يعد يبدو للقمر من خلالها أي أثر. وكانت الريح تعصف طوال النهار، أما الآن فإنها تزمجر وتحدث صوتاً هائلاً غير طبيعي. وفي خلال ساعة أخرى تراكمت السحب أكثر فأكثر، وحُجبت السماء بشكل كليّ، وازدادت الريح عزيفاً في هبوبها.

وفي حين كان الليل يتقدم، كانت السحب المتجمعة الكثيفة تزداد تكتُّلاً، ثم أظلمت السماء، ونفخت الريح بشدة وظلت تشتد إلى درجة أن الجياد كانت بالكاد تستطيع مواجهتها، حتى بعد أن انبثق الفجر. وفيما كنا نكافح ونحن نزداد اقتراباً من البحر، من حيث كانت الرياح الجبارة تهب بشكل مميت عند الشاطئ، كانت قوتها تكبر إلى أن

غدت مخيفة تبعث على الرعب. وقبل أن نطل على البحر، بمسافة بعيدة، كنا نشعر برشاشه فوق رؤوسنا، وبرذاذه المالح على شفاهنا.

وهبطت في النزل القديم، ثم قصدت بعد قليل لأراقب البحر. وفيما كنت أترنح في الشارع المزروع بالرمل وحشائش البحر اليابسة ورذاذ زبد البحر المتطاير، كنت خائفاً من تساقط البلاط أو قطع الآجر عليّ، وكنت أتمسك بالناس الذين أقابلهم عند المنعطفات.

أربكتني رؤية البحر الهائل المزبد، عندما استطعت أن أجد لي مكاناً مناسباً لأقف فيه وأحدق إليه من خلال الرياح الثائرة، العاصفة، والحصى، والرمال المتطايرة، والضجة المخيفة. وفيما كانت الجدران المائية تتدحرج نحو الشاطئ، ثم تنفجر على ذاتها، وهي في أوج ارتفاعها، كان يخيل إلي وكأنها ستغرق البلدة برمتها. وإذ كانت الموجة تتقهقر بزئير حاد كانت تبدو أيضاً وكأنها تحفر مغاور عميقة على الشاطئ، وكأن غايتها من ذلك كانت في أن تدمر الأرض.

وعدت إلى النزل، وعندما اغتسلت وارتديت منامتي، حاولت أن أنام ولكن عبثاً، لأني اضطجعت لبضع ساعات أستمع إلى صوت الريح وهدير البحر، كنت أتصور حيناً أني سمعت نحيباً من داخل البحر، وفي حين آخر أني سمعت صوت انهيار المنازل في البلدة. وفي نهاية المطاف، عدت إلى رشدي تماماً على إثر سماعي دويّ اصطدام مريع كدويّ المدفعية.

كان الصوت عالياً جدّاً، ومتتابعاً، بحيث إني لم أستطع أن أسمع شيئاً معيّناً كنت أرغب في سماعه، إلى أن حاولت جاهداً أن أستفيق تماماً، وقد كان النهار في وضحه، وكانت الرياح هي التي تدوّي بدلاً من المدفعية. وكان ثمة شخص يقرع بابي ويناديني.

فهتفت «ما الأمر؟».

«هناك سفينة تحطمت بالقرب من الشاطئ!».

ووثبت من فراشي، وسألته عن نوع تلك السفينة المحطمة! فأجابني:

«سفينة بصاريين من إسبانيا، أو البرتغال، محملة بالفاكهة والنبيذ. فأسرع، يا سيدي، إذا شئت أن تراها، إذ إنهم يعتقدون، عند الشاطئ، أنها من المحتمل أن تتناثر إلى قطع صغيرة بين لحظة وأخرى!».

وظل الصوت المدوّي يلعلع، وبأقصى سرعة ممكنة ارتديت ملابسي، ثم ركضت إلى الشارع.

كان هناك عدد من الناس قد هرعوا قبلي، والجميع يركضون باتجاه واحد، نحو الشاطئ. ورحت أنا أركض في الاتجاه عينه، وقد تقدمت على عدد كبير منهم، وسرعان ما كنت أواجه البحر الهائج.

وأمام صعوبة سماع أي شيء سوى عزيف الريح وهدير الأمواج، ووسط الحشد والفوضى التي لا يمكن للمرء أن يتكلم عنها، وبعد محاولاتي المضنية أن أقف بوجه الريح، شعرت بالحيرة والارتباك إذ رحت أبحث بنظري عن السفينة المحطمة، دون أن أرى أي شيء سوى قمم الأمواج الهائلة التي يغطيها الزبد. وكان يقف بالقرب مني بحار يرتدي نصف ملابسه، يشير بذراعه العارية (وهي موسومة بسهم يشير إلى الاتجاه ذاته) إلى اليسار. وهنا رأيت السفينة المحطمة على مقربة منا!

كان أحد الصاريين مكسوراً، فلم يبق منه سوى ست أو ثماني أقدام فوق المتن، وقد مال فوق أحد جانبي السفينة، وعلق بين الشراع المتأرجح وبين الحبال، وكان هذا الصاري المكسور يضرب جانب السفينة كما لو أنه سيشقها، وذلك فيما كانت هي تتأرجح بين الأمواج دون أن تستقر حتى للحظة واحدة، وبعنف يفوق التصوّر حقاً. وقد بُذلت جهود ومحاولات شتى لقطع هذا الصاري المكسور، لأني تبيّنت الأشخاص الذين كانوا على متن السفينة بوضوح بعد أن كانت تتجه نحونا في تأرجحها؛ وكان هؤلاء الأشخاص يحملون الفؤوس ويعملون بجهد، ولاحظت، على الأخص، شكل إنسان نشيط له شعر

أجعد طويل، وهو بادٍ للعيان بوضوح بين الآخرين جميعاً. وفي هذه اللحظة ارتفعت صيحة هائلة من ناحية الشاطئ، كانت مسموعة بالرغم من زمجرة الريح وضجيج الأمواج؛ وأحدث البحر فتحة هائلة في المركب، ما دفع بالرجال والبراميل وألواح الخشب إلى داخل الأمواج الهادرة.

وكان الصاري الثاني لا يزال قائماً مع بعض بقايا شراع ممزق، بالإضافة إلى أطراف الحبال المقطعة التي كانت تتأرجح جيئة وذهاباً. وهتف البحار نفسه في أذني، بصوت خشن، أن السفينة قد اصطدمت لمرة واحدة، ثم عادت لترتفع وتصطدم من جديد. وأدركت، وهو يضيف، أنها كانت مشطورة من وسطها، ووسعني أن أتصور هذا في الحال، لأن التأرجح والاصطدام كانا جد هائلين. وفيما كان يتكلم، تعالت صيحة استغاثة أخرى من على الشاطئ، وارتفع أربعة أشخاص من بين الحطام العميق وهم يمسكون بحبال الصاري المتبقي، وكان بين هؤلاء ذلك الشخص النشيط صاحب الشعر الأجعد الطويل.

وكان ثمة جرس معلّق على الصاري القائم، وفيما كانت السفينة تتأرجح وتتلاطم بالأمواج، وكأنها مخلوق بائس جن جنونه، ترينا سطحها حيناً، فيما تتجه نحو الشاطئ من ناحية عرضها، وحيناً آخر لا يبدو لنا إلاّ قعرها، فيما تكون تثب بوحشية فوق الماء، كان يقرع ذلك الجرس برنين حزين، وكان صوته وكأنه صوت جرس الموت يقرع لهؤلاء الرجال، يصل إلى أسماعنا مع الرياح. ومن جديد كنا نفقد رؤيتها ثم تعود لترتفع وتبدو لنا ثانية. وكان قد فقد رجلان؛ وازداد الحزن والألم على الشاطئ؛ وأنّ الرجال وكوّروا قبضاتهم، وناحت النساء وأدرن وجوههن. وكان بعض الأشخاص يركضون جيئة وذهاباً وهم يصرخون من أجل المساعدة، حيث لا يمكن أن تكون ثمة مساعدة. وألفيت نفسي واحداً منهم، وأنا أستصرخ بجنون بعض البحارة، الذين كنت أعرفهم، ألاّ يدعوا هذين المخلوقين يهلكان أمام أعيننا.

وكانوا يفيدونني أن مركب النجاة كان قد جهز منذ ساعة ولم يكن في الإمكان أن يقوم بشيء، وفجأة لاحظت أن شعوراً جديداً قد تملّك الناس على الشاطئ، ورأيتهم يفسحون في الطريق، فقد أتى هام مندفعاً من بينهم إلى المقدمة.

كان الحزم والإصرار باديين على وجهه، وقد نبّهني تحديقه نحو البحر إلى الخطر الكامن هناك، فأمسكت به بكلتا يديَّ لأمنعه من الاندفاع، ورجوت الرجال، الذين كنت أقف معهم، ألاّ يستمعوا إليه، وألا يتركوه يمضي إلى البحر.

وارتفعت صرخة أخرى من على الشاطئ، فلمّا نظرنا إلى السفينة المحطمة رأينا الشراع المشدود يضرب الرجلين ضربة تلو ضربة فيما الريح تتلاعب به، ثم يحلق مرتفعاً حول ذلك الشكل النشيط الذي بقي متعلقاً بالصاري بمفرده.

وأمام هذا المنظر، وأمام حزم ذلك الرجل اليائس الهادئ، كنت أشعر بالأمل الكبير في أن تكفّ الرياح عن الهبوب. وقال لي هام بفرح وهو يضمني بكلتا يديه «إذا كان قد حان وقتي، يا سيد دايڤي، فلا مفر لي من ذلك. وإن لم يكن قد حان فلسوف أبقى على قيد الحياة! ليباركك الله من عليائه، وليبارك الجميع! ساعدوني على تحضير نفسي أيها الأصدقاء! إني ماض!».

ودُفعت بعيداً، ولكن بشيء من اللطف، حيث أجلسني بعض الناس. ثم رأيته يقف وحيداً، ويمسك بأحد الحبال، ويربط جسمه بحبل آخر. وكان بعض خيرة الرجال يمسكون، على مسافة قريبة، بالحبل الأخير الذي كان هو قد أرخاه ولفّه عند الشاطئ بالقرب من قدميه.

كانت السفينة في تلك اللحظات تتحطم أمام عيني غير المصدّقتين. رأيت أنها تنشطر من وسطها، وأن حياة الرجل الوحيد الذي يمسك بالصاري معلقة بحبل واحد، وكان لا يزال ممسكاً ومتشبثاً به، وعلى رأسه كانت ثمة قبعة حمراء مميزة ـ ليست كقبعة البحار، وإنما ذات

لون مختلف! ـ وفيما كانت الدعائم الضعيفة، التي تقع بينه وبين الحطام، تتأرجح وتتداعى، ويقرع جرس موته المتوقع، رأيناه يلوّح بقبعته. وإذ رأيته يقوم بذلك الآن، حسبت أني ذُهلت، عندما أعاد إليَّ عمله هذا ذكرى قديمة لصديق عزيز.

كان هام يراقب البحر وهو يقف بمفرده، صمت الأنفاس المحبوسة خلفه، والعاصفة أمامه، إلى أن كان ثمة تراجع لموجة هائلة، وبعد نظرة إلى الوراء، حيث كان يقف أولئك الرجال الذين يمسكون بالحبل المشدود حول جسمه جيداً، اندفع في إثرها، وفي خلال برهة كان يصارع الأمواج. كان يرتفع مع ارتفاعها، وينخفض مع انخفاضها، ويضيع تحت الزبد. ثم انسحب إلى الشاطئ من جديد، بل إنهم على عجل سحبوه.

لقد أُصيب، إذ رأيت آثار دماء على وجهه من حيث كنت أجلس. غير أنه لم يبال بإصابته، وبدا أنه يعطيهم، بسرعة، بعض الإرشادات لكي يتركوه حراً أكثر من الأول ـ أو هذا ما قد حكمت به من خلال حركة يده ـ ثم مضى من جديد.

في هذه المرة توجّه نحو السفينة المحطمة وهو يرتفع من جديد مع ارتفاع الموج وينخفض بانخفاضه، ويختفي تحت الزبد الكثيف، يُشد نحو الشاطئ ثم يندفع نحو السفينة وهو يكافح بكد وبطولة؛ ولم تكن المسافة طويلة، لكن قوة البحر والريح كانت تتطلب كفاحاً مميتاً. وأخيراً قارب السفينة، قاربها بحيث كان في وسعه، باندفاعة وحيدة من اندفاعاته العنيفة، أن يمسك بحافتها، عندما دهمته موجة خضراء عظيمة، ومرتفعة جدّاً، وهي تندفع باتجاه الشاطئ من وراء السفينة، وقد بدا لنا أنه قفز من فوقها بقفزة جبارة، ولكن لم تعد السفينة لتظهر بعد ذلك.

رأيت فوق سطح الماء بعض الشظايا تتمايل بين الأمواج كما لو أن دعامة واحدة فقط قد تحطمت باتجاه البقعة التي كانوا يسحبون منها

الحبل. وكان الذعر قد كسا جميع الوجوه! لقد سحبوه إلى أن أصبح بالقرب من قدميّ، وهو فاقد الشعور... ميت... وحُمل إلى أقرب منزل، وإذ لم يعد أي شخص ليصدني عنه الآن فقد بقيت بالقرب منه، منهمكاً فيما كانت جميع وسائل الإسعاف قد استنفدت. بدا أن تلك الموجة الهائلة كانت قد ضربته الضربة القاضية، وقد صمت قلبه الشهم الشريف إلى الأبد.

وفيما كنت أجلس قرب السرير، بعد أن ضاع كل أمل لدينا، وبعد أن انتهى كل شيء، سمعت بحاراً، كان يعرفني منذ أن كنت وإميلي صغيرين، يهمس باسمي عند الباب:

«هل تود أن تأتي معي إلى الشاطئ، يا سيدي؟».

كانت الذكرى القديمة التي حضرتني مرسومة في عينيه:

«هل وصلت الشاطئ أي جثة؟».

قال «أجل!».

فسألت عندئذ «هل عرفت من هو؟».

لم يجب بكلمة واحدة وسار بي إلى الشاطئ، وفي تلك البقعة، حيث كنت وإميلي نبحث عن الأصداف ونحن في سن الطفولة،رأيته يضطجع ورأسه فوق ذراعه، كما كنت أراه غالباً يضطجع في المدرسة.

*

آه يا ستيرفورث، لم تكن بحاجة إلى أن تقول، عندما تحدثنا معاً للمرة الأخيرة، في تلك الساعة التي حسبت أنها ستكون ساعة فراقنا الأخيرة؛ لم تكن بحاجة إلى أن تقول «إذا وقع ما يفرقنا، فأرجو أن تُحسن التفكير بي»، إذ لطالما أحسنت التفكير بك. وهل في وسعي أن أتبدل الآن وأنا أحدق إلى هذا المشهد؟!.

وحالما استطعت أن أستجمع أفكاري، أرسلت في طلب السيد جورام ورجوته أن يؤمّن لي الانتقال إلى لندن في هذه الليلة، وأدركت

بأن أمر الاهتمام بذلك كان موقوفاً عليّ.

*

وفي يوم رطيب من أيام الخريف، وحوالى وقت الظهيرة، بلغت هاي غيت، كانت الأرض مغطاة بتلك الأوراق المتساقطة، وبغيرها من الأوراق ذات اللون الجميل المموج بالأصفر والأحمر والبني الداكن، والتي لا تزال معلقة فوق الغصون، وقد سطعت أشعة الشمس من خلالها.

لم تحضرني الشجاعة، في البداية، كي أقرع جرس البوابة الخارجية، ولكني عندما قرعته خيِّل إلي أن صوته بالذات قد عبّر عن مهمتي القادم من أجلها. وخرجت الخادمة والمفتاح بيدها، وقالت وهي تنظر إليّ باهتمام فيما كانت تفتح لي:

«هل ثمة مشكلة يا سيدي...؟ هل السيد جيمس..؟».

قاطعتها قائلاً «صه! أجل لقد حدث مكروه، وينبغي أن أخبر به السيدة ستيرفورث، هل هي في المنزل؟».

وخلال دقائق كنت أقف أمامها، وكانت الآنسة دارتل تقف إلى جانب كرسيها، كالمعتاد، ومنذ اللحظة الأولى بعد أن وقعت عيناها السوداوان على وجهي، اكتشفت أنها أدركت أني أحمل نبأ سيئاً. وفي تلك اللحظة غدا أثر نحيبها واضحاً للعيان، فتراجعت خطوة إلى الوراء، بحيث أصبحت خلف الكرسي لكي تخفي وجهها عن عينيّ السيدة ستيرفورث، ثم رمتني بنظرة ثاقبة لم تكن لترف لها جفونها أبداً.

قالت السيدة ستيرفورث «إني آسفة لأني أراك في حالة حزن أيها السيد!».

قلت لها «إني رجل أرمل، تعيس!».

قالت «لا تزال فتياً كي تصاب بمثل هذا الترمّل!يؤسفني سماع هذا،

ولكنني آمل أن يكون الزمن خير علاج لك».

قلت وأنا أنظر إليها «آمل أن يكون الزمن خير علاج لنا جميعاً. ويجب علينا جميعاً، يا سيدة ستيرفورث، أن نركن إلى هذا العلاج في أشد مصائبنا».

وهنا شعرت السيدة ستيرفورث بنذير شؤم من خلال الجدية في شكلي، والدموع في عيني. وبدا أن سير تفكيرها بكامله قد توقف وتبدّل:

«هل ابني مريض!؟».

«مريض جداً!».

«هل رأيته؟».

«أجل!».

«هل تصالحتما؟».

ولم يسعني أن أقول أجل أو لا!

وتلعثمت فيما كنت أقول «عندما كنت هنا، في المرة الأخيرة، أخبرتني الآنسة دارتل أنه كان يبحر دائماً هنا وهناك. وليلة أول أمس كان البحر هائجاً إلى درجة مرعبة. وإذا كان هو في عرض البحر في تلك الليلة، وعلى مقربة من الشاطئ الخطر، وإذا كانت تلك السفينة التي بدت لنا، هي ذاتها التي...».

وهتفت السيدة ستيرفورث «روزا، اقتربي مني!».

واقتربت روزا بشيء من المودة واللطف، وقد لمعت عيناها، وكأنهما النار المتأججة فيما كانت تقف بمواجهة السيدة ستيرفورث، ثم انفجرت في ضحكة مخيفة، وقالت: «والآن هل رضي كبرياؤكِ، أنت أيتها المرأة المجنونة؟ والآن هل كفَّر لك عن زلّته... بحياته! هل تسمعين؟ ... بحياته!».

وحدقت السيدة ستيرفورث إليها وهي تغوص في كرسيها، دون أن

تأتي بصوت سوى صوت الأنين.

وعادت روزا تصرخ وهي تضرب على صدرها بانفعال «أجل! انظري إلى تأوّهي وأنيني! حدقي إليّ هنا» قالت هذه العبارة الأخيرة وهي تضرب على أثر الندب فوق شفتها. «إلى عمل ابنك الميت!»».

وكان الأنين الذي يخرج من صدر الأم الثكلى، بين الحين والآخر، يشق طريقه مباشرة إلى قلبي. ودائماً الأنين عينه، ودائماً يأتي أنيناً أبكم مكتوماً.

وشرعت روزا تقول «هل تذكرين عندما أحدث لي هذا الندب؟ هل تذكرين متى أحدثه؟ لقد أحدثه بدافع من غطرسته التي كنت أنت تغذينها فيه، وقد شوهني مدى الحياة! انظري إليّ وأنا مشوّهة إلى أن أموت، وأنا موسومة بعلامة سخطه الكبير! وتأوهي نتيجة ما قد جعلتِ منه».

ورجوتها «من أجل السماء يا آنسة دارتل...».

واستدارت نحوي وهي تقول بعينيها البرّاقتين «أنا سأتكلم، أما أنت فاصمت! انظر إلي، إنها أم متكبّرة لابن متكبّر زائف».

وكوّرت قبضتها وشرعت ترتعش بجسمها النحيل، كما لو أن انفعالها كان سيقضي عليها. وهتفت «أنتِ التي اشمأززت من عناده! وأنت التي جُرحت بطبعه المتعجرف! وأنت التي ربيته من المهد إلى اللحد كي يكون ما كان عليه، وحلت بينه وبين ما كان يجب أن يكون! فهل نلت جزاءك الآن، لكل سنوات قلقك وتعبك؟».

«آه يا آنسة دارتل، إن هذا لمن العار، لمن القساوة...».

فأجابت «لقد قلت لك إني سأتكلم! ألن أتكلم بعد أن كنت صامتة طوال هذه السنوات؟ لقد أحببته أكثر مما أنت أحببته أنتِ دائماً!». قالت هذا وهي تستدير نحوها «لقد كنت متعجرفة، متكبرة، وأنانية».

واستمرت تتهمها بالصلف، والعنف، وأنها لم تكن راضية عن

الحب الذي بين ابنها وبينها، وذلك بعد أن كبر وأصبح راشداً، فندم على ما فعله لها، وغرق في حبها، إلاّ أنهما عادا ليفترقا بعد أن ضاع حلمه، في حين أنها - أي الأم - لم تحرك ساكناً، ولم تأسف لهذا. وخلصت أخيراً إلى القول:

«إنك تتأوهين، هيّا تأوهي من أجل ما قد صنعت منه وليس من أجل حبك له. وأقول لك مرة ثانية إني قد أحببته في ذلك الوقت أكثر مما أحببته أنت على الدوام».

ووقفت بعينيها الغاضبتين بمواجهة تحديق السيدة ستيرفورث الصامت، ووجهها الثابت. وطوال هذا الوقت لم يكن شكلها ليتغيّر، وبدا أن تغيره مستحيل. كان يبدو بلا حراك وقاسياً ومحدقاً بروزا، يئن بالطريقة البكماء عينها من وقت إلى آخر، ولكن لم تكن تبدو عليه أي إشارة من إشارات الحياة.

وعدت إليها في ساعة متأخرة من النهار، فقيل لي إنها لا تزال على حالها وإن الآنسة دارتل لم تتركها قط. وكان الأطباء يقومون على العناية بها، بحيث أجروا لها جميع الإجراءات، إلاّ أنها كانت تضطجع وكأنها تمثال، باستثناء صوت خفيض كان يصدر عنها بين الفينة والأخرى.

وجُلت في أرجاء المنزل الموحش، وأقفلت النوافذ، ولكنني تركت نوافذ الغرفة التي كان ستيرفورث مسجًّى فيها مشرعة. ثم إني رفعت يده الباردة إلى صدري فبدا كل شيء وكأنه الموت والصمت، لا يخترقهما سوى أنين أمه المفجوعة.

16

كانت عائلة ميكاوبر تقطن في منزل صغير، في مبنى مشترك، وكانت غرفه الخشبية الناتئة معلقة فوق النهر. وكانت عمتي بيتسي وآغنيس موجودتين هناك، منهمكتين بتدبير ملابس الأطفال، فيما كانت بيغوتي تساعدهما وأمامها علبة الخياطة القديمة، «والمازورة»، وشمعة صغيرة كانت قد عمّرت طويلاً ولم يبق منها سوى الأرومة.

سألت عمتي «متى ستقلع الباخرة يا سيد ميكاوبر؟».

أجاب «قيل لي إنه يجب أن نكون على متنها قبل الساعة السابعة من صباح يوم غد، أيتها السيدة! وإلى أن يحين ذلك الوقت، وإلى أن نرحل، سنبقى، أنا والسيد بيغوتي، نقوم بالمراقبة الشديدة والدائمة على أمتعتنا وحوائجنا».

وإذ عبّر السيد ميكاوبر لزوجته عن مدى شكره وامتنانه للآنستين تروتوود وويكفيلد، فقد قاطعته عمتي قائلة:

«في وسعي أن أقول، بالنسبة إليَّ طبعاً، إني سأبقى أشرب نخب سعادتك ونجاحك يا سيد ميكاوبر، وذلك بمنتهى المتعة!».

وقالت آغنيس بابتسامة «وأنا كذلك!».

وفي الحال هبط السيد ميكاوبر إلى الحانة في المبنى ذاته، ثم عاد وهو يحمل وعاء يتصاعد منه البخار، فأدركت للتوّ أنه كان شراب البانش. قالت السيدة ميكاوبر بلهجتها التعليلية «أتمنى للسيد ميكاوبر، هذا إذا كنت واضحة بالنسبة إليكم، أن يصبح أمبراطوراً لحسن حظه؛ وهذا ما يبدو لي أنه المركز المناسب له. ومن اللحظة الأولى لإقلاع السفينة، أود من السيد ميكاوبر أن يقف في مقدمتها ويهتف: كفى تقهقراً، كفى خيبة، وكفى مقاصد ووسائل محدودة، في هذا الوطن القديم، وفي الوطن الجديد، جِدْ تعويضك، واستمر به!».

وشبك السيد ميكاوبر يديه بطريقة حازمة، وقال معقِّباً «لا يسعني، يا حبيبتي، إلاّ أن أتأثر بنبل عاطفتك، إني دائماً أتمنى أن أذعن لمشيئتك الطيبة! وما سيكون... سيكون!».

وقالت عمتي وهي تشير برأسها نحو السيد پيغوتي «هذا رائع. وإني لأشرب نخب حبي لكم جميعاً، ولتحل عليكم كل بركة، وليحالفكم كل نجاح!».

حتى الأولاد شربوا نخبنا، وهم ينزلون الملاعق الخشبية في وعاء السيد ميكاوبر ثم يرفعونها ملأى بالشراب العتيد. وأخيراً قمنا، أنا وعمتي وآغنيس، وودّعنا أصدقاءنا وغادرنا. كان وداعاً محزناً للغاية، وكان الجميع ينتحبون ويذرفون الدموع. وقد تشبث الأطفال بآغنيس، فيما راحت السيدة ميكاوبر المسكينة تنتحب بقرب شمعة كئيبة.

وبعد ظهر اليوم التالي، قصدت ومربيتي القديمة پيغوتي إلى كرايفساند وشاهدنا السفينة في البحر ومن حولها مجموعة كبيرة من القوارب الصغيرة. كانت الريح تنساب بشكل ناعم، وأما شارة الإقلاع فقد كانت مرفوعة في أعلى الصاري الكبير. وفي الحال استأجرنا قارباً وانطلقنا إلى السفينة.

كان السيد پيغوتي في انتظارنا على متنها، وقد أخبرني أن السيد ميكاوبر أُوقف الآن من جديد (وكانت هذه المرة الأخيرة) بناء على دعوى هيپ. وامتثالاً لطلب قدمته له، تمكن من دفع المبلغ المستحق عليه، وعدت ودفعته له أنا بدوري.

ثم هبط بنا ميكاوبر عبر السطح والطبقات، وكان ذلك المشهد من الغرابة والضيق والظلمة في البداية بحيث كنت بالكاد أستطيع أن أتبين أي شيء. وفيما كانت عيناي تتعودان على العتمة، رحت أجول في أرجاء السفينة حيث رأيت الأمتعة والناس الذين يتبادلون التحيات، ويتعارفون، وأخيراً خيل إليّ أني رأيت شكل فتاة تجلس إلى جانب

إحدى بنات السيد ميكاوبر، عند باب مشرع، وكان هذا شكل إميلي. إلاّ أني عدت وفقدت هذا الشكل من جديد، وأنا في حيرتي واضطراب أفكاري، وذلكَ بعد أن قمت بحركة سريعة، وكل ما أدركته فقط هو أن الوقت حان ليهبط الزوار من على المتن.

قال لي السيد پيغوتي «هل ثمة كلمة أخيرة يا سيد دايڤي؟ هل هناك أمر نسيت أن تذكره لي قبل أن نفترق؟».

قلت «أجل. أمر واحد. مارتا!».

ولمس كتف الفتاة التي كنت قد ذكرت اسمها، وقد جاءت تقف أمامي، فقلت له: «لتباركك السماء أيها الرجل الطيب! خذها معك!».

ولم يسعني أن أتكلم إليه أكثر من ذلك، إلاّ أني شددت على يده. وإذ أعترف بأني قد أحببت وكرّمت رجلاً ما، طوال حياتي، فإنَّ هذا الرجل هو السيد پيغوتي.

وودعت السيدة ميكاوبر على متن السفينة، وكانت إذذاك تبحث عن أفراد عائلتها لتجمعهم قربها. أما كلماتها الأخيرة إليّ فكانت أنها لن تهجر السيد ميكاوبر أبداً.

وعدنا إلى قاربنا، وظللنا فيه على بعد قليل كيما نشهد عملية الإقلاع، وقد كانت شمس الغروب هادئة مشعة، وكانت السفينة تقف بيننا وبين الضوء البرتقالي. وعندما سمعت صوت محركها ورأيتها تتحرك، شعرت بقلبي يغوص في صدري، ولا سيما عندما رأيت القبعات والمناديل المرفوعة في الأيدي يلوح بها أصحابها... ثم رأيتها هي!

رأيتها هي، كانت تقف إلى جانب خالها الذي راح يلوح لنا بيده، ورأتنا هي كذلك، ولوحت لي بيدها للمرة الأخيرة علامة الوداع.

وفيما كان النور البرتقالي يغمرها كلياً، التصقت بخالها الذي أمسك بها جيداً، ثم مضيا وتواريا عن الأنظار بثبات ورزانة. وعندما

عدنا إلى الشاطئ كان الليل قد أسدل وشاحه على روابي كانتيش.. وخيّم بظلمته علينا.

*

كانت تلك الليلة طويلة وكئيبة، وقد اشتدت وطأتها عليَّ؛ إذ إنها كانت مليئة بأطياف الآمال وأشباح ذكريات عزيزة علي، كما كانت مليئة بمشاعر الحزن والأسى والندم.

وسافرت بعيداً عن إنكلترا؛ ولم أكن أدرك كم كانت شديدة تلك الصدمة التي عليّ أن أتحمّلها، كنت كرجل في ساحة القتال يصاب بجرح مميت ولا يدرك أنه أصيب، هكذا كنت، ولم يكن لدي أية فكرة، عندما أصبحت وحيداً، عن مدى خطورة الجرح الذي كان عليَّ أن أشفى منه.

رحت أتنقّل من مكان إلى مكان، وأنا أحمل معي عبئي حيثما حللت. كنت أشعر بكل وطأته آنذاك، وكنت أرزح تحته، وقد قلت في سري إن هذا الثقل لن يخف أبداً. وسافرت لعدة أشهر وتلك الغمامة تحجب الضياء عن عينيّ. وفي بعض الأحيان كنت أتنقل من مكان إلى آخر بقلق ودون راحة، وفي أحيان أخرى كنت أمكث متكاسلاً لفترة طويلة في أحد الأمكنة، ولكن لم تكن لي أي غاية في أي مكان قصدته!

كنت في سويسرا، وقد خرجت من إيطاليا عبر واحد من تلك الممرات الهائلة في جبال الألپ، ومنذ ذلك الحين وأنا أهيم عبر تلك الشعاب الضيّقة في الجبال، صحبة أحد المرشدين. وقد وجدت هناك الراحة والسلام بين تلك القمم، وعلى هدير تلك التيارات المائية الجارية.

وفي مساء يوم بلغت أحد الأودية، وكان ذلك قبل غروب الشمس، وقد كانت لا تزال ترسل أشعتها الواهنة فوق قمم الثلوج البعيدة، التي

كانت تحجبها، وكأنها سحب أبدية. وكانت سفوح الجبال، التي تشكل مضيقاً، تنام بين أحضانه تلك القرية الصغيرة، غنيّة بالخضرة. وكان ثمة غناء ينساب من بعيد، في هدأة الريح وسكونها، وفجأة، وفي هذا الصفاء، تكلمت إليَّ الطبيعة وتملّقتني كي ألقي برأسي القلق فوق العشب الأخضر، وكي أبكي كما لم أبكِ قط منذ أن توفيت دورا.

كنت قبل بضع دقائق قد وجدت حزمة من الرسائل في انتظاري، فاندفعت خارج القرية كيما أتمكن من قراءتها فيما يكون طعام العشاء قد أُعد. وفتحت تلك الحزمة ورحت أقرأ رسالة آغنيس.

كانت سعيدة، مطمئنة البال، وناجحة كما كانت تأمل. هذ كل ما قد أخبرتني به عن نفسها، أما في بقية الرسالة فقد كانت تقصدني أنا شخصياً. وطويت الرسالة ووضعتها في صداري، ورحت أفكر عما كنت فيه منذ ساعة! وعندما كنت أسمع الأصوات وهي تخفت، وأرى سحابة المساء الساكن وهي تزداد ظلمة، وجميع الألوان التي في الوادي تضمحل وتتلاشى، ويغدو الثلج الذهبي على قمم الجبال جزءاً نائياً من سماء الليل الشاحب، ومع أني كنت أشعر بأن الليل ينسلخ من عقلي، وتضمحل جميع ظلاله، لم يكن ثمة اسم أطلقه على الحب الذي أحمله لآغنيس.

كنت دائماً أشعر بالعجز أمام ثباتها وعزمها، أما الآن فإن شعوري بهذا العجز يزداد أكثر فأكثر. وبقيت في سويسرا لفترة، رحت في خلالها أعمل ليل نهار على كتابة إحدى الروايات المستوحاة من تجاربي، ثم بعثت بها إلى ترادلس الذي دبر أمر نشرها. وكانت أخبار شهرتي تصل إليّ من طريق المسافرين الذين كنت أقابلهم مصادفة. وعكفت بعد فترة على العمل على كتابة رواية أخرى، وكانت الرواية الثالثة، ولكني لم أكن قد بلغت منتصفها عندما عقدت النية على العودة.

17

كانت قد مرت ثلاث سنوات، منذ أن أقلعت سفينة المهاجرين؛ عندما كنت أقف، في ساعة الغروب ذاتها، وفي المكان عينه، على متن السفينة التي عادت بي إلى الوطن، أحدق إلى المياه اللازوردية حيث كنت قد رأيت انعكاس تلك السفينة.

وفي مساء يوم خريفي، مليء بالضباب، نزلت في لندن. وقد كانت عودتي متوقعة قبل عيد الميلاد، إلاّ أنني شئت أن أُفاجئ الجميع في وقت أبكر. وبعد أن استفسرت عن عنوان ترادلس الجديد، قصدت إليه، وقد كان سروره عظيماً بلقائي بعد هذا الفراق الطويل. وقد أخبرني أنه تزوج بابنة ذلك القندلفت. ولشد ما كانت دهشتي كبيرة عندما جاءت زوجته الحسناء وهي تضحك وتحمرّ خجلاً، فقبّلتها كما لو أني كنت صديقاً قديماً، وتمنيت لهما السعادة والهناء من صميم قلبي، وشكرني ترادلس على ذلك، وهو يشير نحو الطاولة القديمة وإناء الزهور، والكرسي. وبعد أن أعدّت لنا السيدة ترادلس الشاي، وحمّصت الخبز، جلست في الزاوية بقرب النار، والفرح يشع من عينيها.

أمضيت اليوم التالي في عربة دوفر. ولمّا وصلت اندفعت إلى داخل غرفة الجلوس القديمة في منزل عمتي، فيما كانت تتناول الشاي، وكانت في هذه الفترة تضع نظارة على عينيها، فاستقبلتني هي والسيد ديك وبيغوتي، التي كانت تعمل كمدبرة لشؤون المنزل، بالترحيب ودموع الفرح. وخضت وعمتي، بعد أن أصبحنا وحيدين، في أحاديث طويلة شتى، حتى ساعة متأخرة من الليل، وكنّا جئنا على ذكر المهاجرين الذين لم يكتبوا إلينا إلاّ بفرح وأمل.

قالت عمتي وهي تربت على ظاهر كفي، فيما كنا نجلس على طريقتنا القديمة بقرب النار «متى ستمضي إلى كانترباري يا تروت؟».

«سأمتطي جواداً وأذهب إلى هناك غداً صباحاً يا عمتي، إلاّ إذا كنتِ

تودين الذهاب معي؟».

قالت عمتي بطريقتها المقتضبة «كلاّ، أود أن أبقى حيث أنا!».

وبقينا صامتيْن لبضع دقائق، وعندما رفعت عيني رأيت عمتي وكأنّما كانت تراقبني بثبات فيما كنت مطرقاً غارقاً في بحر من التفكير، وعيناي مركزتان على النار. كنت أفكر، لأنه لم يكن في وسعي أن أكون هنا لمرة بقرب آغنيس، إلاّ وأفكر بتعنيف عمتي لي، ذلك التعنيف الرقيق. وتمثلتها وهي تقول لي: جاهل! جاهل جاهل. وكان هذا التعنيف يشير إلى كل ما فشلت في تعلمه في حياتي؛ وربما لأنها كانت تسبر أغواري، فقد خيل إليّ أن عقلي كان ساذجاً آنذاك، ويمكن أن يُقرأ بسهولة. قلت وقد كنت لا أزال غارقاً في بحر تفكيري «هل لدى آغنيس أي...» فقالت عمتي بحدة «ماذا؟ هل لديها أي... ماذا؟». فقلت «أي حبيب؟».

فهتفت عمتي بكبرياء يشوبها بعض الحنق «عشرون! كان من الممكن أن تتزوج عشرين مرة يا عزيزي، منذ أن غادرت أنت!».

قلت «دون شك! دون شك! ولكن هل لديها حبيب يليق بها وليس في وسعها أن تهتم بأحد سواه؟».

وراحت عمتي تفكر لفترة قصيرة وذقنها فوق يدها، ثم قالت وهي تصوّب عينيها إلى عيني ببطء «أنا أشك في أنها تشعر بحب ما يا تروت!».

فسألت «وهل هذا الحب ناجح؟» فأجابت عمتي برصانة «لا يمكنني أن أقول شيئاً. وليس لديّ الحق في أن أخبرك أكثر من ذلك يا تروت، إذ إنها لم تسر إلي بهذا الحب، وإنما أنا التي ظننت بوجوده».

وحدقت إلي باهتمام وقلق، حتى إني رأيتها ترتعش قليلاً، بحيث إني شعرت الآن، أكثر من أي وقت مضى، أنها قد فطنت إلى أفكاري الأخيرة، وأنها استحضرت جميع الحلول التي كنت قد توصلت إليها في خلال تلك الأيام والليالي، وجميع ما اعترى قلبي من صدمات.

قلت «إذا كان الأمر كذلك، وأنا آمل أن يكون...».

فقالت عمتي «أنا لا أعرف حقيقة هذا الأمر تماماً، ويجب ألاّ تأخذ بظنوني بشكل جدي! يجب أن نبقيها سرية. قد تكون سطحية، وليس لدي الحق في أن أقولها لك!» وكرّرت «وإذا وجب أن يكون الأمر كذلك، فآغنيس ستخبرني به في الوقت المناسب!».

وركبت الجواد في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، أستعيد شريط مشاهد أيام دراستي الأولى. وسرعان ما اجتزت الأرض التي لا أزال أذكرها جيداً، وبلغت الشوارع الساكنة، حيث كان كل حجر فيها بمثابة كتاب تلميذ بالنسبة إلي. واتجهت إلى المنزل القديم، مشياً على الأقدام، وفيما كنت أمر به نظرت إلى داخل الغرفة التي كانت ليوريا، أولاً، وللسيد ميكاوبر، فيما بعد، عبر نافذتها الخفيضة. وطلبت إلى الخادمة، التي أدخلتني إلى المنزل، أن تقول للآنسة ويكفيلد إنَّ صديقاً من خارج البلد قد جاء يزورها. وكنت قد أُدخلت، عبر السلم المعتم، إلى غرفة الجلوس التي لم تتبدل. كانت الكتب التي كنا قرأناها معاً، أنا وآغنيس، لا تزال ترقد فوق رفوفها، وكانت طاولة الكتابة التي كنت أكتب عليها فروضي المدرسية، في كثير من الليالي، لا تزال قائمة في تلك الزاوية، وكل شيء كان لا يزال كما كان عليه في الزمن السعيد.

أجفلت ثم استدرت على إثر انفتاح الباب الصغير في ذلك الجدار، وفيما كانت آغنيس تتجه نحوي قابلت عيناها الصافيتان الجميلتان عينيَّ، فتوقفت لتضع يدها فوق صدرها، واقتربت أنا وأمسكت بها بكلتا يدي.

«آغنيس! فتاتي العزيزة! أظن أني فاجأتك بشكل كبير!».

«كلا، كلا! إني جد فرحة برؤيتك يا تروتوود!».

«يا عزيزتي آغنيس! إن السعادة هي سعادتي أنا في أن أراك من جديد!».

وضممتها إلى صدري، وظللنا صامتين لفترة قصيرة، ثم جلسنا جنباً إلى جنب وقد تحول وجهها إلى ناحيتي وعليه طابع الترحيب الذي كنت حلمت به في نومي وفي يقظتي طوال هذه السنين.

كانت جد مخلصة، جميلة، وطيبة... وأنا مدين لها بعرفان الجميل. لكم كانت صادقة للغاية معي، بحيث إني لم أستطع إيجاد أي لفظ يعبر عمّا أستشعره نحوها. فحاولت أن أباركها، حاولت أن أشكرها، حاولت أن أخبرها (كما اعتدت أن أفعل دائماً في رسائلي إليها) أي تأثير لها فيَّ، إلاّ أن جميع جهودي ذهبت سدى. إن حبي وفرحي كانا أبكمئن.

وبعد وقت قصير سألتني آغنيس «هل لديك أي نية للسفر من جديد؟» وأضافت برقة «أنا أعتقد أنه يجب ألاّ تسافر يا تروت. إن ذيوع شهرتك ونجاحك يزيد في طاقتك على العمل الرائع، وإذا كان في وسعي أنا الاستغناء عنك، فقد لا يكون في وسع الزمن أن يستغني عنك أبداً!».

«أنتِ التي صنعتني بيديك يا آغنيس، وها أنا نفسي الآن. ولا شك في أنك تعرفين صالحي أكثر مني!».

وردّدت هي: «أنا صنعتك يا تروتوود؟».

قلت وأنا أنحني أمامها «أجل يا آغنيس، يا صديقتي العزيزة! لقد حاولت أن أخبرك، عندما التقينا الآن، بشيء يجول في رأسي منذ وفاة دورا. هل تذكرين عندما هبطت إلي في غرفتنا الصغيرة... وأنت ترفعين يديك إلى العلاء يا آغنيس؟».

فأجابت وعيناها مغرورقتان بالدمع «آه يا تروتوود! وهل في وسعي أن أنسى ذلك ما حييت؟».

«كما كنتِ في ذلك اليوم، أنتِ دائماً كنت كذلك معي يا آغنيس، دائماً تقودينني نحو الأفضل، دائماً توجّهينني نحو المراتب الأسمى».

واكتفت بأن هزت رأسها، ولمحت، عبر دموعها، البسمة الهادئة الحزينة.

وفيما كنت أمتطي جوادي عائداً في الليل البهيم، كانت الريح

تلفحني، فرحت أفكر بها، وخشيت أنها لم تكن سعيدة لذا لم أكن سعيداً أبداً.

*

بقيت لفترة من الزمن - إلى أن انتهى كتابي، الذي كان عملاً تمخض عن جهد بضعة أشهر - أعيش في منزل عمتي في دوڤر، حيث رحت أعمل بهدوء.

وكنت من وقت إلى آخر أمضي إلى لندن، كيما أفقد نفسي وسط حشد الحياة هناك، وكيما أبحث وترادلس بعض النقاط التي تتعلق بالعمل، ولا سيما أن ترادلس غدا الآن محامياً، وكان، في غيابي، يدير لي أعمالي على أحسن ما أشتهي، كما كانت قضاياي الدنيوية في نجاح باهر.

ودار عقرب الزمن، وانصرمت الأيام، واقترب عيد الميلاد. وكان قد مضى عليّ وأنا في منزل عمتي ما يزيد على الشهرين، وكنت أرى آغنيس مرة في الأسبوع على الأقل، وأحياناً أكثر من مرة. وعندما كنت أقرأ لها ما أكون قد كتبت، وعندما كنت أرى وجهها المصغي، كنت أفكر أي حظ قد يكون حظي معها، وقررت أن أخبرها بما كان يملأ قلبي.

قالت عمتي وهي تطل برأسها من الباب «هل ستركب الجواد اليوم يا تروت؟».

«أجل، إني ماض إلى كانترباري. هل ازدادت معلوماتك بشأن حب آغنيس؟».

فحدقت إلى وجهي لفترة قصيرة قبل أن تجيب «أعتقد ذلك يا تروت!».

حدقت إلى وجهي بثبات كبير، وفي عينيها شيء من الريبة، أو الشفقة، بحيث إني استحضرت أقوى تصميم لدي كيما أُريها وجهاً

فرحاً للغاية. وعادت تقول «وأكثر من هذا يا تروت...» وعندما استوضحتها أجابت «أعتقد أن آغنيس على وشك أن تتزوج!» فقلت أنا «ليباركها الله!».

وأضافت عمتي «ليباركها الله، وليبارك زوجها كذلك!».

وردّدت دعاءها، ثم هبطت السلم بخفة، ومضيت في سبيلي على ظهر الجواد. لقد كان الآن ثمة سبب أعظم من السبب السابق كيما أقوم بما عزمت على القيام به.

وجدت آغنيس بمفردها، فجلست بجانبها على المقعد قرب النافذة، ورحنا نتكلم عمّا كنت أقوم به، وعن الوقت الذي سينتهي به العمل في الكتاب وعن النجاح الذي كنت أحرزه. وكانت آغنيس جد سعيدة، وخمّنت فيما كانت غارقة في الضحك، بأني سأغدو مشهوراً للغاية، وذلك في وقت سريع، ولن يعود في الإمكان التحدث إليّ في مثل هذه المواضيع. وخلصت إلى القول «ولذا، فإني أستغل الفرصة في الوقت الحاضر، وأتحدث إليك مادام ذلك في وسعي!».

وإذ نظرت إلى وجهها الجميل، رفعت عينيها الرقيقتين الصافيتين ورأت أني كنت أحدق إليها. فقالت «تبدو شديد التفكير اليوم، يا تروتوود».

«هل أخبرك بما أفكر به يا آغنيس؟ لقد جئت لأقول لك.. هل تذكرين أني حاولت أن أقول لكِ، عندما عدت إلى المنزل، إني مدين لكِ بعرفان الجميل، يا عزيزتي آغنيس، وكيف كنت أشعر نحوك بحرارة؟» فأجابت بلطف «أذكر ذلك جيداً!» فقلت «إن عندك سرّاً دفيناً فدعيني أشاركك هذا السرّ يا آغنيس!».

أخفضت عينيها إلى الأرض، وراحت ترتعش.

«يجب أن أكمل، من أجل السماء يا آغنيس، لا تدعينا نخطئ الفهم بعد كل هذه السنوات، وبعد كل الذي حدث والذي لم يحدث

خلالها. يجب أن أتكلم بصراحة. وإذا كانت لديك أي فكرة بأني قد أغبطك على السعادة التي ستنعمين بها، فأرجو أن تبعديها من رأسك. أنا لم أتألم دون جدوى، يا عزيزتي آغنيس، يا أيتها الفتاة التي أحترم وأكرم... يا أيتها التي أحببت بإخلاص كبير... عندما جئت إلى هنا اليوم، فكرت بأن لن يكون ثمة شيء يعيقني عن الاعتراف لك، وفكرت أني أستطيع أن أحتفظ به في صدري إلى أن نغدو عجوزين. عندما أحببت دورا... بصدق كما تعلمين...».

فهتفت بحرارة «أجل، ويسعدني أن أعرف ذلك!».

«عندما أحببتها... حتى في ذلك الوقت، كان حبي لها ناقصاً دون عطفك وحنوك أنت. لقد كنت أشعر به، وكان كاملاً، ولكن عندما فقدتها يا آغنيس، فمَن أكون بدونك؟».

وقربتها أكثر إليّ، وغدت بالقرب من قلبي، ويدها المرتعشة فوق كتفي، وعيناها البرّاقتان تشعان فوق عيني عبر دموعها. «لقد سافرت يا عزيزتي آغنيس وأنا أحبك، وبقيت على حبك!، ثم عدت إلى هنا وأنا أحبك!».

«إني جد سعيدة... إن قلبي طافح بالفرح... ولكن ثمة أمر يجب أن أقوله لك يا تروتوود!».

«ما هو يا عزيزتي؟».

وألقت يديها الناعمتين فوق كتفيّ وحدقت إلى عينيّ بهدوء وقالت «هل تعرف ما هو؟».

«أخشى أن أتعب من التفكير فيه! فأخبريني به يا عزيزتي».

«لقد كنت ولا أزال أحبك، طوال حياتي!».

وفي خلال أسبوعين تم عقد قراننا، ولم يكن ثمة أناس في زواجنا الهادئ غير ترادلس والدكتور سترونغ، وكنا تركناهما والبهجة تملأ صدريهما، وسرت وإياها في سبيلنا. قالت آغنيس «يا زوجي العزيز،

أما الآن، وقد غدا في وسعي أن أدعوك بهذا الاسم، فقد بقي شيء آخر أود أن أخبرك به!».

«دعيني أسمعه يا حبيبتي!».

فقالت «إنه يعود إلى تلك الليلة، عندما توفيت دورا، وقد بعثت بك إليّ».

«أجل، لقد فعلت ذلك!».

«قالت لي إنها تترك لي شيئاً ما! هل في وسعك أن تقدر ما هو هذا الشيء؟».

كنت أعتقد أني أستطيع أن أقدّر ما هو، وسحبت زوجتي التي أحبتني كل هذه المدة الطويلة، وقربتها مني، واستمرت هي تقول «لقد قالت لي إنها تتقدم إلي بالتماس أخير، وتترك بين يديّ عهداً أخيراً...» فقلت: «وقد كان...!».

أجابت: «بأني أنا وحدي التي يسعني أن أملأ هذا المكان الشاغر...».

وألقت آغنيس برأسها فوق صدري وراحت تنتحب، وشرعت أنا أنتحب أيضاً، مع أننا كنا سعيدين جدّاً.

*

والآن تنتهي روايتي التي أكتب؛ وأنظر إلى الوراء مرة أخرى وأخيرة... قبل أن أنهي الصفحة الأخيرة؛ فأرى نفسي، وآغنيس إلى جانبي، أقوم برحلة على طريق الحياة، وأرى أطفالي وأصدقائي يلتفون من حولنا، وأسمع هدير أصوات عديدة لا تختلف بالنسبة إلي وأنا أستمر في رحلتي.

تُرى! أي وجوه هي أوضح ما تكون إليّ وسط هذا الحشد الفاني؟ ها هي ذي! جميعها تتحول إليّ فيما أطرح أنا هذا السؤال على ذاتي. ها هي عمتي، تضع على عينيها نظارة سميكة، وقد أصبحت عجوزاً،

تتجاوز الثمانين، ولكنها لا تزال مستقيمة القامة، تسير مسافة ستة أميال في أيام الشتاء. وإلى جانبها تبرز بيغوتي دائماً، مربيتي الطيبة، القديمة، وهي ترتدي نظارة مثل نظارة عمتي، وقد اعتادت أن تقوم بأشغال الإبرة في أثناء الليل، وهي قريبة جداً من المصباح، ولكنها لم تكن تجلس إلى عملها قط دون قطعة صغيرة من الشمع، «ومازورة» في حق صغير، وصندوق عملها الصغير، وعلى غطائه صورة القديس بولس.

وثمة شيء ضخم يقبع دائماً في جيب بيغوتي، وليس هو بشيء أصغر من كتاب التماسيح، الذي أصبح في حالة يرثى لها الآن، فقد انسلخت أوراقه وأُعيدت إليه بوساطة الخيط والإبرة؛ ولكن بيغوتي كانت تعرضه على الأولاد وكأنه تركة ثمينة. وقد وجدت أنه من الغرابة، حقاً، أن أرى طفلي ينظر إليَّ من خلال قصص التماسيح.

وفي أثناء عطلة هذا الصيف، أرى رجلاً مسناً بين أطفالي يصنع لهم طائرات ورقية عملاقة، ويحدق إليها وهي ترفرف في الجو بفرح كبير، حيث لم تكن عليها أي كلمات، ويحييني بطريقة تذهل العقل، ويهمس وهو يهز رأسه ويغمز بعينه عدة مرات: «ستُسرّ يا تروتوود عندما تسمع أني سأنتهي من مذكراتي حيث لا يعود عندي أي شيء آخر لأقوم به، وأن عمتك لهي امرأة تفوق جميع نساء العالم طيبة، وفطنة يا سيدي!».

والآن ها أنا أنهي عملي، وتغيب جميع هذه الوجوه، ولكن وجهاً واحداً يبقى، يبقى دون أن يغيب عني. وأدير رأسي وأراه إلى جانبي في صفائه المبهر. وينوص مصباحي وقد سوَّدت صفحات طويلة حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكن وجودها العزيز، الذي بدونه لما كنت أنا أي شيء، كان دائماً يصاحبني.

آه يا آغنيس، هكذا سيبقى وجهك بقربي عندما أنتهي من حياتي فعلاً، وهكذا قد أجدك لا تزالين بصحبتي، فيما الحقائق تفرّ مني، كالظلال التي أطردها الآن، وأنتِ تشيرين بيديك إلى الأعلى.



دايڤد كوپرفيلد

في «دايڤد كوپرفيلد» نعود إلى ذلك التألّق الودود والأليف الذي يشع دفئًا في الجانب الأعظم من عالم تشارلز ديكنز، حتى إنّ هناك شخصيات تتمتع بهذه القدرة على إشاعة الألفة والود، فهي تحظى بحب شعبي كبير، ربما لأنّها تضم ثروة من الإشارات والمراجع الذاتية، وربما بسبب الاعتراف العالمي بهذه الشخصيات.



ISBN 978-9953-542-40-9

